جَبَلُ المَجَازات

(من مَنْسِيَّات المناجاة بعد اختفاء الغزالة)

جَبَلُ المَجَازات
(من مَنْسِيَّات المناجاة بعد اختفاء الغزالة) – رواية
تأليف: أحمد كامل

تصميم الغلاف: نجاح طاهر
ISBN: 978 - 9933 - 540 - 66 - 1
الطبعة الأولى: 2018

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا – دمشق – ص ب: 9838
هاتف–فاكس: 6133856 11 963+
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH

دار سرد للنشر
جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing

جميع الحقوق محفوظة للناشرين دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع ودار سرد للنشر.
لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله،
على أي نحو أو بأي طريقة دون موافقة الناشرَين الخطية.

أحمد كامل

جَبَلُ المَجَازات

(من مَنْسِيَّات المناجاة بعد اختفاء الغزالة)

رواية

وما حيلتي، والعجز غاية قوّتي، وأمري جميعاً تحت حكم المشيئةِ.

(محمود أبو الفيض الحسيني)

أكرِموا عمّتكم النخلة، فإنها خُلقت من الطين الذي خُلق منه آدم.

(أبو حاتم السجستاني)

يعملون له ما يشاء

كانت البلدة الساكنة كنقطةٍ منسيّة على حواف صحراء لانهائية. وبينما النجوم كخروم نافذة في قماش السماء، ارتبكت مصابيح من فتيلٍ وكيروسين على جانبَي طريق البلد الرئيسي، الواصل ما بين بيوت عائلة جبل في أقصى شمال شرق البلد، ومحطة السكة الحديد في آخِر الغرب. كان زجاج المصابيح مغطّى بطبقةٍ من هبابٍ أسود، وللمصابيح ظهورٌ مستديرة من صاج، مُسمَّرة من خلالها في رؤوس أعمدةٍ أسطوانية قصيرة، من خشب جافّ ومتشقّق، متناثرة على جانبي الطريق، ومُثبَّتة من خلال حشر القواعد في الأرض الترابية.

وخلت الدروبُ والغيطان من الأقدام؛ نام الناس، واستراحت البهائم، وانقطعت الطيور عن الخلق؛ ولم يُسمع غير نقيق الضفادع وصرير الجنادب، موصولاً بحفيف النباتات واختلاج أخواص العشش.

وفي صحراء ممتدّة خارج البلدة، في الغرب، فيما وراء شريط السكّة الحديد؛ تطايرت الرمال أمام ضربات رياحٍ منذرة وعاتية، مضت مسرعةً شرقاً نحو البلد، ودهست الرصيف القبلي للمحطة؛ فانخلعت لوحة معدنية بطلاءٍ أبيض، متّسخ ومتقشّر، مثبّتة من أطرافها بمسامير إلى وتدين

خشبيين ينتصبان فوق الرصيف، ومخطوط فوقها بلونٍ أسود باهت: «**محطة الغزالة**». واندفعت اللوحة مع الرياح، زاحفةً بتتابع فوق الرصيف بفحيحٍ معدنيّ، بينما أطرافها تخرّش في سطحه الكلسي حتى وصلت إلى الحافة؛ سقطت من فوق الرصيف وارتطمت بقضبان السكّة بصوت طبلٍ رنّان، بينما تتقلّب وتدور حول نفسها عدّة مرّات. وتأرجح مصباح المحطة المتدلّي من خلال سلك معدني قصير من البروز الخشبي لسقف غرفة الناظر فوق الرصيف القبلي؛ فتراقصت أضواءٌ وخيالات فوق الرصيفين، وعلى المصاطب الطينية المرصوصة إلى جوار غرفة ناظر المحطة، قبل أن تنطفئ ناره، وتنكسر زجاجة المصباح مرتطمة بالجدار أعلى باب الغرفة.

عبرت الرياحُ قضبانَ الحديد والفلنكات الخشبية، وصنعت دوّامات مرئية من رمال تتخبّط بين مقاعد من شرائط خشبية ذات لون أخضر متآكل، مدعّمة بقوائم حديدية صدئة، ومرصوصة فوق الرصيف البحري، بين أربعة عروق خشبية ضخمة ومتعفّنة، تحمل سقفاً من الصاج فوق المقاعد. وبينما علا احتكاك سعفة نخل متهدّلة من تعريشة السقف مع الحافة المعدنية للصاج بصوت نحرٍ أزليّ، برزت نقرات الرمال على السطح الداخلي للصاج كدبيب ملازم، واهتزّ باب غرفة ناظر المحطة؛ فتلاعب القفل الصغير في مشبك الباب، مُصدِراً صوت احتكاك المعدن بصرير معذَّب ومتقطّع، تعلو وتنخفض صافرات الرياح بين همساته. وارتفعت طرقات دافعة ومتتابعة فوق الباب المتهالك، غائرةً به نحو الداخل لسنتيمترات، قبل أن تهدأ لثوانٍ؛ سامحةً فيها بارتداد الباب إلى عضادتيه ثانية، بينما أحاط به حفيفٌ وخشخشة فروع لبلاب كثيف فوق السقف وحول جدران غرفة الناظر. كانت المحطة أشبه بفرقة تؤدّي سيمفونية ليلة بردٍ خاوية.

تجاوزت الرياحُ القضبانَ إلى الشرق باتجاه الغزالة؛ فوقفت لها مصدّات مكوَّنة من صفٍّ طويل من أشجار الكازورينا الضخمة بأوراق إبرية وفروع مرتفعة عن الأرض، تمتدّ من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة الجانب الشرقي لخطّ السكة الحديد، وتستند على الحافة الخارجية لمصرف البلدة الموازي لخط السكة. في حين تلاحمت رؤوس أشجار سنط بأكتاف الكازورينا من الداخل والخارج؛ لتملأ الفراغ الناتج عن ارتفاع أغصان الكازورينا، وتغلق المنافذ في وجه الرياح والرمال. وانتشرت قرون سنط جافّة وبنّية على حافة المصرف، المملوءة بحُزَمٍ من أعشاب زمير كثيفة ومتناثرة.

تخلّلت الأرضَ دبّاتٌ خفيفة متتابعة، وكانت مياه المصرف أول من أحسّ؛ فارتعشت، متموّجةً ببطء، وأرسلتْ تُنبّهُ المياه في ترعة بحر الدسايس، التي تنبع من البحر الكبير المحاذي للحدّ الشرقي للبلد، وتشقُّ الغزالةَ إلى نصفين مستطيلين وهي تمضي إلى الغرب باتجاه المصرف، موازية للجهة البحرية من طريق البلد. تعالى نبض الماء في التُّرَع والمصارف والقنوات، وشكَّلت النبضاتُ دوائرَ تتّسع لتلامس الحواف الترابية؛ فصاحت الديكة وماءت القطط ونبحت الكلاب وهاجت المواشي في الحظائر. كان النوم يضرب بينما دبيبٌ قادم لمجهول يتزايد في إصرار.

وبَدَتْ في عمق الصحراء أطيافٌ لكتلة ضخمة ومتحركة تقترب من الغزالة؛ كانت جحافل لانهائية من نخلات تدور حول نفسها، مئات آلافٍ من نخلاتٍ تتدحرج أفقيّاً بانتظام وخفَّة خلف جسمٍ بشريٍّ ضئيل، ممتدّة في الصحراء بطولٍ يتجاوز أربعة كيلومترات وعرضٍ يقارب الثلاثة كيلومتر؛ وتبدو كبساطٍ عملاق يُسحَبُ بأيدٍ خفيّة نحو الغزالة. كانت النخلات

تشكّل ما يقرب من ثلاثة آلاف صفّ متتالٍ، وفي كلّ صفٍّ يتدحرج ما بين ثلاثمئة إلى أربعمئة نخلة. والضئيل في المقدمة، يهرول أمام النخلات ويلهث؛ بشفاهٍ منفرجة، داكنة ورفيعة، يكوّرها أثناء شفطه المتقطّع للهواء، بشهيقٍ مبتور وغير متساوٍ، واللعاب يسيل ويتطاير من فتحة فمه، وينفصل سريعاً مع الرياح. ومع زفيره، كانت تتبدّى أسنانه الأمامية متكسّرة حول طرف لسانٍ بارز، أسود ومُشعر، بينما كان بصره مشدوداً إلى السماء، بعينين حادّتين وغائرتين في جذبٍ كاملٍ، رأسه بوجهٍ مستطيل وضامر، مع وجنتين بارزتين بعظام ظاهرة.

كان جسمه منقبضاً وعريانَ بلا ستر، إلا من شعر عانةٍ كثيف لم يُمَسّ منذ سنوات طويلة، ونما في وجهه شاربٌ ولحية كثيفة وعشوائية، مغبرّة ومليئة بأوساخ، وامتدّ شعر رأسه إلى منتصف الظهر مع ضربات متناثرة من فرشاة الشيب، بينما خطوته الحافية تبدو كثمرة من إيقاع آلاف النخلات المتدحرجة خلفه.

كان يتحرّك في نظام؛ فبينما يفرشخ ويباعد ما بين ساقيه، كانت قدمه اليمنى تمتدّ وتقفز في خفّة وبمقدار محسوب قبل أن تلمس الرمل، ثم تتبعها اليسرى بمحاذاتها ودون أن تتقدّم. ذراعاه مفرودتان ومثبّتتان إلى الجذع بقوّة غير مرئية؛ أبدته مع شكل خطواته كآلةٍ خشبية بلا حياة، بينما تدحرُج العمالقةِ من خلفه، والدوران المجنون لملايين السعفات يحوِّل رمال الصحراء إلى غبار كثيف، يرتفع عالياً ومحيطاً كقبّة عملاقة، ويمنح الجيشَ مزيداً من الجلال والرهبة.

وقبل شريط السكة الحديد بنحو كيلومترٍ واحد؛ كان الضئيل يعبر جنوب مقابر البلد المتناثرة في الصحراء بشواهد طينية وارتفاعات مختلفة وأسماء تجاهد النسيان. توقَّف؛ وتسمّرت من خلفه الجحافل على الفور؛

مُطلقةً مزيداً من غبارٍ أعجزت معه كلَّ رؤية. التفت الضئيل يساراً وهو يدقّق في الشواهد من بين العتمة والغبار الذي راح يهدأ من حواليه بالتدريج؛ فبدت ندبةٌ لجرحٍ طوليٍّ وعميق، تمتد في الجانب الأيمن من الجبهة. كان صدره يرتفع وينخفض لدقائق، مع سعالٍ متقطّع، وأصوات صفير وخشخشة مصاحبة لتنفّس صعب، ومن خلال شهقات مجاهِدة لفمٍ مفتوح؛ نتيجة لسنوات من ملازمة جفاف الصحراء ورمالها.

وما إن انتظمت أنفاسه؛ حتى اتّجه نحو المقابر، ماضياً خلالها، بخطواتٍ متمهّلة، متلفّتاً بعينيه كأنما يبحث، ومتحسّساً بكفَّيه، مرّةً بعد مرّة، أسطحَ القبور. إلى أن توقف أمام شاهد حجريّ، ضخمٍ ومرتفع عن البقية، منصوب فوق قبرٍ بارز ومغطّى بجدران من طوب لِبن، وحواليه نباتات صبّار كثيفة وأعمدة سعف صفراء مغروسة في الرمال، ومفروش فوق القبر وعلى جوانبه كسوة من أقمشة خضراء باهتة إثر الانفراد بشمس صحراوية، مثبّتة من أطرافها بمسامير على الجدران، ومُطرّز فوقها بخيوط ذهبية شكلاً لوجهٍ أنثويّ مربّع، بفكٍّ عريض وعيون واسعة، مع رسم لشكل سيف بالنيلة الزرقاء فوق الجبهة العريضة، والمكلّلة بضفائر مختلطة من تشابكات لخيوطٍ سوداء، بينما برز على الشاهد نقشٌ حديث: (**المرحومة رئيسة النسل وشمس الإفراج «درّية عبد العليم جبل»**).

وبعنفٍ؛ انتزع الضئيل قطع القماش من سطح القبر وجوانبه وهو يدور حواليه كثورٍ غليل في ساقية ثأرٍ قديم، قذف بها لتتخبّط في الهواء بأصوات تموّجٍ ورفرفات وهي تعبر أمام الجيش الرابض وتغور في الجهة القبلية. رفع قدمه، ارتكز براحتَيه، وصعد على سطح القبر بينما ظهره للغزالة. تناول عضوه بيمينه من بين غابة شعره وبال فوق الشاهد. كان البول يخرج متقطّعاً من عضوه، في مسارين مختلفين، وهو يحرّك عضوه ويحاول

تسديد أحدهما فوق القبر بيدٍ مرتعشة، بالرغم من الهواء الذي يحمل السائل بعيداً، والرذاذ الذي يرتدّ إلى بطنه وساقيه.

وفي نقطة قديمة في رأسه؛ كان يرى خيطه ينساب إلى وجه الميّتة، فيصوِّبه إلى عمق الحَلْق، ودرّية تتملّص في كفنٍ أبيض، تنفض وجهها بعنفٍ إلى اليمين واليسار، وتزمُّ شفتيها اتّقاءً للبول؛ فيعدِّل اتجاه الخيط إلى فتحتي الأنف بدقّة، ويرفعه قليلاً ليُغرق العينين المليئتين بدموع عجزٍ مشتهاة في أحلامه. أفرغ مثانته، وعصر عضوه عدّة مرات ليُزيل آخر القطرات.

التفت يساراً نحو نخلاته الساكنات، ومَيَّز هسيسَ السعفات المتمايلة في فراغٍ معتم، مختلطاً بخروش في الرمل، قبل أن تثبت عيناه على القبر المجاور لدرّية. كان ينزل من فوق قبر درّية وعيناه معلّقتان على الشاهد المجاور. وقف وحدّق فيه لبرهة؛ كأنما يتأكّد من هيئة وموضع قديم، ثم صعد على الطرف الغربي للقبر حيث رأس الميّت، ودبدب بقدمه اليمنى مرات عديدة في هياجٍ لا واعٍ، قبل أن يفيق على آلام ركبة شائخة؛ فيضغط بيديه فوق الركبة بينما يلقي بثقله على ساقه اليسرى، ويبصق فوق القبر في مزيج من ألمٍ وغلٍّ أبدى مزيداً من التغضُّن في وجهه. كان ينزل وهو يرتكز على يسراه ويقدّمها لأول مرة. وبينما يعود إلى مقدّمة النخلات ببطءٍ شديد بسبب ارتعاشة مفضوحة لساقه اليمنى، رفع ذراعه وأشاح بيده سريعاً إلى الخلف تجاه المقابر، ثم أكمل المسير شرقاً نحو الغزالة. انفصلت المئات من نخلات الميسرة بالإشارة، هرولت باتجاه المقابر، تدحرجت فوق القبور، دهست وفتّتت الشواهد والأحجار المحيطة بالقبور، ثم تراجعت إلى الوراء وتقدّمت من جديد بقوّة ضغط غليل؛ لتمزّق ما استطاعت من أكفانٍ بارزة عن الأرض، وتخلط

الموتى بالجذوع. كانت النخلات تتدحرج عدّة مرات؛ ذهاباً وإياباً فوق المدافن، ترتفع رؤوس بعضها محلّقة بالسعفات في الهواء كطائرٍ ضخم وسريع؛ تنهض واقفة على الجذوع، وتتقافز بجنون فوق مواضع الأجساد؛ فتخترق طبقاتٍ هشّة من طميٍ ورمال، وتدكّ العظام البالية، قبل أن تعود مسرعة إلى جناح الجيش، مخلِّفة صرخاتٍ ونحيبَ عوالم موازية؛ أيقنت بنسيانٍ تامّ.

وأمام قضبان السكك الحديدية؛ توقّف الضئيل، رفع ذراعه اليسرى عالياً بكفٍّ مفرودة في إشارة إلى جيشه الضخم بالثبات. صعد الدرجات الحجرية إلى الرصيف القبليّ للمحطّة بالوهن اللازم لجسدٍ نحيف تنكشف عظامه. كانت ذراعه اليسرى ما تزال مشدودة وترتعش أمام الجيش، كتفاه محنيّتين، وجسده الأسمر ممتلئاً بندوبٍ وقروح نتنة، تتركز في الصدر والبطن والسطح الأمامي لفخذَيه، مع بقعٍ داكنة وخشنة منتشرة فوق الكتفين والظهر.

وخلفه، توقّف جيش العمالقة بالطاعة الواجبة؛ وأحاط السكون بالبلدة مع هسيس لاختلاج ملايين السعف المتمايل خلال التماسات الريح، إلا أنّ ذراع الضئيل استمرّت مرفوعة أمام الهواء الجامح بالرغم من اهتزازها الواضح، بينما ينظر من خلال المِصدّات الشجرية نحو البلدة النائمة، والجسر الخشبيّ فوق المصرف، الذي يربط طريق البلد بمحطّة السكك الحديد. مضى ببصره إلى اليمين تجاه نهاية مِصدّات الأشجار؛ وشاهد الأضواء تنبعث من بيوت عائلة أبو لبدة في أقصى جنوب غرب الغزالة.

كانت بيوت أبو لبدة تقف عارية في مواجهة الصحراء، دون مصدّاتٍ تمنع عنها قسوة الرمل المتطاير، ومُطلّةً مباشرة على القذارة والروائح من مصرف البلد، الذي يضيق مجراه أمام مساكنهم؛ سامحاً بتكدُّس المزيد

من النفايات. كانت عيناه تضيقان للحظات قصيرة، لكنهما تستعيدان وجعاً عاش لسنوات. أكمل الالتفات بنظره إلى أقصى اليمين، نحو القضبان الممتدّة باتجاه المناجاة الكبرى جنوباً، مسترجعاً عواء القطارات في ركنه القصيّ داخل عشّة ولادته. وأنصتَ لخرير الماء في المصرف، بروائح المخلّفات المنبعثة وأصوات الحشائش على الحافة؛ التي حفزت الذاكرة للعودة إلى النبع، بينما جسده يتحدّى رعشات الانفعال والبرد بشعلة ثأرٍ تتأجّج؛ لتعطي أصابع كفّه المرفوعة القدرة اللازمة على الانثناء بالإشارة نحو البلدة، في حين ارتفعت ذارعُه اليمنى بمحاذاة الكتف؛ مُشيرةً بالسبابة إلى اتجاه الجنوب الشرقي.

انقسمت جحافل الجيش لتمرّ من حول الرصيفين، تسابقت نحو البلدة مثل قطيع ظامئ حول بركة، تدحرجت النخلات بسرعة رهيبة، وبضوضاء حوافر خيولٍ مندفعة، مضت فوق القضبان الحديدية، ثم انفصلت مجموعة من الميمنة واتجهت إلى الجنوب الشرقي نحو نهاية المصدّات الشجرية، بينما ارتطمت البقية كموجة إثر أخرى بصفّ أشجار الكازورينا والسنط. كانت النخلات الأولى تتدحرج في أماكنها وهي تدفع جذوع المصدّات، محصورة بين الجذوع ودفعات الجيش من الخلف، بينما تتدحرج وتعتليها النخلات الآتية من الخلف. تكوّمت النخلات حتى ارتفعت كَتَلٌّ دافعٍ أمام سيقان أشجار الكازورينا التي انقصفت جذورها فجأة، وهوت بتتابع أمام الطوفان إلى داخل المصرف مع تلٍّ النخلات الضاغطة. كانت المصدّات تتكسّر وتتهاوى نقطة خلف أخرى، مثل حصن يسقط بالتدريج، وفوقها تسقط نخلات المقدّمة. أكملت النخلات؛ فنزلت مقدّمة الجيش إلى داخل المصرف على طول البلد وساوت مجراه بالحافتين؛ مهيِّئةً الموضع لعبور بقية الجيش في نظامٍ ويُسر، بينما تعجّلت

نخلات أخريات من الصفوف الأولى؛ انقلبت رأساً على عقب داخل مياه المصرف، قبل أن تدور ثانية في الهواء لتقف على الحافة المقابلة.

دَخلتْ النخلاتُ إلى غرب البلد، ركضت بسرعة وكمطرقة واحدة عملاقة إلى الغزالة؛ عن جانبَي ترعة الدسايس التي تقسم الغزالة إلى نصفين، تكنس في الشمال أراضي عائلة جبل؛ تخلع الشجر وتطأ المزروعات، ماضيةً إلى الشرق نحو بيوت عائلة جبل دون عائق.

وإلى جنوب الترعة؛ مضت بمحاذاة أرض عائلة أبو لبدة وبيوتها. ولم تمسّ النخلات بيوت أبو لبدة أو مساحة مزروعاتهم الضئيلة، والممتدّة كشريط طوليّ أمام مساكنهم من حافة المصرف في الغرب إلى حافة التفريعة القبلية شرقاً. لكنها مضت إلى الشرق فوق طريق البلد، وفوق مزروعات أهل الغزالة ودورهم المتناثرة جنوب الدسايس. أزالت جدران الخوص لعراشية المحطة المقامة على الجانب القبلي لطريق البلد؛ بعثرت الأكواب وأوعية البُنّ وقوالح ذرة مخزّنة في جوالات خيش لإشعال المعسّل، حطّمت القلل وطاولات الجريد ودِككاً خشبية ونرجيلاتٍ من نحاس وبوص، ثم عبرت إلى سوق الغزالة المحصور بين طريق البلد الرئيسي وترعة الدسايس؛ فهرَسَتْ نائمين فوق عربات خشبية وحول أقفاص مرصوصة أسفل مظلّاتٍ من خيش مثبّتة بأوتادٍ رفيعة من فروع الشجر. كانت ليلة السوق الكبير في البلد؛ وقبل ساعات ومنذ المغيب، بدأ توافد الباعة من القرى المجاورة إلى الغزالة محمّلين بالبضائع صوب أرض السوق. وما إن جُهِّزت البضاعة للعرض مع أضواء الصباح واتخذ كلّ أصحاب سلعة أو حرفة موضعهم من السوق؛ حتى ارتمى كلٌّ منهم بجانب بضاعته لينال شيئاً من راحة قبل كدِّ نهارٍ قادم.

صحا البائعون في فزعٍ أمام هدير طواحين مفاجئ، واعتلت مئات

النخلات صدور المتطلّعين ووجوههم، قبل أن يدرك الباعة أنهم خارج كابوس؛ فيتناولون ما قدروا عليه من بضائع، محاولين الهرب في أيّ منفذٍ متاح، قبل أن يصطدموا بدقّة الكابوس ومهارته؛ فيخلّفون الحاجات، ثم يخلّفون العيال والأقارب، ويلجؤون إلى جريٍ عشوائيّ ومتخبّط عبر طريق البلد أو إلى القفز داخل الدسايس. كان اليأس قد أكل في حواف الفزع، والنخلات في إثرهم، تتابع الركض وتشكّل حولهم حلقات وتطأ من تطوله. كانت النخلة تتأخر للحظات نتيجة للاصطدام بضحية أو عائقٍ ما؛ فتتدحرج وتعتليها نخلات أخريات قادمة بسرعة من الخلف، ما تلبث أن تكمل الطريق وتقفز في الهواء ضاربةً ظهرَ الضحية أو صدره حتى تسقطه؛ سامحة للنخلة الأولى بأن تطأ وتهرس الجسد الساقط دون عناد أو مقاومة. خلّفت النخلات عجيناً وفوضى: من خضراوات وفاكهة، وطشوت معدنية مبطّطة ينساب منها قطع جبن وسمن سائل، ولحوم خراف وبقر مهروسة بدمٍ طازج لأجساد باعة ممزقة، وصِناج موازين متبعثرة، وأخشاب متكسرة من أقفاص ودعامات خيام وهياكل مظلات وطاولات، مخلوطة بحلي نحاس ومعدن، وقطع خزف، وأقمشة صوفية وقطنية، مع جلود متناثرة، وأجزاء فخار متكسّر من قلل وجرار وطبول، بينها أدوات وشم، وعُدَد حلاقة، ومخارز وسنادين مثلّثة الرؤوس، محاطة بصرخات لوعة، ونداءات خوف على عتبات الدخول إلى عواءٍ على مصيبة.

واصلت النخلات الركض إلى الشرق وهي تقصف أعمدة الإنارة الخشبية في طريق البلد؛ تاركة ما وراءها في عتمة خالصة. وقطعت حوالي الربع من أراضي الغزالة جنوب ترعة الدسايس؛ حتى وصلت إلى التفريعة القبلية التي تخرج من الدسايس وتتجه جنوباً حتى تنتهي ببركٍ من الماء في رمل الخلاء المحصور بين الغزالة والمناجاة الكبرى. سقطت

بعض النخلات في التفريعة القبلية؛ مكوِّنةً جسراً تعبر فوقه الأخريات من جديد، والتي واصلت الهرس في جدران الكُتّاب والوحدة الصحية ومركز البريد ونقطة الأمن والبيوت المتناثرة على جانبي طريق البلد. كان الخفر يخرجون من باب النقطة ونوافذها إثر أصوات دكٍّ عظيمة، يشهدون المئات من أوراق رسمية وحجج ملكية مزحومة ببصمات آدمية وزراكش أختام مع تحرّر مُتحرِّق لخطابات حبيسة ومغبّرة بلا عناوين ولا سائل، وهي تتأرجح فوق الرؤوس وتنساب كحمامات تشقّ العتمة ولا أثر لمركز البريد الذي تحوّل إلى كُوَم من حجارة مفتّتة، تحتضن قِطعاً من ألواح خشبية مقصوفة، بينما سيقان لانهائية تتقدم بأصوات هدير عاتية. وقبل أن يعمِّر الخفرُ بنادقهم؛ كانت النخلات قد اعتلت وطحنت، ونجا من نتر الدهشة عن رأسه أمام رؤيته لأجساد تتطوّح وتنفعص؛ فرمى نفسه في الترعة، أو امتطى أقرب الأحصنة من أمام النقطة وولّى هارباً إلى الشرق.

وفي الخلاء الملازم للحدّ القبلي للغزالة؛ كانت الميمنة التي انفصلت عن الجيش -والتي تدحرجت من قبل إلى نهاية مصدّات الأشجار- تلتفّ من جهة الجنوب حول البلدة، تجاوزت مقابر المجاهيل التي تقبع في الصحراء خلف بيوت أبو لبدة، ولم تلمس النخلات أيّاً من بيوت أبو لبدة أو مقابر المجاهيل كما أُمرت. عبرت في الخلاء إلى أن تجاوزت البرك المائية المتكوّنة عند نهاية التفريعة القبلية، وهطلت على المزروعات والدور، ماضيةً نحو الشمال الشرقي كمثيلاتها التي هجمت من الغرب.

كانت النخلات تكنس الدور والخلائق والحيوانات والمزروعات، والصرخات تندلع من الأفواه، بينما اللحم ينهرس تحت ثقل النخلات المتدحرجة. انخرط اللحم تحت النخل والحجارة، والتصق المتحابّون والمتكارهون بجذع النخلة الواحدة. والنخلات مأمورة بالهلاك؛ تندفع

كموجات عاتية على البيوت الطينية وتساويها بالأرض، بينما تدحرجت المئات وانتصبت واقفة على الجذوع، محيطة في حلقات بالبيوت العالية ذات الدورين، وانهالت ساقطة كمطارق متتابعة تدكّ الأحجار وتُسقطها فوق الرؤوس. كانت بعضها تنكسر فتتراجع مستلقية في الخطوط الخلفية، متبادلة مواقعها مع نخلات قادمات بسرعة وإصرار من الخلف، تتدحرج أخريات وتتابع عمل النخلات المطارق؛ فتهرس الأحياء وتركض خلف الهاربين.

كان البعض من رجال الغزالة يحاولون ردع الهجوم بالفؤوس والمناجل؛ فتنغرس أدواتهم في نخلة وتركبهم مئات. وألقى بعضهم الجاز فوق الجذوع والسعف ثم أتبعه بأقمشة مشتعلة. والنخلات تتلبّس هيئة انتحاريات؛ تتناول النار وتمضي إلى الغيطان، مُحرقةً المزروعات والعِشش، تحاصر الهاربين بالنيران حتى تَخمد أنفاسُها، أو تلتصق بما يقبل النار من البيوت؛ لتجبر أهلها على الخروج أمام الطواحن. والتفّ سعفٌ وجريد أخريات كشبكة بمن حاول الهرب، نهضت بهم واقفة، ثم ألقتهم متكسّرين أمام المتدحرجات.

كانت آخر نخلات الجيش تدخل إلى الغزالة من الغرب أمام عيون الضئيل، وتعبر من فوق قضبان السكة الحديد؛ عندما التقى الجيش الداخل إلى الغزالة من الخلاء والقادم من الجنوب الغربي مع مثيلاته القادمات من غرب البلد أمام قنطرة خشبية تعبر فوق ترعة الدسايس، والمبنيّة لتصل بيوت جبل وأراضيهم بالطريق الرئيسي. تكدّست بعض النخلات من جديد في الترعة، متكاتفة أمام عناد بداية المجرى، في المسافة بين شرق القنطرة والبحر الكبير. عبرت فوقها الأخريات متجهة نحو مساكن جبل. انقسمت النخلات إلى مجموعتين؛ انفصلت الأولى منحرفة نحو الشمال

الشرقي باتجاه البحر الكبير، وتوقفت بعضها وتراصّت في حلقات حول جامع «**آل جبل**» المطلّ على البحر، ثم قامت على الجذوع لتطرق وتدكّ حجارة الجامع بالتبادل، بينما أكملت البقية باتجاه الشرق، بمحاذاة البحر الكبير، حتى قرب حدّ المناجاة البحري، ثم التفتت إلى الغرب لتهجم على مساكن عائلة جبل من جهة البحر الكبير؛ مغلقة عليهم فرصة الهرب في البحر. وانهمرت المجموعة الثانية -العابرة للترعة شرق القنطرة- على بيوتهم من الجنوب مباشرة بقوة غيظٍ هائلة.

وأمَّا النخلات التي سبقت وعبرت إلى الغزالة على شمال ترعة الدسايس؛ فقد مضت مباشرة ودون عائق نحو غرب بيوت جبل، تسابقت في تحطيم عِشش العمال والخفر في وسط الغيطان وفي طمس المزروعات، ثم أخذت في قصف جنائن الموالح المحيطة بالجهة الغربية لبيوت جبل. وانتصبت الكثيرات وقفزت متسللة من بين شجر الموالح ومن فوق النخلات الصادمة، متفادية إياها وكأنها تلعب «حجلة» فوق مربعات غير مرئية، منفلتة بحماس إلى البيوت واللحم، تاركة مهمة تكسير أشجار الموالح لمّا خلفها؛ حتى تسبق وتضرب قبل بقية الجيش القادم من الجنوب والشرق.

كانت صيحات الهلاك قد أيقظت أفراد عائلة جبل؛ فانتزعوا البنادق والعصي والفؤوس، التي لم تستطع ردع مئات الآلاف من النخلات المنجذبة بعضها إلى البعض الآخر بقوة هائلة من الشرق والغرب والجنوب تجاه البيوت كأجزاء حديد تسعى للإمساك بمغناطيس خرافيّ. كانت النخلات تتقدم وتتراجع، تحاصر وتبيد، ترفض ترك أحياء من أبناء جبل؛ وركضت نخلات وراء الفارّين تجاه الشمال في الصحراء المكشوفة لإنجاز ما أُمرت به، بينما قبعت نخلات أسفل أشجار توت وبرتقال في

الجنائن المحيطة بالبيوت، محاصرةً هاربين مختبئين بين الغصون، قبل أن تبدأ في قصف الجذوع، والانفراد على مهلٍ بالأجساد التي هربت أرواحها قبل لحظة المواجهة.

هلكت القرية تماماً مع أضواء الصباح؛ وانسحبت النخلات إلى الغرب من جديد، يتدحرجن على مهل، كسرب نساء عائداتٍ من النبع بجرار مُتخمة، ويحملن البشارة إلى الضئيل، الذي تملّى بنظرة أخيرة صنيعة الجيش، قبل أن يبصق على جهة القرية. التفت يميناً ومضى ببطء، هبط من فوق درجات الرصيف وأكمل السير فوق قضبان السكة الحديد من بين النخلات العائدة؛ والنخلات يتوقفن أمامه لبرهة أو يلتففن حول موضعه، يعبرن القضبان ويتراصصن في صفوف متتالية فيما وراء المحطة خلال الصحراء.

كان الضئيل يتوقف للحظات بين نخلاته، يفرد كفّيه ويملّس على الجذوع العائدة وبخاصة المحمّل منها بأثر من صدمات، ويربّت في حنان وشكر.

مضى إلى الجنوب متجاوزاً بيوت أبو لبدة المطلّة على المصرف وتلال المخلّفات المتكوّمة، بينما عيونهم المذعورة تنظر من أمام البيوت ومن داخل الشبابيك وفوق الأسطح. التفت يساراً وعبَر فوق النخلات المتكسرة في المصرف ودخل إلى مقابر المجاهيل. اتجه إلى الشاهد الوحيد في المقابر، وتوقف أمام قبر صغير، مطليّ بلون أخضر جيري متقشّر. مسح بكفّيه الترابَ عن الشاهد؛ فبرز اسم «**عديلة محمد عبد الوهاب**». انحنى وقبّل الشاهد، وشوش فيه، وفرد كفّيه ليقرأ الفاتحة. التفت وغادر من جديد إلى الغرب، وخلفه، علا دبيب النخلات في صحراء لانهائية.

*****

الفصل الأول

في انتظار الأمس

كانت تراهُ؛ يخرجُ من الطرف البحريّ للمناجاة الكبرى، وينزل إلى مساحة الخلاء المحصورِ بين المناجاة والغزالة، يمضي قِبالها ببطءٍ في خطٍّ مستقيم، وعلى يساره يمتد الرشّاحُ الغربي، ضحلاً وبقعر قريب، تتبدّى فيه مخلّفاتٌ تشعُّ بروائح نفّاذة وخِناق قوارض وهَوامّ ساعية. كانت هي واقفة فوق سطح بيت منفرد في الخلاء من دور واحد، تعافر على أطراف القدمين، وصدرها ملتصق بالسور القبلي المواجه للمناجاة، تمدّ الذراعين وتتشبّث بأصابع صغيرة في حافة السور؛ كيما تشدّ الجسمَ وتعلو بالعينين من فوق الحافة.

ومع اقترابه؛ كان جسده المكبوس بشحوم يبدو مثل كرة تتضخّم من خلف رمل متطاير، في حين يتمايل إثر كلّ خطوة مع ناحية القدم المُرتكِزة، مع زيادة ملحوظة في الميلان نحو يمينه. كانت هي تروح في ضحك جَذلان بينما تتأرجح بنصفها العلوي في تناسق مع جهات تمايله. ومن بين غياب عينيها وراء السور والعودة لمتابعته، كان حماس التأرجح يتزايد مع توقّع انقلابه على أحد جانبَيه خلال أيّ لحظة، ومن ثَمّ، شاهدته متدحرجاً في الخلاء ككرة كبيرة تجري وتسقط في داخل المصرف. كان هو قد تخطّى أكثر من نصف المسافة الفاصلة بين حقول المناجاة وباب بيتهم؛ ولاحت في يمينه عصا خشبية برأس فضة، يستند عليها وتنغرس في الرمال إلى نحو الشِّبْر مع كلّ اتكاءة، قبل أن ينتزعها وينقلها من جديد إلى موضع آخر.

كانت ذرات رمل محمولة على هواء بحريّ تضرب بعنف متقطّع؛ فتحسّ بها كنقرات في مؤخرة رأسها، وبين حين وآخر تستدير بوجهها، إلى الجهة البحرية، بفمٍ مفتوح ولسان متدلٍّ وعيون مغمضة. أما هو، فكان يطأطئ برأسه، يبسط كَفَّه اليسرى ويظلّل بها فوق عينيه في محاولة حجز الرمل، وفي أحيانٍ لمّا يتّصل ضرب الهواء؛ كان يلوي بعنقه في محاولات هروب بالعين نحو المناجاة، تتباطأ خطواته وهو يطبق الجفون وينْفُض رأسَه في شِدّة، قبل أن يتوقف تماماً عن السير ويفرك عينَيه بالأصابع.

وفي لحظات توقفه تلك وبعد أن يزيح الرمل المُلتصِق عن العين والأهداب؛ كان يلتفت إلى يمينه ويرفع رأسَه، يضيّق عينيه في مواجهة الهواء بينما يُسراه تتكوّر قليلاً مع الاستناد إلى جانب الجبهة، في حين ما زالت تعمل كمظلّة حاجزة. كان يتطلع إلى شرق دارهم، نحو مقام الغرقى وقبّته الطينية الحمراء، وبعد لحظات، يلتفت بكامل جسده ويستقبل المقام، يطلّ التفكيرُ والتردّدُ من ملامحه وكأنه سوف يغيّر وجهته ويمضي إلى الشرق، قبل أن يعود إلى ناحية بيتهم مجدّداً، يسحب عصاه ويواصل السير.

وخلال دقائق، كان يصل ويقف أمام الباب، متنفّساً في عمق، ومحتمياً بأبعاد البيت من لطمات الرمل. حدّق بعينيه الضيّقتين في الرطوبة التي يتشبّع بها الباب، والطلاء الأحمر المتقشّر من رسم غير منضبط لنخلة على الباب. جال ببصره، وتأمل في حفرة دائرية وعميقة في الأرض على يساره، تفصلها بضع خطوات عن الباب. كانت حواف الحفرة سوداء وبقطر يتجاوز المتر؛ استعاذ وبسمل، وسحب بصره مرة أخرى في سرعة ناحية الباب؛ فرأى جاروفاً مسنوداً إلى الحائط على يمين الباب، بذراع خشبيّةٍ وشفرة معدنية صدئة. أحس بوخز مزعج في باطن قدميه، ونقَّلَ

قدميه بالتبادل؛ متّكئاً على واحدة ومخفّفاً الضغط عن الأخرى في تأكُّدٍ من السبب وكاختبار لمدى تحمُّله ذلك الوخز. بدا على ملامحه التبرّم وهو يعاود الدبدبة بقدميه أكثر من مرّة في محاولة لمماطلة ردّة فعله، لكنه فوجئ أثناء رفعات قدميه عن الأرض بثقل الحذاء بما تسرّب إليه من الرمل بخلاف الوخز الساري. زفر واستند على عصاه. كان يجاهد وهو ينحني بصدره، يرفع قدمه اليمنى قليلاً عن الأرض، ويمدّ ذراعه اليسرى إلى أقصاها متناولاً الحذاء. قلبه ورجّه ليتخلص من رمال مُندسَّة. وتطلّع إلى الغبار المتراكم حول جلد الحذاء. ترك رأس العصا تستند على وسطه، ثم أمسك بطرف كُمٍّ جلبابه بين أصابعه وراحة يده، مسح بالكُمِّ على مقدمة الحذاء قبل أن يلقيه على الأرض ثم يدسّ فيهِ رجلَهُ، وكرّر الفعلة نفسها مع فردة الحذاء الأخرى، وأعقبها بدبدبة خفيفة من قدميه فوق الأرض.

نادى: «يا ستّ صابحة!».

تناول العصا تحت إبطه الأيسر وصفّق بيديه. كرّر نداءه، تحشرج صوته؛ تنحنح وسعل ليطرد قطعة بلغم ملتصقة بزوره، بصقها على الأرض قبل أن يفركها بحذائه في الرمل.

«حاضر يا عمّ علوان!».

أتاه صوت طفولي صادر من سطح الدار، قبل أن يسمع حفيف خطوات متصاعد.

انفتح الباب، وظهرت راوية الصغيرة، ترتدي جلباباً أخضر يصل إلى الركبتين، وتربط شعرها القصير بشريطة خضراء من القماش نفسه. لاحظ علوان البُقع الجافة في الجلباب، والاتِّساخ في ساقي البنت وذراعيها، ووجهها المعفّر، وذرّات الرمل المتناثرة حول شفتيها.

«أين جدّتك؟».

أزاحت يدٌ ضخمة البنت من أمام علوان قبل أن تجيب صابحة: «نعم يا حاجّ!».

جَرَتْ عيناه على وجه صابحة «النخل أكل الغزالة أول أمس يا ستّ صابحة!».

كانت الصغيرة تختبئ خلف الجدّة، تمسك بجلباب صابحة وتتأرجح بنصفها العلوي؛ فتطلّ بوجهها لعلوان ثم تختفي خلف الجدّة. نظر علوان إلى شعرها النحاسي وإلى عيونها الخضراء الواسعة، والسمرة الخفيفة لبشرتها المختلطة بحمرة. ورأى نقاطاً حمراء لبثور منتشرة في فروة الرأس، وحولها تناثر ما يشبه قِطعاً من أوراق شجر، لكن البنت اختفت خلف الجدة قبل أن تسمح له بالتدقيق. رفع بصره وتأمّل شعرات نحاسية مماثلة فرّت على جبين صابحة من أسفل غطاء الرأس.

ردّت صابحة بوجهٍ جامد: «لا دخل لهذا البيت بما يفعل النخل!».

تسلّل غضبٌ إلى حِسّ علوان «ولكن الدور قادم على المناجاة وأنت عارفة. فوزي لن يترك فينا أيّ واحد».

استدارت صابحة، خطت إلى الدار وهي تشدّ الصغيرة من ذراعها، ثم أغلقت الباب الخشبي بقوّة.

سحب علوان عصاه من الرمل، تراجع إلى الخلف في سرعة وبحركة لا شعورية أمام ضربة الباب وهو يهشُّ بذراعيه في الهواء. عاد من جديد بخطوة متصلِّبة، ويمكن أقرب؛ حتى كاد يلتصق بالباب. كان يغرس عصاه بحدّة في الرمل، يزعق وهو يضغط بالأصابع على جبهته، ويشيح بعدها بكفِّه بينما ينفُرُ عِرْقٌ أزرق في وسط الجبهة «حملناك أنت وشيلات بطنك بعدما هجّ فوزي وتردّين الجميل بالتخلّي!».

رفع عينيه، تأمّل أطرافاً خشبية عطنة لجذوع نخلات بارزة من حافة

السقف، والمستخدمة كدعامات أفقية لسطح البيت. عبّ الهواء؛ لان وأكمل في قُرْبٍ للتذلل: «الرجال سيتجمعون في قهوة المحطة بعد العشاء ونريدك معنا يا حاجة. يمكن هناك طريقة للوصول إلى فوزي وكفّ الأذى عن الخلق يا أم محمد!».

كانت صابحة قد رجعت لتجلس على فراء غنم مفروش فوق كنبة من جريد نخل. ارتكنت بظهرها إلى الجدار، وسهمت قِبالها في الباب الخشبي بنظرة مغيّبة، بينما يصل مسامعَها احتكاكُ الرمال في حذاء علوان المغادر. قفزت الصغيرة فوق الدرجات الطينية بأقدام حافية حتى سطح الدار، وتشبّثت بالسور مرة أخرى لتتابع ظهر علوان المبتعد نحو المناجاة. قرفصت على الأرض، وكنست بيديها الرمل المتناثر في أنحاء السطح وهي تتنقل على الركبتين، جمّعته في كومة، أمسكت بها ثم حشت فمها. كانت تتلمّظ، تمتصّ الرمل في استطعام قبل أن تبتلعه. جمعت كومة أخرى مبعثرة على الأرض وأكلتها. ركضت على الدرجات من جديد ووقفت أمام صابحة الغائبة في ملكوت آخر.

«الرمل خلص!».

كرّرت بأصوات أعلى لمّا ظلّت صابحة صامتة، ثم صرخت وهي تبكي وتتقافز فوق الأرض.

«جوعانة».

نظرت صابحة إليها بنصف وعي وأشاحت بيدها نحو الباب؛ رفعت الصغيرة المزلاج الخشب وفتحت باب الدار، أسرعت إلى الحفرة على يمين الباب وجلست مستندة بركبتيها على الحافة، أمسكت بطرف الجلباب ورفعته ليتقعر من وسطه كمشنّة للتحميل، عبّأته بالرمل من حواف الحفرة، ظلت قابضة على أطراف الجلباب وقامت ماشية في حذر،

مرّت على صابحة الذاهلة، صعدت بهدوء إلى السطح. وضعت الرمل في ركن، وبدأت في تنقيته بالتقاط الحصى والأوساخ منه. حشت فمها من جديد بعدّة أكوام من الرمل. وقفت تستند على السور وتتابع غياب علوان في حدّ المناجاة بينما تمتصّ وتلوك.

كان علوان يدخل إلى المناجاة من خلال أرض سيد الحجر الملاصقة للمصرف. وما إن غادر رمل الخلاء؛ حتى توقف على حافة البلد يلتقط أنفاسه التي تقطّعت إثر كلّ خطوة في الرمل خلال طريق عودة بلا وقفات. وأحسّ من جديد بشكّات منغّصة في قدميه؛ انحنى يلتقط الحذاء ويزيل منه حبّات الرمل مجدّداً. مسح عدة مرات براحة يده فوق شعرات بيضاء وقليلة متناثرة في رأسه، وملّس على جانبَي وجهه وعلى الوجنات الممتلئة وفوق الحواجب الثقيلة ذات الشعرات النافرة. فرك صوان الأذن للتخلّص من ذرّات رمل عالقة، وأصابعه تلامس منطقة مقطوعة في أعلى صوان أذنه؛ فبان ضيقٌ على وجهه، واستشعر بالرمل في فتحتَي الأنف؛ أمسك بطرف أنفه المدبّب بين السبابة والإبهام، زفر بقوة؛ نفَّ على الأرض، ثم مسح في جانب جلبابه ما التصق بأصابعه من مخاط.

نظر حوله في غيط الحجر؛ وتذكّر أيام إشرافه على زراعة تلك البقعة بعهدةٍ من أبيه حينما كانت ملكاً لهم، وكيف كان يحاول أن يتملّص ويتحجّج، ويكره العمل في تلك الأرض المحاذية لرشاح البلد نظراً لملوحة الأرض والمجهود المتطلَّب؛ فقد وَجَبَ عليه أن يحرث الأرض مرّتَين متعامدتين، إضافة إلى التزحيف والتنعيم والتسوية، مع الرّيّ على الحامي بسرعة ومن خلال توسيع القنوات، والعمل على صرف المياه الزائدة، والريّ في حذر وبعيداً عن أيام هبّات الريح الآتية من الصحراء المتاخمة كي لا تتعرض المزروعات للرقاد. ولذلك، لم يجد علوان

مشكلةً في وهبها للحجر عند زواجه من أخته فاطمة، ولم يجد مشكلة في طاعة درّية جبل؛ حينما طلبت إعادتها إلى الحجر بعدما انتزعها منه علوان إثر طلاق فاطمة القط من سيّد.

كان يتأمّل؛ وتلاحقه وقائع وتفاصيل مهملة من رأسه، جرت أثناء زراعته لتلك الأرض، وحتى فيما بعد تخلّيه عنها، تخرج من الذاكرة بدقّة إلى عينيه، فيشوف خطواته وأفعاله البعيدة وكأنها لشخصٍ آخر لم يعرفه. كان يرى نفسه في الليلة التي دخل فيها الحجر على فاطمة، وهو يخرج من تلك الأرض بخطوات سريعة وضاغطة، وفي خطٍّ مستقيم خلف الهودج الملوّن الذي يحمل فاطمة المُغمى عليها، الناس من حوله يستفسرون في همس عمّا حصل، وعيناه تتجنّبهم، يضغط ملامحه لتشكيل زيادة من أمارات غضب تكبح ترقّي الهمسات إلى أسئلة. ظلَّ بصره ثابتاً على ظهر البرج الممسك بعِنان الجمل، يزعق به بين حين وآخر في غيظ: «مدّ الخطو يا ابن الكلب!»؛ فيقطع الطريق على أهل البلد الملتفّين حوله، مُجهضاً أيّ محاولة استفسار ناجمة عن فضول أو شجاعة قبل الولادة على الألسنة. كانت حوله رايات وأنوار من بقايا احتفال المناجاة بزفاف فاطمة الذي لم تمضِ عليه إلا ساعات، لكنما عيناه مربوطتان على جلباب سالم البرج، ويتراءى له طيفُ أمّه الميّتة في خطوط الجلباب الغامق، مُطلّةً في حزنٍ وبملامح انكسار؛ فيطبق عينيه ويزمّ الشفتين وكأنما يلوم، صدره يغلي بغيظٍ من الفضيحة ومن حالة فاطمة، بينما يخامره نقرٌ داخلي وخفيف لفرحة شامتة بفاطمة التي خرجت عن طوعه وتزوّجت الحجر بالرغم من معارضته، ويثمر النقر عن ثقبٍ ضئيل؛ يتسرّب منه رضاه عن سداد رأيه مع خطواته خلف الجمل العائد بفاطمة إلى بيت القطّ الذي لم تلحق أن تغيب عنه، وما يلبث الثقب أن يتسع؛ فتنطلق أمواج من الزهو ملتفّة ومحيطة

بالغيظ، تفلت معها ابتسامة إلى شفتيه، مع هزّات خفيفة من رأسه، تؤكّد لروحه القرب من ربّنا، والحكمة المخصوصة لعقله بالرغم من الشواهد الخادعة للناس. ولمّا يتلفّت في الوجوه ويحسّ بابتسامته متلبَّسة من العيون وسارحة على فمه مثل بقرة شاردة عن خطّها؛ يعاود شتم البرج في غيظ وهو ينتر ملامح وجهه في إناء غضب. كان يخرج من الأرض شرقاً مستلماً طريق المناجاة الرئيسي باتجاه داره، حاملاً المبروكة فاطمة التي لم تنفع نفسها؛ ويتذكّر قصّة عن مالك الحزين والثعلب والحمامة، كان كثيراً ما يردّدها أبوه الحاج محمد القط عندما يطلب منه أحدٌ من المناجاة عوناً أو سُلفة.

كان أبوه يبتسم ويعتدل في جلسته، تحيط به حلقة من ناس متلهّفين على كلماته، وفي وسط الحلقة يقف سائل المساعدة، بكلمات متزلّفة مع ملامح استنجادٍ لزجة. كان القطّ يهزّ عصاه في الهواء، يدوّرها بين الجهات، قبل أن يسدّد طرفها في وجه النفر الماثل قدّامه، بينما يقوّس ظهره ويتقدّم برأسه موجّهاً الكلام: «شُفْ يا عمِّ وركِّز معي. الثعلب كان يمرّ على عشّ الحمامة كلّ يوم، ويأمرها أن تحذف أحد فراخها وإلا طلع الشجرة وأكل جميع الفراخ. والحمامة تخاف وينضحك عليها، تحذف أيّ واحد من صغارها إلى فم الثعلب للحفاظ على البقيّة». يتوقف محمد القط عن الحكي، يمدّ عنقه، يحدّق في اختبار، ويسأل طالب العون الواقف أمامه أن يعيد ما حكاه: «ها! أين كان يعدِّي الثعلب في كلّ يوم؟». تبدو اللخبطة على طالب العون، وعقله مشغول عن الحكاية بمحاولة استنباط مدى استجابة القطّ لطلب المساعدة؛ يغضب القطّ ويثور لمّا يختلط الجزء المحكي عند الإعادة على لسان الرجل، ويمكن أن ينكزه بطرف العصا في منتصف الصدر في غيظ وهو يقول: «خذ نفحة من بركة القطّ لينفتح مخّك

الزنخ». يرجع بعدئذٍ بظهره إلى الخلف ويستند على الكرسي، يهدأ وهو يزفر ويمصمص في شفتيه ويردّد: «الجعيس فيكم عزيز الفهم». تستند يداه على المقبض الفضّيّ للعصا المغروسة في التراب بين ساقيه ويكمل: «وماذا حصل بعدها! انظر يا عمي. راح لها مالك الحزين يسألها عن سبب حزنها في يوم». يتوقف لبرهة ويبتسم باستغراب، يهز رأسه ويقول: «دنيا العجب؛ حزين يسأل حزينة!». يمطّ شفتيه: «ما علينا. خلقة ربّك وهو حرّ فيها». يرفع سبابته في الهواء ويكمل: «ولمّا حكت له الحمامة عن الثعلب وما يحصل معها ضحك مالك الحزين بصوت عالٍ». يقهقه القطّ، يسند كوعَه إلى رأس عصاه وتتبادل كفّاه التصفيق وهو يتلفّت في الوجوه المحيطة: «ابن الكلب حزنُه راح في التو وبدأ يضحك». يعتدل في جلسته ويبصّ من جديد في وجه طالب المساعدة. «المهمّ، بعدما خلّص مالك الضحك قال لها أن تطلب من الثعلب أن يصعد إلى رأس الشجرة، فالثعلب لن يقدر على الوصول لها، وهي وعيالها في أمان». حينئذٍ يشير محمد القط بطرف سبابته إلى جانب رأسه علامة على فهم مالك الحزين وذكائه، وهو يبتسم في استخفاف: «ناصح ومسك التائهة». تختفي الابتسامة ويكمل: «ولمّا مرّ الثعلب على الحمامة ورفضت أن تعطيه الفرخ كالعادة، وقالت له لو شاطر اطلع لي. سألها، من علّمك هذا الكلام يا حمامة؟! قالت مالك الحزين». تبرق عينا محمد القطّ، يرفع الحواجب وهو يخبط براحته على ظهر يده المستندة على العصا ويقول بصوت زاعق: «وعرف الثعلب بما فعله مالك الحزين وبنصيحته التي تسبّبت في جوعه». تنخفض طبقة صوته وتقترب من وشوشة مع تنغيم: «فراح له وقال: يا الله عليكم يا طيور! صحيح أجنحتكم جميلة، ولكن ماذا تعملون بها غير الطيران؟ ردّ مالك: تحمينا من الريح. والثعلب سأله عن الكيفية. قال مالك: لو أتت الرياح من

الشمال أضع رأسي وراء جناحي الأيسر، ولو أتت من اليمين أضعها وراء جناحي الأيمن. يسكت الثعلب! لا وألف لا. ثعلب وشبه القطّ ويعرف من أين يؤكل». يدخل محمد القط في نوبة ضحك طويل عند هذه الجزئية، يرتجّ جسمه ورأسه تسقط للخلف وتدمع عيناه، يفركها بالأصابع وهو يردّد: «اللهمّ اجعله خير!». يصمت لبرهة، وبعدها يشير بأصابعه في دعوة إلى أن يقترب منه النفر الواقف، وكأنه على عتبة إيعاز بسرّ؛ يتقدّم طالب المساعدة ويميل عليه في لهفة وهو يقول في نفسه: «هانت»، وينحني القطّ هو الآخر، يسند كوعه على الفخذ؛ يقتربان وتكاد الوجوه تتلاصق. والقط ينظر في العيون بثبات ودون أن يرمش، يقول في خفوت وببطء: «قال الثعلب: ولو جاءت الريح من كلّ جهة، ماذا تفعل يا مالك؟! خبّأ مالك الحزين رأسه بين جناحيه؛ وأول ما عملها ما عاد يشوف ولو قدّامه الجمل، خلصت؛ هجم عليه الثعلب وأخذه من عنقه بين فكّيه وأكله». يشير محمد القط بسبابته محذّراً، ويمكن أن تحتكّ خلال حركتها في الأنف المقابل «والثعلب ماذا قال؟ قال له بالنَّصّ: يا عدوّ روحك! تعطي النصح للحمامة وتنسى روحك!». يشيح محمد القطّ بوجهه، يفرد ظهره ويضع ساقاً فوق ساق، يرفع ذقنه ويغمض عينيه وهو يقول: «في الأول أساعد نفسي، وربّك كبير، يساعد الكلّ».

وظلَّ علوان يُسمّي فاطمة بمالك الحزين بعد خروجها من تحت الحجر. وفي أحيان، كان يبتسم بتشفٍّ أمام سكوتها، ويكتفي بندائها بكلمة «الحزينة». يغضب أمام وصف المناجاة لها بالساكتة، يحكي لهم قصة أبيه المعتادة ويكرّر حكمة محمد القط، يزجر ويردّد في عناد أن الأنسب لفاطمة هو اسم مالك الحزين وليس الساكتة.

عاد علوان يتلفّت وينظر حوله إلى بواكير القمح في أرض الحجر؛

وتذكّر فرار فوزي من الغيط كلّما ضبطه نائماً ومختفياً بين أعواد القمح أو الذرة عن عيون خولي الأنفار في عزّ الشغل. أمسكه علوان أكثر من مرّة وقام بضربه. كان يشتمه وينعته بالحرامي الذي يريد أجرة بلا عمل، يطرده ويعود فوزي بعد ذلك ليتمسّح طالباً العفو لسدّ جوع عياله. يهدأ علوان ويستحرم قطع العيش، يسمح له بالشغل بينما يقول للناس الواقفين في الغيط إن فوزي ليس مخلوقاً لشغل، وسيجرّبه مرة ثانية لأجل خاطر الأفواه خلفه، يُشْهِد عليه ربّنا والناس في الغيط، لكنه يعود ويضبط فوزي مندسّاً بين العمال لتناول الأجرة في آخر النهار، بعد وصلة نوم وتخلّف عن الشغل طوال اليوم. صار فوزي هاجساً ومنغّصاً للعيشة، سبباً يراه علوان كافياً ليأخذ عليه أهل البلد ويناولوه على قفاه. أصبح علوان يستيقظ من الفجر، ينزل بنفسه ويمرّ على الغيطان في الصباح لأجل خاطر فوزي. يدقّق في الوجوه ويفتّش في مزروعات المناجاة زرعة وراء زرعة، يطرد فوزي ويهرول وراءه مصاحباً ما يطوله من جسمه بضربات من يديه وعصاه إذا لاقاه في أراضي القط. يباغت خَوَل الأنفار، ويقف على أيديهم أثناء توزيع الأجرة في المغرب. كان يقف في وسط الغيط ويحلف بالطلاق مهدّداً خَوَل الأنفار بالضرب والطرد في حالة ما وجد فوزي واقفاً بين متناولي الأجرة في المغرب حتى وإن كان قد اشتغل بحقّ ربّنا. ويحسّ بالمجهود الذي يبذله لأجل بهيم واحد من بهائم المناجاة. جرّب أن يعهد بالموضوع إلى البرج أو إلى واحدٍ من تابعيه، إلا أنه كان ينزل وراءهم ليجد فوزي يأخذ أجرة على شغلٍ لم يشتغله. كان علوان يكلّم روحه إثر وجود فوزي في دماغه طوال النهار، ويحسّ أن الكلب لا يرغب في شغلٍ بقدر ما يريد أن يلعب به ويفرِّج عليه الناس وهو يمسخره. وحتّى المرّة التي كانت في هذا الغيط بعدما ولدت صابحة ابنها محمد، وفي اليوم الذي تنكّر فيه فوزي في جلباب أمّه عديلة ليعمل مع الأنفار في الغيط بعدما

شحّ الشغل في البلدان المجاورة. لفّ فوزي طرحة حول رأسه، وغطّى بطرفها أنفه وفمه، لكنّ خولي الأنفار تعرّف عليه وأبلغ علوان، الذي أشار عليه بالصمت ورسم له التفاصيل بغلّ سنين سابقة؛ فتنقّل الخولي خلف فوزي في الغيط، يبتسم ويلمس مؤخّرة فوزي بكفّه، ويلتصق به أحياناً من الخلف، يغازله كامرأة ولمساته تحمل شهوة رجل. وفوزي يُثبِّت الغطاء فوق وجهه ويحاول الهرب من حصار الخولي الذي يستغلّ انحناءات فوزي أثناء العمل في الأرض. وعند الظهر لم يحتمل فوزي؛ انهار، راح يبكي ويكشف عن وجهه ويصرخ: «أنا رجل يا ناس. حرام عليكم. أنا فوزي. ابن عديلة»؛ فناوله الخولي على قفاه وهو يضحك، ونادى بكوز ذرة لكلّ يد تصيب مؤخرة فوزي خلال طلوعه من الغيط. وفوزي يهرب جرياً في خطٍّ متعرّج إلى الجهة البحرية نحو عشّة عديلة في الخلاء.

كان علوان بعدئذٍ يحسّ بوخزة لشوكة صغيرة نامية من منظر فوزي وهو يحاول أن يدفع الأيدي عن جسمه ويفرّ من الغيط، فما يلبث أن يقصم تلك الشوكة بالإهمال والتناسي، قبل أن تنمو وتتحوّل إلى نصل من تأنيب مستمرّ في روحه. وبالرغم من خفّة ذلك المنظر مقارنة بمشهد طرده لفوزي من المناجاة فيما بعد أحداث البدل، إلا أن شوكة مشابهة لم تنبت في روح علوان في أعقاب طرده لفوزي بعد البدل، بل انكسرت الشوكة الأولى تماماً تحت كراهية علوان لفوزي، وتصوّراته عن سحر فوزي ومؤامرته للإيقاع برجال المناجاة في حبال البدل، واستكماله التلاعب ومسخرة الخلق. كانت الكراهية خالصة، ومشتعلة بما يكفي لتحرق أسياخ حديد وليس شوكة، مستمرة مع إحساس علوان الدائم بهوانٍ لا يطاق من أحداث البدل، عندما تقافز رجال البلد في الحظائر وبين أنحاء المناجاة، متبادلين الأدوار مع البهائم.

وحتى في زمن البدل؛ كان علوان يركض ويفرّ من بيته إلى آخِر البلد ناحية المصرف، يصل عند تلك الأرض، يطارد الفئران ويختبئ من سميرة بين الحشائش المنثورة على الشفة الداخلية للمصرف. وسميرة تلاحقه وتمسك به كلّ ليلة وهو مستلقٍ على الحافة أو يحفر جُحراً في الطمي ويحاول الولوج فيه برأسه. كانت تربطه بحبل من عنقه وتجرجره خلفها إلى دارهم في شرق المناجاة، بينما يعاند ويحاول الهروب من حبل سميرة، ونساء من البلد يدفعنه من مؤخرته. وقد تلعب واحدة فيه خلال الزحمة بينما همُّه الفرار؛ فلا يبصّ لمن كانت اليد صاحبة العَمْلة. وقد تُجامل واحدة أخرى سميرة وتلطمه على ظهره بعصا أو بقطعة جلد للمساعدة في دفعه إلى البيت.

كان وبلا وعي ومع هبوب ذكريات البدل؛ يروح بيده ويتحسّس حول مكان ناقص في أعلى صوان أُذنه، عند قطعة مفقودة كنتيجة لضربة سوط من كفٍّ مجهول، لحقتْ به في طريق المناجاة، وسميرة تشدّه من الحبل المربوط حول الرقبة، وهو عريان بلا هِدْمَة ولا ساتر، بينما تتلبّسه روح سنّور مشاغب يحاول الفرار إلى رأس شجرة برتقال على جانب الطريق، يموء بحدّة ويقوِّس ظهرَه في وجه سميرة، ذيله يقف وتنتفش شعيراته، وأذناه تنتصبان في تنقّل سريع بين الجهات. أنزل كفّه عند أسفل ظهره وهرش في مؤخرته من فوق الجلباب، وأحسّ بأَكَلانٍ من ذرّات رملٍ مختبئة؛ فرفع يده وحكّ أصابعه في طرف أنفه وهو يتشمم الأصابع، بينما يقطع أرض سيّد. واستغرب ذلك الهطول المفاجئ للذكريات، ذلك أنه يمرّ كثيراً بتلك النواحي في ذهابه ورجوعه من محطة القطار، ولم تصحُ تلك التفاصيل من قبل. كانت رعايته لتلك الأرض منذ زمن، نسيها فيه، ونسي فوزي وحدّوتة النخلة، وحكايات واصلة عن العريان الذي يلُمّ

النخل من قرى وكُفور. لكن فوزي أيقظ الحواس بما خبّأ طوال سنين من رعب، لن تتذوّق معه المناجاة طعم النوم مرّة أخرى.

تذكّر كلمات صالح أبو لبده في الصباح وهو يجلس بينهم في القهوة، يصف حال الغزالة بعد الدهس، ويطلب رجال المناجاة للمساعدة في إزالة النخل المتكسّر من ترعة الدسايس والتفريعة القبلية، ودفن الأموات المتناثرين. قال صالح: «النخل منع المياه عن الأراضي والأفواه، مكدّس في المجاري، والنساء تخاف أن تعبر البلد إلى الشرق نواحي النهر لتملأ المياه. النخل المَسكون في كل زاوية، وشرق البلد ملآن بلحم وبجثث أولاد جبل، ومن نجا منهم فرّ، ولم يبقَ أحد ليساعد». وبكى بينهم مرزوق جبل وهو يحكي كيف أخذ النخل الأبناء والإخوة. كان النخل يحاصر بيوت جبل من كلّ جهة ما عدا الجهة البحرية التي تمتد فيها الصحراء المكشوفة وجبل درية. صحا مرزوق من نومه فزِعاً يتخبّط في أهله، وبنظرة واحدة إلى ما يحدث في الشارع أيقن بلا جدوى المقاومة. كان أفراد جبل مشتّتين، يتصدّون للنخل بفؤوس ومناجل، يكسرون نخلة فتدهسهم مئات وتكمل الطريق إلى الدور. كان النخل كموج عالٍ علينا، وحتى الذين ألقوا بجاز ونار وحاولوا حرق النخلات زادوا الطين بلّة؛ فالنخل تشبّث بالنار ودخل إلى البيوت والحظائر؛ موصِلاً النيران إلى كلّ زاوية.

حكى مرزوق كيف حَمَل ابنه وجرّ بيديه البنت وخلفه الزوجة، ظلَّ يركض فوق الرمال محاولاً الوصول إلى الجبل، حولهم هاربون وخلفهم نخلات. تَعثّرت البنت في الرمل ووقعتْ؛ فتوقّف لحظة ليأخذ بيدها، واستغلّ وقوفه في تعديل وضعية الولد الذي انزلق من حضنه أثناء الجري؛ وأصبحت رقبته تحت ساعد مرزوق بدلاً من محاوطة وسطه. كان مرزوق يسند جسم الولد إلى فخذه ويرفعه ليتناوله ثانية في حضنه، وامرأته تُكمل

الهرولة، تتجاوزهم وفي يديها بقجة تشيل فيها المصاغ والمال. وفي غمضة عين، شاهد النصف التحتاني من البنت أسفل نخلة، ويدها انخلعت من كفّه. كانت تستنجد، ترفع رأسها وصدرها عن الرمل وتلوّح بذراعيها، تقاوم النزول بما تبقى، تتخشّب ذراعاها وتمتدّان، وهي تقبض في عنف على حاجة غير مرئية، بعيون جاحظة وفكٍّ متشنّج، والنخلات تدهس رأس البنت التي تفرتكت تحت جيش متكالب. وقبل أن يتوغّل مرزوق من حافة الذهول إلى الحزن، أتاه صريخ المرأة؛ ووجد أخريات يتدحرجن أمامه، يكنسن الزوجة ويتسابقن باتجاهه. قال: «نطَطْتُ ووقع مني الولد أمام النخلات، أفلت غصباً عني، رأيت النخل يركب ولحمه ينهرس، وأنا أجري في الخلاء من غير دِراية. شدّني صلاح ابن عمي، ودفنني معه تحت الرمل». كان مرزوق يصف إصرار النخلات على الموت، وقد راحت تتشقلب في عنف عند سفح الجبل كبهلوانات محترفة، وتطير ضاربة المتأخرين على أول حدوده، ومنظر الأجساد الملتصقة والدم المُنطبع على صخور الجبل التحتية كناموس مهروس على جدار.

كان علوان يسمع ويداه تفركان في رأس العصا وتتعرّق؛ يعرف أن فوزي لن يفرِّق بينه وبين نسل جبل. وأحسّ أنه قضى سنوات عمره في حفرة عميقة وواسعة، وأن يديه تتشبثان بالحافة في تلك اللحظات فقط. كان يمكنه أن يفرّ من المناجاة وينجو بروحه ولو لمدّة بسيطة، يتنقل ويختبئ في قرى مجاورة، لكنه يعرف أن فوزي سيعرف بمكانه ويأتي؛ نخل القرى سيُبلغ جيش فوزي بمكانه، وهو لا يستطيع الاختباء طويلاً عن عيون النخل المنتشرة في الغيطان والشوارع. النخل كاشف لكلّ بلد، وسنواته الستّون أكبر من أن تحتمل التنقّل الدائم. ولا يمكنه أن يأمر بقطع النخل في كلّ قرية، مثلما أمر بقتل كلّ حيوان في المناجاة ذات يوم ووجد الطاعة.

كان يمكنه أن يلمّ حاجاته كما فعل كثيرون من هوامش المناجاة في هذا الصباح ويصعد إلى الجبل. رأى علوان المهاجرين إلى جبل درّية يتناثرون في أرجاء المناجاة خلال الصباح، يحملون الزاد والبطاطين ويجرّون العيال في أذيالهم، يمضون إلى الشمال بمحاذاة البحر الكبير؛ عيال مفزوعة ونساء تبكي ورجال بعيون ميّتة. لكنهم لن يتحملوا طويلاً، سيهبطون من الجبل فرادى للماء أو للزاد، فتنتقي النخلاتُ منهم وتأخذهم بالحضن. كان سالم البرج من بين المهاجرين، وحده بلا خلف ولا امرأة ولا حمولة، ظهره محنيّ وعلى كتفه البندقية الخديوي. اصطدمت عيناه بعلوان الذي سدّ عليه الطريق؛ فغار بهما في الأرض وهو يبتعد ويستكمل مسيره باتجاه الشمال. ناداه علوان لكن سالم بدا أنه لا يسمع؛ وعلوان يحترق من لا مبالاة أقرب رجاله بندائه. سالم الذي كان يُنفِّذ لعلوان دون أن يسأله فيما غضب. لاحقه علوان، أمسك بكتفيه، هزّهما كأنما يوقظه. صرخ: «إلى أين؟»، والبرج لا يردّ. زعق علوان: «ستكون أول الذبائح يا برج». لكن البرج أزاح اليدين عن كتفيه في وهن ومضى إلى حاله.

أكمل علوان سيره خلال غيط الحجر. بصق قطعة بلغم على الأرض. فرك بسبابته في الجبهة وهو يتمتم بصوت منخفض: «تعبتَ يا علوان وأنت بلا ولد ولا أهل ولا نفر يؤانس، ويمكن أتى النخل للراحة».

منذ ساعة، كان إمام مسجد القطّ يدعو بالنجاة وكشف الغمّة عقب صلاة ظهر حضرها القليل المتبقي في البلد. انتقل وجلس إلى جوار علوان الذي يحمل مصحفاً بين يديه، فارداً ساقيه أمامه ويستند بظهره إلى الحائط. همس الرجل: «لا تقلق يا حاج، فلن يطأها بإذن الله!». رفع علوان وجهه، تفرّس في وجهٍ يفتقد إلى الاطمئنان ويثير الحديث ليجد من الكلمات ما يسدّ به صدره. لكن علوان أراد تعذيبه، طوى المصحف بين يديه، واقترب

برأسه من وجه الرجل. قال: «إن أتى هلكنا، وإن لم يأتِ هلكنا، مَن لرعاية أرضنا وزرعنا بعدما خرج الناس وسُرقت البهائم. وقوع البلاء ولا انتظاره يا شيخ». اضطرب الشيخ وحثّ في رجاء: «اذهب إلى المديرية يا حاج وأحضر العسكر للحماية!». وعاجله علوان: «أروح ليقولوا ابن القط مجنون على آخر الزمن. ما هو نسل كلّه فاقد للعقل وللأعصاب وقت الجدّ». كان رباط علوان ينفكّ مع الانفعال، يدخل في نوبة هياج، يبرّق عينيه ويصرخ بوجه أحمر وصوت متهدّج كأنه على حافة بكاء بينما يطرقع بكفّه على الفخذ: «والله لو أتى النخل فهي الراحة يا عمِّ الشيخ». فزع الرجل، ولكن علوان هدأ في ثوانٍ ودخل إلى صورته، عاد بظهره إلى الحائط وهو يومئ برأسه عدّة مرات. «على العموم أرسلت لهم بخراب الغزالة. قلتُ شكلها ضربت بالمدافع دون الإشارة لموضوع النخل. ربما أسرعوا عند سماع كلمة مدافع. وربّك يتولّانا».

كانت عين علوان تصطدم ببواكير القمح التي تبزغ من الشقوق في أرض الحجر؛ فيتهيّج في صدره أملٌ غير مفهوم، ينفض رأسه ويطبق جفونه للحظات. وانتبه علوان وهو يقارن بين تمنّيه قدوم النخل ومسّ الأمل الذي فاجأه مع رؤية القمح واستغرب.

كان يُحِسُّ بآلام جسمه نتيجة المشي طوال النهار، وقد مضى من بيته إلى قهوة المحطة، حيث قابل واستمع إلى الناجين من الغزالة، ثم عاد إلى بيته وخرج منه نحو الجامع، ومنه إلى بيت صابحة في رمل الخلاء، دون أن تكون معه الكارتّه التي سرق الخدمُ حصانها قبل المغادرة إلى الجبل. كان يلعن سارقي الحصان، والخدم، والعِشرة التي لم تُثْمر مع كلّ خطوة ونفس متقطّع في الطريق. يردّد إن أولاد الكلب ربطوه بتلك السرقة مكان الحصان طوال النهار، وخلّوه للطريق؛ ينهج ولا أحد يعطف ويحسّ.

ومع ازدياد التعب والفِكر في النخلات، توارى السارقون عن عينيه، وأطلّ سخطه على جسمه الذي انحشرت فيه دهون ولم يعد يملكه مثل زمان. كان مفاجَأً بمحصّلة الاختبار غير المرتّب لجسمه، يتذكّر الخفّة التي كانت، والتمايل والتحطيب القديم مع أيّ نفر من المناجاة في وقت شبابه، وتهون عليه الحياة تحت ضغط الشحوم واللهاث الذي تربّى من ركوب الكارتّه، ومن فدادين مأكولة من لحم وزبدة وبيض. وتذكّر وجع أسنانه منذ عدّة سنوات؛ لمّا ربطه الحلاق بحبلٍ إلى كرسيّ معدنيّ، وأوقف البرجَ خلف الكرسي. أعطاه الحلاق قطعة طولية من طبقتي قماش كتّان، وسأله أن يحاوط بها فوق جبين علوان وعينيه بينما يشدّها من طرفيها إلى الوراء في قوة، وهو يضرب بإحدى قدميه في ظهر الكرسي. وفم علوان مفتوح على آخره للكمّاشة الحديد في يد الحلاق. نزع الرجل الضروس وكبس بالملح؛ وبقي علوان لأيام لا يتكلم إلا عن الموت كلّما تحسّس الفراغات الحديثة بلسانه، ويخطر على باله قرب اكتمال الدور الذي يلعبه جسده المهزوز بالنقائص يوماً عن يوم. ظلَّ علوان بعد خلع أسنانه يحسب السنوات التي عاشها، ويخمّن السنوات التي يمكن أن يعيشها بالنظر إلى أعمار أقارب أموات، ثم يحسب عدد الأسنان التي يمكن أن يفقدها خلال سنوات قادمة مُفترَضَة، ويطرحها من عدد أسنانه الحالية. يتحايل على نفسه بتقليل الأسنان المطروحة ليتبقى له ما يحتاجه في الأكل والعيشة حتى يأتيه الموت. يُطمئِن نفسَه ويهدأ لمّا يقتنع عقلُه بأن الأسنان التي لديه كافية لستر جسمه حتى لحظة الموت. لكنه ما يلبث أن يعود إلى القلق ويدخل في دوّامة الحساب والافتراضات من جديد، في محاولة تصدٍّ لأسوأ احتمالات؛ وهو يزيد من عدد الأسنان المطروحة واحدة بعد واحدة، ويتمنى –بمسحة من يأس لحظي– تبكير الموت؛ حتى لا يضطرّ

إلى سنوات من شرب الماء وانتظار مُذلّ لطعام مهروس في أفواه أخرى. ظلَّ حريصاً أمام الأكل، شغوفًا بنظافة فمه لفترة من الوقت، وهو عالق في حسابات العمر والأسنان، حتى أخبره الحلاق في مرّة بطقم أسنان يمكن تركيبه من أسنان الأموات أو الماشية على قاعدة ذهب. استنكر علوان أن يأخذ ضرساً من فمِ ميّت أو ممتزجاً بلعاب بهيمة. ولمّا ضعف حرصُه أمام قديمه، كان يرجع لنفسه بقلبٍ جامد، يضحك ويهوّن من فكرة ضرس البهيمة، يمدّ يده إلى أطباق العسل والفطير واللحم، ويشير إلى أهل بيته ويقول: «على الأقل أنظف من أكل مهروس في أفواه حمير صاحية».

كان يعاود السير في أرض الحجر، على بعد أمتار من الحدّ القبلي للغيط مقترباً من طريق البلد، ويرى ابن عزام الحجر واقفاً باللباس والفانلة بجانب الزرّاق الذي يسقي غيطه، ممسكاً بالسطل المُعلّق فوق صارية ويَشدُف لريّة المحاياة. ودون قصد، كانت عيناه تختلسان نظرة إلى ما أسفل بطن الحجر.

«الناس على أبواب جهنم والحجر ينتظر القمح».

كان يعرف أن الحجر لم يعد حجراً منذ زمن، منذ آخِر ركبتين. لوّح علوان بالسلام للحجر، أبلغه بالتجمّع بعد صلاة العشاء. والحجر يومئ برأسه ولا يردّ، كمن يأخذُ عيّلاً على قدر عقله، يستكمل الشدافة؛ يمسك الثُقل ويُغطِّس السطل الفارغ في التفريعة، ثم يترك الثقل لينزل على الأرض فيخرُج السطلُ ممتلئاً، يدور به ويصبُّه في الزرّاق. أراد علوان أن يسبَّه، لولا أن تذكّر أن البرج ليس في ظهره. اغتاظ، كاد لسانه أن يفلت ويصرخ في الحجر بمَثَلِ المناجاة المعتاد، الذي يردّدونه من خلف ظهر علوان في المواقف التي يحكمها العبث والجنون: «سميرة الفيل عريانه ورمت عيالها في سُلَّانه».

تذكّر علوان زوجته سميرة، المجنونة التي أغرقت صلبه في الترعة وخلعت ملابسها وأخذت القطار بالحضن وهي عارية في اليوم المشؤوم، وتركته بطيز عريانة أمام أهل المناجاة لعشرين سنة كاملة، يمرُّ من أمامهم فيتغامزون؛ لا يرون إلا عريه، اتحدوا جميعاً في نسيان يوم أن تعرّت نساؤهم وتعاركن على أحضان عبده الأخرس في وسط البلد. متلهفون للنسيان، وفعلة سميرة كانت سبباً مُنتظَراً، كما هو حال نخلات فوزي التي ستنزل رحمة بالإلهاء، وتزيل عنه العري المستمر في العيون.

كان علوان يخلّف الحجرَ وراءه. تمتم وكأنه في تسليم: «حال الدنيا، الفعل يمحو الفعل، يسحبه إلى نسيان. تملك درّية عنق الغزالة فينسون علوان الحائض، ويكفّون عن التغامز حول بيعك لدار أبيك».

أومأ برأسه. حكّ جبهته. همس: «نعم والله، إن أتى النخل فهي الراحة».

كانت أذناه تمتلئان من جديد بصراخ سالم البرج أمام باب الدار في يوم مقتل عياله: «انهض يا حاجّ علوان، عيالك!»، مع بدايات صبح بارد وقبل سروح الخلق إلى الغيطان، يكرّرها بلا توقف وبرعب متزايد. وعلوان يصحو مبعثراً، والنداء كأنه دوّامة من بقايا حلم تمتصّ عقله. ويشعر بخطواته وكأنها على حبل فاصل بين النوم واليقظة. كانت الدار حوله خالية، ينادي على البكري أحمد وعلى الأولاد وعلى سميرة ولا ردّ. يقلّب الغُرف ولا مُجيب. ينزل فوق درجات السلم الفاصل بين طابقي البيت وهو يتلفّت بين الجدران، يجول بعينيه على بروزات داكنة ومنتشرة في الحوائط ولا يعثر على سميرة ملتصقة بها كما العادة. يلحُّ على رأسه السؤال الصعب: «لماذا يلتاع البرج كالحريم!». وحين يَفتح الباب ليواجه البرج بسؤاله؛ كان سالم يسبق بخطوات بعيدة ولا ينتبه لمّا ينطق به علوان،

يكرّر نداءه لعلوان بين لحظة وأخرى وهو يبتعد أكثر. ولم يجد علوان مفرّاً من الهرولة خلف سالم. كان يمضي في طريق التفريعة، وعلى يمينه السلان بصفحة ماء رمادية، يعبر فوق القنطرة الخشبية المجاورة لنقطة الخفر، وينتقل إلى الضفة البحرية للترعة، يمضي في طريق البلد والشمس تتسلّل في ظهره. وأمام البرج بمسافة قصيرة كان يرى طفلاً صغيراً يجري حافياً ويشير بذراعه بين حين وآخر إلى الغرب. كانت البلد تصحو وتنادي وتتجمّع من خلفهم. يخرج الناس مثل نمل من أرض القط الممتدة على يمينه، متكدّسين حوله. وعلوان مشتَّت، يرى الكلّ بوجوه ممسوحة بلا ملامح، ولا يميِّز إلا ألوان جلابيب وعِمَم وطاقيات وشيلان وصديريات متحركة وكأنها حواليه بلا أصحاب. كان العالم باهتاً حوله وكأنه يشاهده من خلف لوح زجاجي مغبش برمل، الهواء مكتوم والنور ظلال. يجري بشعر رأس مبعثر وثوب مكرمش وخطوط النوم على الخدّ. والبرج يلتفت إليه بين فينة وأخرى ويستحثّه وهو يطوّح بذراعه من الخلف إلى الأمام. كان علوان يسرع ويسمع أصوات الخلق المتداخلة ولا يفهم شيئاً من الحروف. يتلفّت فيهم بحركات سريعة وبنظرات تساؤل مملوء بخوف. يلهث وتسيب فردة مداس من إحدى قدميه فيَتتُر الثانية. يتوقف الولد عند مدخل قنطرة السوق التي تعبر من فوق الترعة إلى الجهة القبلية، والبرج يصل إليه، يدخلان معاً ويقفان في منتصف القنطرة، وعلوان يسمع الولد يصرخ: «هناك». يستدير علوان في الجهات ولا يعرف أين هناك! يمدّ البرج ذراعه اليمنى ويشير بكفٍّ مرتعش إلى البحر؛ حيث ثلاثة أجسام تطفو على البطون. يلتفّ الناس حولهم عند السور الخشبي للقنطرة، يحوقلون ويوحّدون الله، وينزل رجال إلى البحر لتناول الأجساد وعلوان يتفرّج ولا يفهم.

يرتفع صراخ آخر: «شريط السكة الحديد!»؛ والناس فوق القنطرة ينزلون عبر طريق البلد إلى السكة الحديد، وعلوان معهم كورقة في عزّ عركة ريح، يتعثّر وتسنده أيدٍ كثيفة حوله. يقترب ويرى امرأة عارية تقف فوق الشريط؛ ملط كما أتت بها أمها، ثابتة كشجرة، ساهمة في الجهة البحرية وتفتح ذراعيها على اتساعهما. وأهل البلد يشدّون الخطو تجاه القضبان وعلوان معهم؛ فيرى سميرة من بين جذوع الشجر، ويسمع صراخاً يختلط فيه الضحك بالبكاء، وقطار المراكز قادم ولا يتوقف في المناجاة. الناس يصرخون على سميرة وعلى القطار، والشباب يجرون ويتسابقون. تلتفت سميرة إلى اليمين وتخصّ علوان بالنظر، بعينٍ دامعة وفمٍ ضاحك. وعويل قطار متتابع يعقبه صوت ارتطام مكتوم؛ تتحوّل بعده سميرة إلى قطعٍ. والرجال يتردّدون بين ذهول وحياء وخوف قبل المبادرة إلى جمع أجزاء العارية وتغطيتها بجوالات الخيش.

كان فهم مفزع يبدأ في الانسياب إلى عقل علوان؛ فيهرول من جديد إلى القنطرة، يبكي ويهتزّ، والجمع حوله أقلّ، وأجساد عياله الساكتة على الشط؛ وجوه زرقاء وأعين منفتحة على السماء في ذهول. تتسمّر عيون علوان فوق جسد بكريّه أحمد، يظلّ يهمس: «إلا أنت يا أحمد، إلا أنت يا ولد!». كان علوان يحسّ أن تلك الكلمات ستبعث الحياة في الولد، أخذ يردّدها بنداءات ألم وعتاب، وهو يشيح بعينيه عن الجسد ويرجع ليُطلّ، منتظِراً وقوف الولد على قدميه بين تلك الالتفاتات المتكرّرة.

كان جسم البرج يهتزّ بالبكاء وهو يروي التفاصيل: «رآها الولد ابن مرزوقة وهو يلتحف الخيش، وينام فوق عربة أمّه بين البصل والثوم في أول شارع السوق». كانت قد انتهت من إغراق الكبير بينما الصغيران يصرخان وحدهما على الشط. عادت إلى الشطّ وتناولت الصغيرين،

دفعت رؤوسهم في الماء. كانت عارية وانخضّ ابن مرزوقة؛ كان يدقّ على باب العشّة ويصرخ: «يا عمِّ سالم! سميرة الفيل عريانه ورمت عيالها في سُلّانه». وفي أقلّ من سنة، تحوّلت جملة ابن مرزوقة من باب حزن إلى بحر انبساط وتغامز، ثم إلى حكمة تعبّر عن عدم الجدوى وجنون الفعل وعبث الأيام.

كان جبينه يتفصّد بعرق. فرك حافة السبابة في الجبهة؛ تمتم من جديد: «النخل قادم للراحة يا علوان».

*****

وقف سيّد الحجر عارياً وظهره يلتصق بالجدار المقابل لمدخل الغرفة المغطى بستارة من كتان أبيض مُتّسخ ومليء ببقع، ظلَّ يتفحّص الأرضية الترابية، يتلفّت برأسه ويحسب الأبعاد بالعين، بينما يقبض في يده على حصيرة صفراء مطويّة. وبجسده الفارع الضخم؛ بدا لعزيزة كعمود آخر يمسك سقف البيت.

كانت عزيزة تجلس قباله فوق سرير معدنيّ منصوب في زاوية بين جدارين، ساقها ممدودة وقدماها في وجهه، ترتفق على ظهر السرير ورأسها ينام على الكفّ، بينما ظهرها مسنود إلى الحائط المنتهي بمدخل الغرفة على يمينها.

كان الضيق والهمّ يركبان وجه عزيزة وهي تتجنّب أيّ التقاء بعين الحجر المشغولة بالقياس ونفض الحصيرة.

خطا الحجر إلى اليمين تجاه مصباح فوق طاولة جريد ملاصقة للجدار وقريبة من السرير. التفّ بجسده يساراً مُصدّراً جانبه للطاولة، ونشر الحصيرة بين ذراعيه تحت ضوء المصباح، وعيناه تضيقان وتتنقلان على أجزاء الحصيرة في فحص. وراح بال عزيزة في مقولة لأمّها عن حصيرة الصيف الواسعة؛ حينما كانت تنام في الليل بين إخوتها وأهل الغزالة، وتتغطّى بالسماء في جنائن أبو لبده، حيث الناس يجدون الأنس واللمّة في تلك الحصيرة خارج البيوت عندما يدخل الصيف، والحديث موصول حتى ترتخي الأجفان، وتسقط الأجساد في بئر النوم. وفكَّرت أن نخل

فوزي يريد أن يُعذِّب، ويختار الضرب في عزّ الشتاء؛ حين تكون حصيرة البرد ضيّقة على الواحد، مثل الضيق الذي تحسّه في صدرها منذ الصباح، ولا مجال لأنس أو لطمأنينة؛ فكلّ من بقي داخل المناجاة بابه مُقفَل على من فيه من أهل وعيال. وأحسّت عزيزة بالوحدة، وبحاجة إلى الكلام مع أحد، وحنّتْ لأمومة بعيدة عليها ما دامت تحت سقف الحجر.

كانت عيناها تسرحان إلى ما بين ساقي الحجر، وإلى الخرطوم الضخم والمتأرجح بين الفخذين، وهو يتدلّى ويركن على أرض الغرفة كساق ثالثة، ويزحف على الأرض وراء الحجر، والحجر يقرفص ويتنقل وهو يفرش الحصيرة.

وبرغم الاعتياد، إلا أن لحظات التدقيق وضعتها أمام كائن مشوَّه وغريب عنها. كانت عيناها تمتلئان بذَكر الحجر وتفصلانه عن بقية جسده، تراه منفرداً وجديداً؛ كاسراً لسنوات من العِشرة. وراودتها رغبة في القيام وإمساكه للتأكد، وإعادته إلى موضع المألوف، إلا أنها أحسّت بذعر خفيف يتسلّل إلى روحها من باب احتمالات بعيدة لتغيّر مراده. خفضت رأسها وأطبقت الجفون، وهبّتْ في رأسها صورة فاطمة الساكتة، أوّل بخته، والتي ما إن خلا بها الحجر في أول ليلة؛ حتى سمعت المناجاة صراخها يشقّ الجدران. في البداية؛ ابتسمت النساء في مزيجٍ من حياءٍ وحسد، بينما تغاشمت الرجال وتلفظّت بطلبات تعجيز وتوبيخ. لكن صراخ فاطمة استمرّ مع أنين ألم متوحش يقبع خارج المتعة، مختلطاً بزعيق الحجر بكلمات غير مفهومة وسباب متناثر وكأن روحه ستطلع؛ فانسلَتَ الرجال من البيوت واحداً بعد واحد نحو دار الحجر.

وأمام باب الدار، انقطع الطبل والزمر عن أهل المناجاة المنتظرين طلوع مَحرُمة الشرف، بعدما غطّى صريخ الزوجين على جوّ الحفل. كان

أخوها علوان واقفاً وسط الناس، متحيّراً أمام النصائح، مأخوذاً بآهات عذابٍ واضح وزعيق ممسوس. امتدّت الأيدي لطرق الباب في كسوف، ما لبث أن تحوّل إلى تصميم الفزع، لكن الطرْقات تاهت في غابة أصوات فاطمة وفي جلبة هرولة أفيال داخل الدار؛ فأشار علوان بكفّه إلى البرج وعينه في الأرض. كانت إشارة سريعة ومن جانب جذعه، تحمل الكسوف والضيق ورغبة في إنهاء السبب عوضاً عن النجدة. أزاح سالم المتجمّعين حول الباب بدفعات من ساعده، وخلع الباب الخشب بضرباتٍ من كتفه.

وفي الغرفة نفسها التي تتمدّد فيها عزيزة الآن، كانت فاطمة مكوّمة على الأرض، تستند بكتفها إلى السرير نفسه، بكدمات زرقاء على لحم الذراعين، ولطخات من كحل سائل فوق الوجنتين، رأسها مائل على الصدر، عارية وتحتها بركة دم، غائبة، ولا تقدر أن تصلب طولها.

تناول علوان الجلباب الأبيض من طرف السرير وسترها. أشار إلى سالم؛ الذي حملها وخرج من البيت وهو يزيح الخلق من أمامه بجسم فاطمة. والحجر عريان وممدَّدٌ أمامهم على الفراش، بخدوش وشرائط جروح ممتدّة في الوجه والصدر؛ وكأنها من أظافر مقاومة فاطمة. يبدو عليه إنهاك وهو ينظر إلى السقف في توجُّس، سارح عن الناس بالتفتيش عن خطر مختبئ ولا يحسّ بما حوله، وعموده المنتصب بين فخذيه كجذع شجرة؛ يحمل الإجابة على ما وقعت فيه بنت القطّ. صرخ علوان: «يا ابن الكلب أنت مخلوق لبهيمة. سأقطع خبر أهلك!». والحجر لا ينظر ولا يردّ. ثبّتها البرج داخل الهودج الملوّن الذي زفّها إلى الدار منذ ساعة، عندما رافقتها زغاريد وزمر وضرب نار ورشّات ملح.

ولشهور، ظلَّت فاطمة راقدة في فرشتها، ذاهلة ولا تنطق. تكبس الخادمات على جروحها بالبُنّ، ويُضمّدن اللحم المتفسخ بقطع قطن

مغموس بعسل أبيض. دهنتها أم عبده بدم سحلية، ولَفَّتْ ما بين ساقيها بورق بردي مشبع بلبخة الثوم وصمغ النحل. كانت أم عبده تعدِّد وهي تداوي: «رُحتِ بالحنّة يا ستّ فاطمة ورجعتِ بالدم». تقارن وتقيم مناحة وهي تسرد على الزائرات الملتفّات حول سرير فاطمة -وبالتفصيل- وقائع ليلة الزفاف، حينما كانت تُجهِّز فاطمة لدار العريس؛ وهي تنزع بالحلاوة الزغب المنتشر في سلسلة الظهر دون غيرها من أجزاء البدن الأملس كقطعة حرير. تدعك الجسم النحيف بليف النخل على مهل وتشاهد احمرار اللحم مع أقل لمسة، وتخاف أن تنكسر العظام الرقيقة وهي تتقلّب بين يديها على السرير. تغسل الجلد المرمر بصابون معطّر وماء ساخن، وترشّ فوقه ماء ورد. تحنّي القدم وباطنها غير المستعمل وكأنه لرضيع. وتزيِّن الأيدي اللدنة والأصابع الطويلة الرفيعة. تجدل الشعر الأسود الممتدّ إلى باطن ركبتين شفّافتين كماء من منبع. وتكحّل العيون الحوراء الواسعة.

ظلَّتْ أم عبده ملازمة للغرفة، تُمرّض فاطمة، تندب وتقول: «أين كان ابن الحجر وأين كنتِ! قلنا لا تعلو العين يا ستّ البنات». ترتبك أم عبده أمام انفلات اللسان بكلمة «ستّ البنات»؛ فتشيح بيديها، تهرب بوجهها وتضيف: «سأرسل الولد عبده إليه، يحضره هنا ليبوس مداسك». ولمَّا تخلو الغرفة من الناس؛ تنخفض أم عبده بوجهها تجاه فاطمة الراقدة، تسأل بالهمس وبنصف خجل عمّا حدث في ليلة الدخلة، وفاطمة تتطلّع في السقف ولا تعي شيئاً من العالم؛ فتنتقل أم عبده إلى المواساة وهي تبتسم في تودُّد: «سامحيه يا ستّ الكل؛ الرجل غشيم في الأول، أهبل ومعذور، شاف الحلاوة فراح عقله».

وذات صباح، بعد مضيّ أربعة أشهر من رقاد وسكوت؛ وقفت فاطمة

على رجليها. تناولت جلبابها وخرجت من البيت ولم تعد. وظلَّ البرج والخفر يجوبون أنحاء المناجاة ليومين ولا أثر. خرجوا إلى الخلاء البحري، واصلوا السؤال والبحث في الغزالة وما وراءها. حتى عثر عليها البرج تجلس في الصحراء غرب البلد، منفردة وساكنة، تخطّ بالأصابع على الرمل، وتحدّق في قرص الشمس بعين ثابتة. أخذها البرج إلى علوان، لكنها فرّت من جديد. وظلّت تهجر المناجاة مرة بعد أخرى، لا تعدم الحيلة، وتمرّ من أبواب موصدة وأقفال، ومن خفر علوان. وفي كلّ مرّة يعثر عليها البرج في ناحية ما خارج حدود البلد ويتناولها من ذراعها؛ فتمشي أمامه طائعة ومنكّسة، حافية وملتفّة في سواد مغبرّ، ذيل جلبابها يحفُّ على الأرض فوق مواضع خطوتها، وهي تقطع طرقات المناجاة بأقدامٍ واهنة.

كان البرج يَرِقّ؛ يتكلّم بحكايات طريفة عن أهل البلد للترويح عنها، ويحكي عن طرد علوان للحجر من الأرض، وتعهّده بقطع عيشه وعيش أهله من المناجاة. ينثر لها الدعوات بالسلامة طوال الطريق وقبل الدخول إلى البلد، يذكر مآثرها، ويعدّد أفضال أهلها عليه، يدمع ويقول: «والله لو أمرتِ يا ستّ فاطمة أجلب رأسه تحت رجلك». تلتفت الساكتة وتشير قباله بكفٍّ مفرودة، كعلامة على رغبة في توقف الكلام. وحينما تدخل إلى المناجاة؛ يلتفّ الناس حولها حتى تصل إلى باب الدار، والبعض يدعو لها والبعض يطلب دعاءها كما تعوّد؛ فتومئ فاطمة ولا تنطق لأحد، بينما العيون تذرف التعاطف والحسرة على النصف الطيّب من بيت القط.

لقد أحبّت المناجاةُ فاطمةَ أينما ولّت، ثم أحبّت سيّد الحجر حينما أرادته بنت القطّ، وغلبت الأحلامُ الحسدَ المتداول بين المناجاة أمام طفيف النِّعم؛ ليتحوّل الحسد إلى غبطة واتخاذ المثل العالي من الحجر؛

عندما صاهر ابن عزّام أبناءَ القط في غمضة عين، وتخلّص من صفة الأجير المضروب بالطين والشمس، منتقلاً إلى مالك وصاحب كلمة، وكأن الحسد يتتبّع نجاحات مستطاعة فقط، وكأن الحسد ثقيل ولا يحلّق على ارتفاع الأحلام العالية. صحت المناجاة في يوم، ورأت طيبة سيد وبياض قلبه حينما قبلته فاطمة، ورأت في مصاهرته لعلوان؛ غَلبة وانتقاماً لروحها من كبير المناجاة المتعسف، وتحوّلت كلماتُ الغيرة، التي تجنّت على الولد واتهمته باستخدام رجولته الفائقة في الحرام وبين بغايا الليل إلى استحسانٍ وحمدٍ للعفّة، وأيَّدَت الاستنتاجَ بالشاهد؛ وهو حصوله على جائزة الجمال والمال، وترقّيه إلى بيت القط. لكن المناجاة نفسها ما لبثت أن ألبست الحجر ثوبَ العيب بعد هجر فاطمة، واستيقظ الحسد ممتزجاً بغلٍّ وشماتة حبيسة، تخرج في قناع عقاب وانتقام لبنت القط المباركة، انتقام محمود ومسنود إلى موقف أخلاقي، مبرّر ومتفق عليه من كامل المناجاة، بدعوى حقّ فاطمة التي لم تذنب. لكن العقاب لم يكن لحقّ فاطمة، ولم يكن نابعاً -فقط- من حسد وشماتة تضرب فيما بعد زوال نعمة، أو -حتى- من ندبٍ للحظ ومقارنة لحال تلك النعمة المهدورة إذا ما كانت بين أيديهم، وأن الحلَق يعطى لمن بلا آذان، بل كان يحمل في جزءٍ خفيٍّ وغير ظاهر -وحتى لأعينهم- خيبة الأمل في فشل واحدٍ منهم وقد منحته الحياة ما يَدخلُ به بابَ السعد، والإحساس بخداع الأمنيات، وبضآلة قدرة المحبة، وباليأس التام، يأسٍ يمنع أيّ محاولة في المستقبل للتخلّص من شظف العيش أو السعي وراء حلم.

وفي ليلة العرس؛ تحزّمت الرجال من الخصور ورقصت مثل النساء من العصر إلى آخر الليل، حلا التحطيب والتمايل بالأحصنة، وتصارع الناس حول طبالي اللحم والفتّة للّحاق بثريد ليلة المبروكة. وحين ظلّت

الصحون ممتلئة بعد امتلاء البطون التي لم يعد بها طاقة؛ أشار الناس إلى البدر في السماء، وإلى اللحم المُكدّس على الموائد من ذبائح طازجة أحضرها علوان بنفسه من قرية النخّاس، مسحوا بالأيدي المغطاة بالدُّهن فوق الرؤوس، وملَّسوا بها على الوجوه والأعناق، وهم ينادون: «بركاتك يا بنت القط». زفّتها كامل البلد وهي تخرج إلى دار الحجر. وتجاذب الكثيرون يد فاطمة من فوق الجمل لتمرّ على رؤوس العيال ومهيضي الأحلام. تمسَّحوا بوبر الجمل وأخذوا من موضع خطوه للأحجبة. بينما وقف الحجر في جلباب أبيض أمام الدار، حواليه زغاريد أمّه وأخواته، مرتقباً عروسه والبرج يتناول يدها من الهودج ثم ينحني، ويثبّت كفّه الأخرى مفرودة في الهواء بجانب الجمل البارك لتستند عليها قدم فاطمة خلال النزول. والحجر ثابت، عينه القلقة واقفة على جمل فاطمة، متخشّب أمام دفعات في ظهره من أيدي أخواته ليتحرّك ويتناول العروس.

كانت المناجاة في حاجة إلى فرحة وسبب نسيان، وقد خرجت للتوّ من لعنة البدل، ومن مشهد خروج فوزي عارياً مع أهله إلى الغزالة. وبعدما سلب علوان كلّ بهيمة في بيوت المناجاة وقتلها خوفاً من عدوى البدل. التي تقافز خلالها الرجال مثل دوابّ في طرقات المناجاة وحقولها، ولم تنفع رقية أو سحر في الفكّ.

لكن فاطمة رأت في المنام روحها في صحراء قاحلة تحاوطها الشمس، وحولها الرجال بشفاهٍ متشقّقة وجلود جافّة ظامئة، يرتمون فوق الرمل بلا طاقة ولا قدرة، والنساء يدُرنَ على أجساد رجالهنّ الغائبة في العطش، ينادين ويمددن الأيدي بمحاولات إسعاف خائبة. ورأت فاطمة فمها ينفتح، ولعابها يسيل أمامها، يندلق مُكوّناً بركةَ ماء واسعة، وكأن فمها فوهة طرمبة، وعلى حافة البركة تنهض أشجار وخضرة رحيمة. ورجال

البلد ينهضون بطاقة أخيرة في الأجساد، يركضون من كلّ ناحية، يحيطون بالبركة ويشربون، ينقلبون بعدئذٍ على ظهورهم ضاحكين على حواف البِركة وتحت الظلِّ الوارف. وصحت فاطمة من النوم، أخذت عصا علوان من دولابه، عبرت على رجل تلو الآخر في المناجاة، تُمسك بالرجل، تضغط على صدغيه بيديها، وتبصق في فمه. حَلّت الرجال وشَفَت من البدل، لكنها تركت الحجر وحده بلا ريق، يمشي وراءها ويرغو لشهور، وهي تبتسم وتتجاهل في الغدوّ والرواح استعطاف البلد لقلبها على الحجر، قبل أن تريحه في نهار وتبصق في جوفه هو الآخر.

صارت المبروكة التي تشفي باللمس؛ يقف الناس بالطابور على أبواب بيت القط، ويرقدون في الجنائن المحيطة، يسألون عن كفوفها كلما أتاهم أمرٌ. وعلوان يغتاظ من اللُّمَّة حولها في الغالب؛ يأمر البرج بطرد المتوسّلين من حول البيت، يشير بعصاه ويقول: «والله أنتم بهائم، ولو تركتكم لكان أحسن للكل». وفي أحيانٍ أخرى وفي نوبات رضا ومزاج رائق؛ كان يعبر من خلالهم بهدوء، ويتفاخر بفاطمة وبنسل القط الكريم؛ وكلمات الناس عن الدم المبروك لأولاد القط تزيده تسامحاً وتمنحه لحظات من طيبة.

كانت المناجاة تستعدّ للفرحة، وتجهّز مع الحجر بيت فاطمة في الأرض الغربية التي منحها له علوان. والعمال يعطون أصول الصنعة، يخدمون فاطمة والحجر بالعيون. ومع كل مرحلة في البناء أو لمسة متقنة، يشير العمال ويقولون: «والله، مخصوص للست فاطمة يا عمِّ سيّد». وفي داخل المناجاة، امتزجت فرحة زواج فاطمة بشماتة خفيَّة في علوان، وبرضوخه لتهديد فاطمة، التي وقفت له حينما رفض الزواج في أول الأمر وقالت: «يا ابن بطن أمي، سأرجعك دابّة مرة أخرى وأنت نائم، وسأتزوّج

الحجر وأنت دابّة بلا رأي. وسآتي بك، أضع على ظهرك سرج ولجام بين أسنانك، وأركبك من هنا إلى بيت زوجي».

يومذاك كان صوت فاطمة عالياً، يجرح في باحة البيت مثل إرادتها، يصل إلى مسامع الخدم والخفراء. كان علوان يُبدي أول علامات اللين في ذلك النهار، مُشيحاً عنها ببصره، بإيماءات متأسيّة ومُسلِّمة، ناظراً إلى الخفر المُكوّمين عند باب البيت المفتوح، قبل أن يغمض عينيه ويرجّ رأسه وكأنه يتخلّص من خاطر. قال بصوت خافت: «لستِ من أهلك في شيء، يمكنك أن تلزقي بسيرتهم أيّ عيب. أما أنا فلا، أنا حامل لاسم القط. لكن نسلك حامل لاسم رجل غريب في أيّ حال، يأخذك ويغور، وأخلص منك».

لكن، بعد ليلة خروجها من دار الحجر، وبعد سكوتها المتواصل أمام الكلّ؛ عَلَتْ يدُ علوان من جديد. كان يدخل إلى البيت في أيام رقودها، يسأل عنها أم عبده ويقول: «ما أخبار ستّنا المبروكة؟ مالك باشا الحزين!». وحين تحاول أمّ عبده أن تحنِّن قلبه وتجيب: «الحال لا يسرّ عدوّ ولا حبيب يا سيدنا. دعواتك»؛ ينفجر علوان: «أصل من يعارض علوان لا يكسب. مشيت مع كلام ربّنا وزوّجتها لمن اختارت، لأجل خاطر شرع ربّنا ولا حاجة ثانية، لأني أعرفه. وحتى لا تلومني أمها لمّا ألقاها بعد عمر. لكن قلّة سمع الكلام لها جزاء، وأنا من نسل طاهر وتقي».

وحين بدأت فاطمة في الخروج؛ ظلَّ علوان يحاصر هروبها المتجدّد ثم بات ينساها أحياناً لتهيم في الخلاء والطرقات لأيام، حتى تُذكّره أمّ عبده وتلحّ على مسألة غيابها؛ فيشتمها ويثور طائحاً في أهل البيت، إلى أن يهدأ بعد قليل، ويرسل في أثرها البرج.

وحتى يوم غَرَق أبنائه؛ إذ انتقلت عدوى الصمت إليه وتركها لهواها.

دفنتهم فاطمة في الخلاء البحري على مقربة من بيت صابحة وعلى مسافة من غرب المقابر، نزلت إلى جوارهم، زرعتْ الصبار والحشائش حول القبور. وأخذت سالم –من خلف علوان التائه– ليساعدها. أحاطت القبور الثلاثة بجدران حجرية وباب خشب مطلّ على الغرب قبال بيت صابحة. صنعتْ ثلاث طاقات موزّعة بين الجدران للتهوية. ونقلت نخلة صغيرة من أرض علوان إلى جوار الباب.

وداخل المقام، وضعت فرشة للنوم وحاجاتها القليلة في ركنٍ ضيّق، ما لبث أن أصبح أضيق؛ حينما أصرّت على نقل جثمان سميرة إلى جوار أبنائها رغم رفض علوان. لم تأخذ من علوان إلا النخلة؛ تركت له الأرض والمال، وعاشت على صدقات ونذور مقام الغرقى. يتجاذب أهل المناجاة يدها أمام المقام لتمرّ على رأس المريض وبطن العاقر؛ فتمسّ ولا تنطق. ينحنون بعدها بأدب ويشكرون، ويتركون عندها ما تيسّر من أكل وثياب.

بنى لها الولد محمد بن فوزي قبّةً طينية فوق المدافن، ومصطبة طينية ملازمة للجدار القبلي المواجه للمناجاة. ثم أحضر برميل ماء؛ نقع فيه قطع جير ليومين حتى أصبحت عجينة، قلّبها بعصا جريد، وصفّاه من خلال سلك إلى برميلٍ آخر. أضاف مُغْرَة حمراء وملحاً وزيت كتّان مغليّاً. ثبَّت عرق خشب كسقالة فوق البرميلين، وطلى جدران المقام والقبّة بلون أحمر.

كان الولد قريباً من فاطمة، الوحيد الذي سمع صوتها في المناجاة منذ خروجها من دار الحجر، والمتطوّع لقضاء حاجتها من البلد، قبل أن تصحو نخلة المقام وتدهسه في يوم.

لكن المناجاة لا تعلم أنها نطقت لعزيزة، عقب واقعة الأخرس، في ليلة برد والحجر غائب خارج البيت في الحزن والباب مقفول. أحسّتْ فيها

عزيزة النائمة باليد التي ترفع عن الأرض حافة الغطاء الساقط، تتناوله وتلفّه حول أكتاف عزيزة وتدثّر به العنق. وأحسّت بحضور عين غريبة في الغرفة، وبأنفاس سريعة تتردّد؛ صرخت وقعدت على السرير مفزوعة أمام فاطمة، وفاطمة ساكنة، واقفة وتتأمل بوجه ناشف كأنه لميّت. لكنها مدّت يدها رويداً، ومسحت عرق الخضّة من فوق جبين عزيزة. همست بحشرجة: «ليس كما تَعرف المناجاة». أكملت بفحيح غاضب: «قطعة القطيفة هي الحسرة التي تحبس عفريت الحجر؛ خلّها أمام روحه». استدارت وخرجت من الدار في خطوات بطيئة بينما عزيزة مبعثرة على السرير.

ومع خروج الشمس؛ قعدت لها عزيزة أمام باب المقام، تريد أن تفهم. لاحقت فاطمةَ بالأسئلة في صباحات متفرّقة، لكنّ فاطمة وضعت جدار السكوت، وعزيزة يئست ونسيت. مرّت سنوات قبل أن ترجع فاطمة بزيارة أخرى منذ شهور، وقبل تحطّم الغزالة، في عزّ الظهر، وعزيزة قاعدة أمام الفرن تخبز. شعرت عزيزة بالكفّ فوق الكتف، ومالت فاطمة عليها وهمست في الأذن: «درّية ماتت في الغزالة، الجزاء من جنس العمل. والحجر ثقيل؛ لأن القطيفة في جيبه، ودرّية في القبر، وأنت في بيته».

كانت يد عزيزة تزحف ببطء فوق مرتبة السرير، تمتد ناحية جلباب الحجر المكوّم على مقربة منها، بينما كان سيّد قد انتهى من فرش الحصيرة في الغرفة، ولفِّ أعوادٍ من الريحان في قطع قماش، ثم قام بنثرها تحت أطراف المرتبة القطنية التي تقعد فوقها عزيزة. نظر إلى عزيزة التي سحبت ذراعها من منتصف الطريق إلى الجلباب، وأدارت رأسها عن وجه الحجر، هاربة ناحية الجدار على يسارها.

قال: «الحصيرة كانت طول النهار تحت الشمس، ولا أثر لبقّ على المرتبة كما قُلتِ. وعلى العموم نثرت الريحان، ورائحته تطرد البقّ».

ظلت عين عزيزة على الجدار. همستْ في ضيق: «البقّ يأكل في جسمي من البارحة».

أومأ سيّد برأسه، كإشارة على مشكلة منتهية. استدار، خطا نحو مصباح الجاز، نفخ في فتحته وأظلمتْ الغرفة. راح على الفراش وارتطمت قصبتاه بالحافة القطنية، واستشعرَ من تحتها حزَّ الحديد. مالَ ويده تتحسّس الطريق إلى أقدام عزيزة. تناول طرف جلبابها ورفعه عن ساقيها. ركب السرير وانحنى مثل حيوان؛ يستند بركبتيه وكفّيه على المرتبة. خفض رأسه، وانكبّ بوجهه على ركبتَي عزيزة. مدّ يده إلى باطن الركبة ليرفعها إلى الأعلى؛ فأسندت عزيزة كعبيها إلى السرير رافعةً الركبتين إلى مستوى وجهه.

كان الحجر يتحسّس ركبتَي عزيزة بخدّيه وجبهته، ثم يدسّ فيهما أنفه الأفطس ويتنفّس في عمق. ويده اليمنى تتراجع وتعبث بخرطومه. وعزيزة ترتكز براحتيها على المرتبة لتحفظ توازنها أمام دَفعات وجهه. ظلَّ يحتكّ بالركبتين، ورأسه تتأرجح بين اليمين واليسار، أنفه يلتقط الأنفاس ويكتمها للحظات داخل صدره، قبل زفير طويل ومتقطّع يتحاشى خلاله مواجهة الركبة بفتحتي الأنف. تناول كفّ عزيزة ووضعها فوق مؤخرة رأسه الأصلع. ظلّت يد عزيزة ثابتة لبرهة قبل أن تبدأ في التحرك ببطء، وتملِّس فوق الرأس والقفا، تدعك فيما خلف الأذنين، تعصر في الجلد واللحم حول الرقبة وكأنها تهدهد حيواناً أليفاً، ويدها تستشعر خشونة أمام ندبات لجروح منتشرة في وجه سيّد وعنقه.

كان تحسّسُه يتحوّل إلى احتكاك وفرك؛ يضغط بوجهه وهو يدور به فوق الركبة، يتنقل في دائرة بين أول القصبة والأربطة ونهاية الفخذ. وخرطومه يتحوّل إلى عصا متصلّبة، تمتدّ وتمسّ مؤخرة عزيزة مع

انفعالات جسده. راح يزوم في تفريغٍ لانقباضات الجسد، ويده تخنق حيواناً حروناً وصوله اقترب؛ فانهمر لسانه ليلحس في لهفة، وفتح شفتيه الغليظتين محيطاً بالرضفة وهو يمتصّ بعشوائية ظامئ.

أفلتَ عمودَه، مدّ يده إلى كفٍّ عزيزة الآخر، وتزحزح بركبتيه فوق المرتبة مقترباً منها أكثر؛ سامحاً لذراعها بأن تطوله، بينما لسانه عالق في الركبة. ثبّت كفّها أسفل خصيتيه. ولمّا بقيت كفّها مفرودة بلا حركة؛ خبط بأصابعه على ظهر يدها في دعوة للتحرك، ثم أطبق على يدها لتلتفّ حول كراته. كان يضغط فوق يدها في قوة ليشعر باحتواء وبكبْسات امتلاك مَرجوّة، بينما يعصر سائقه باليد الأخرى، ويعتمد على جذعه في وضعه كحيوان بلا أيادٍ ترتكز.

كان يهيج في بئرٍ بلا آخِر. ورأسه يتخبّط في التفاتات متناحرة قبل أن يستقرّ. يعضُّ بالشفتين ويحاوط الرضفة بين الأسنان، ثم يؤخّر أسنانه حينما تهاجمه رغبة غالبة في العضّ. أحسّتْ هي بريقه يسيل إلى القصبة، وبشفتيه تأكلان في سرعة وعنف. كان يئنّ بصوتٍ مكتوم، أنّات من ألمٍ وغيظ محشرج مختلطة بهمهمات، تمرّ من بين أسنانه ومن فمه المحشور في الركبة، بينما يُخلي يدها من تحت كراته وكفّه تحاصر سائلَه المتدفق.

سَكن، كان يلهث وأنفه مستند على الركبة؛ فلا يجد الرائحة التي طردها ريقُه. انقلب على ظهره إلى جوارها، ويدها الأخرى تنسحب من فوق رأسه وتنضمّ فوق أختها منقبضة في حجرها. كانت تسمع أنفاسه للحظات ثم أزّات لمفاصل السرير وهو يتقلّب على جانبه إلى ناحية الحافة، ويمدّ يده الحرّة فيما أسفل السرير. لطم الأرضَ بضربات خفيفة متناثرة؛ قبل أن يعثر على كومة من قطع قماش مُنَسَّل ومتّسخ. أخذ واحدة ومسح فيها كفّه ومقدّمة خرطومه المتدلّي، ثم قبض عليه بقطعة القماش

وعصره من القاعدة إلى الرأس. رمى القطعة ثانية إلى أسفل السرير. وقف، اتجه إلى المصباح، أزاح الزجاجة وأشعل النار في الفتيل. بينما أعادت عزيزة الجلباب فوق ساقيها، تزحزحت على الفراش، وتناولت جلبابه المُلقى على ظهر السرير. دسّت يدها متنقّلة في الجيوب حتى تناولت قطعة من قطيفة؛ كانت مهترئة، مربّعة وبلون أحمر باهت، ومطرّز عليها رسم لجناحي طائر بخيط صعب التمييز؛ متّسخ وذائب. التفتت إليه وهو يترك جسده ليسقط ثانية فوق المرتبة. رفعت القطيفة أمام عينيه.

قالت: «ألن تريح عزيزة؟ هذه علامتهم يا سيّد».

كان يستند إلى الجدار وينظر إلى السقف.

«أنت حجر على السرّ حتى ولو لعزيزة!».

أكملت: «لا ينالها إلا واحد من إخوان القطيفة يا حجر، بعد أن ينبت له الجناحان في ظهره، وتبقى عينه اليمنى شمس واليسرى قمر. جدّتي كانت تحكي عنهم لمّا كنا عيال في الغزالة، وتقول خلّوا العيّان في ركن لوحده حتى يأتيه الدواء في الليل من إخوان القطيفة ويصبح صحيح».

مدّت يدها وحشرتها بغلظة خلف ظهره تتحسّس: «أين جناحاك يا حجر؟».

أزاح يدها بخشونة. زمجر: «تخريف نسوان في آخر الليل».

هبّت واقفة. نظرت في تحدٍّ. راحت إلى المصباح.

«خلاص، أحرقها يا حجر ما دامت بلا قيمة».

ببطء رفعت الزجاجة عن المصباح؛ فانتفض واقفاً وشدّ القطيفة من يدها. ارتدى جلبابه على عجل. دسّ القطعة في جيبه وخرج من الدار.

كان البرد شديداً حتى على الحجر؛ الذي قوّس ظهره، وذراعاه

تشتبكان فوق صدره وهو ينكمش على نفسه خلال وقفته أمام الباب. أحسّ بتعب مباغت، وبأوجاع تنتشر في جسمه من حمول سنين؛ ولعن عزيزة التي أرّقت مزاجه بالزنّ، وجعلته يهرب إلى البرد. ومع بخِّه لقطرات من جسمه كانت تحملُه على شوق وانصياع لعزيزة منذ قليل؛ كانت رذيلة الزنّ تسحب في ذيلها رذائل عزيزة الأخرى داخل رأسه، ويتذكّر طول لسانها، وقلّة أدبها أمام المرحومة درّية، وخروجها مرّات إلى الغزالة من دون إذنه ومن خلف ظهره، والإلحاح المكدِّر في طلب الخلفة، وحدّة التشكّي من حشرات وروائح وعيوب شكلية في البيت والعفش. إلا أن السحبة ساقته إلى فخّ مكروه؛ وباغتته صورة عزيزة العريانة وهي راقدة عند أقدام عبده الأخرس في وسط البلد، تحت شمس حامية، معفّرة وغرقانة في عرق ودمع، ترفع جلباب الأخرس إلى ما فوق ركبتيه وأصابعها تخمش في ربلة ساقه. تدهسها أقدام نساء البلد المتعاركات على جسد عبده، بينما عزيزة تلعق الساق وتبوس. والرجال يجذبون النساء من الأيدي والأجساد والشعور، يضربون بالكفوف ويركلون بالأرجل، والنساء تقاوح وتتمسّك بالأخرس. البلد في حلقات حول الأخرس، ونجا واكتفى بالفرجة من كان بلا امرأة.

كان الحجر لينجو لولا أنه تزوج عزيزة قبل الواقعة بشهور قليلة. تناولها من يد درّية جبل في الغزالة، بعدما كانت عزيزة تخدم في بيوت أبو لبدة، وبعدما هبط نسل لبدة في بئر المذلّة بأيدي درّية. كان الحجر قد رآها قبل ذلك، وتعلّق بها منذ سنوات في صباح قديم وهي تحاوط بساقيها على طشت نحاسي عند حافة البحر، وقتما كانت مملوكة لعليّ أبو لبدة وبعيدة عن متناوله، قبل موت عليّ والتحاق عزيزة بخدمة درّية فيما بعد، وبعد أن تغرّبت درّية عن الغزالة في الرحلة الطويلة.

كان الحجر قد اعتاد على دخول الغزالة في يوم الجمعة، منذ أن أصبح بلا أهل وبلا سند في المناجاة، وبعد أن دخلت درّية هي الأخرى إلى دوّامة الحزن بالفقدان. كان يخرج من بيته في الصباح، في طقس محفوظ، يحمل إفطاراً في صرّة قماش، من جبنٍ قديم وخبز ذرة وقطع خضراوات، يتشارك الطعام مع درّية وأبيها المتيبّس بعد اجتماع الزمن والمصيبة عليه. يخرج من بيتها قبل الصلاة بوقتٍ كي يلحق بالجمعة في مسجد لبدة أقصى شرق الغزالة، قبل أن يعود من جديد لتناول الغذاء الشهي الذي تعدّه درية بجمال أيدٍ وحيدة ومنفردة بلا صُحبة، متلهّفة لتهِب ما اختزنته من نَفَسٍ وقدرة في الطهي لفم رفيق، بعدما أصبح الطعام في فم شيخ البيت كعلقم بلا مذاق ولا عن رغبة. وحتى خلال غياب درّية؛ كان الحجر يحافظ على معاودة والدها المُنهَك بلا أنيس ولا كتف. وفي جمعة محفورة، وأثناء مرور الحجر ببحر الغزالة -وقبل أن يتحوّل إلى ترعة الدسايس-، رأى عزيزة الجالسة بالقرب من بيوت لبدة المتاخمة لجامع البلد، ترفع الجلباب حتى فخذيها، وتغسل ملابس المخدومين. تتكشّف ركبتاها عن الجلد الناعم لرضيع، وروحه تنخطف على البياض المحسوب، وانحناءات العظام المتأنية، ورضفة قرص الحلاوة. وبجبرٍ محتوم؛ كان حيوانه يقوده خلف الغور الطفيف في منتصف الركبة والرابض بين محاولات التقاء العظام. كانت ركبة تفتّت الحجر. تتشكّل بفتنة مختلفة مع كل زاوية يتخذها مفصل عزيزة.

وفي أول أيامها في بيته؛ كان الحجر يتناولها كلعبة ما زالت تحت طوع درّية. يضعها على ظهرها فوق السرير. يتناول كعبها ويفرد الساق. يعاين الركبة، ويتفحّص انخفاضات الجلد على الجانبين. يثني الساق نحو الفخذ تدريجياً، ومع كل درجة؛ يبرز القرص بعلاقات متعددة ومختلفة مع

الأربطة وعضلات الفخذ والساق. والحجر يلهث خلف تكوينات تلسع الرغبة؛ فيهرول أمامها كحصان في سباق.

كان الحجر قد طلّق سعاد بنت إسماعيل سرور بعد أقل من شهر زواج. ضربها الحجر «علقة موت» حينما ركبت فوقه وهو نائم على ظهره فوق السرير، وتناولت ذَكره لدسِّه داخلها عنوةً. كان الحجر في هياج، يقوم مندفعاً فتطير البنت وتقع مثل زلطة متكوّمة فوق أرض الغرفة، والحجر يركل في غلٍّ ويصرخ: «يا بنت الكلبة النجسة، في فكرك أن تسحبي روحي!». وذهبت البنت في الصباح إلى بيت أبيها وحكت عن الخيبة، وعن تعلّق الرجل بالركبة عما سواها. ولمّا راح الحجر في أثرها، كانت أمها تتربّع على الأرض في صحن البيت. توقفت عن إدارة هادي الرحى، ورفعت نحوه بؤبؤي العينين متفحّصة، كأنما تعاين حجمه، بينما بقي وجهها على وضعه في جهة الهادي. قالت: «الصيت ولا الغنى صحيح. ربّنا يعافيك. واحد مثلك ولا يقدر على حقوق أهله! من يقدر إذاً! زمن العجائب! الحمد لله البنت بكر؛ وأيّ واحد يتمنّاها». أعادت بصرها إلى الأرض، أكملت من بين هرير الرحى كأنما تكلم روحها: «الناس حذّرتنا قبل الزواج ولم نسمع، وضرب وبهدلة، صحيح، ابن عزام الحجر». وظلَّ الحجر بالفضيحة وبلا زوجة، يتقلّب على ناره في الليل. كان الجوع يحرق ولا يستطيع كبحه؛ فيهيم في نواحي المناجاة وكأن جسمه شمس هائجة. يتلصّص على نساء حول ترعة السلّان وفي أسواق المناجاة والغزالة، ويحتفظ في رأسه بما حمل من رؤية طوال النهار لأشكال من رُكَب النساء؛ ثم يعود ليفكّ نفسه بين جدران الخوص في العشّة.

في تلك الأيام، كان الحجر غاطساً في زيت ثقيل داخل برميل الوحدة، راقداً فوق قاع صدئ، وفي حرمان من صوت أو نور، عطشان لأذن وللمسة

إنسان، ومن بين كثافة الانفراد؛ كان يتخيّل عنقه في حبل مجدول، بينما في الطرف الآخر من الحبل كفٌّ أنثى سائقة وممسكة بمجامع قياده، وروحه متلهّفة على الانصياع والطاعة، ومن ثم سماع كلمات الاستحسان. وفي مرة، آخِر النهار، في ناحية الغرب من سوق المناجاة، أوقفته عجوز أثناء طريقه إلى المعسل في عراشية المحطة. كانت غريبة عن البلد، تبيع بيض الدجاج في يوم السوق الكبير، والبيض فسد من الحرّ ولم يهتمّ بها أحد. وبدمع عين قديمة وشحيحة السائل، يتعرّج في المسار على أخاديد الزمن، همست في خجل وإنهاك: «جوعانة يا ابني ولا عائل لي». سنّدها الحجر وأخذها إلى عشّته. أعطى ما تيسّر من خيار وخبز مع قطعة من جبن قديم. انبسطت المرأة؛ طبطبت على كتفه، قالت: «والنبي! أنت ابن حلال ولو في يدي أخدمك بعيني». قامت، أمسكت بمقشّة أرز مُسْودَّة ومتآكلة من الأطراف لتهشّ الأوساخ إلى خارج العشّة، ويدها الأخرى تدعم ظهرها المحني، لكن الحجر تناول يدها وأقعدها بجانبه. كانت عيناه في الأرض وهو يطلب أن ينام على ركبتيها، قال إنها مثل أمّه، وهو وحده الآن في الدنيا. وببطء مفاصل يابسة، فردت المرأة ساقيها أمامه، أخذت رأسه وحطّته في رفق. نام الحجر ودسّ وجهه في فخذٍ ناشف؛ كان يشمّ رائحة خبيز مُطَمْئنة وقديمة، والمرأة تملّس عليه بأصابع مرتعشة وبجلد مكرمش، وهو لا ينقطع عن تمتمات بالشكر. يحكي عن موت أمه، وعن سواد الجدران في الليل، وعن أخواته اللواتي تفرّقن في بيوت أزواج بعيدة.

وفي اليوم التالي، كان الحجر يتقصّى في أنحاء البلد؛ يبحث عن امرأة وحيدة وجائعة، أو بائعة غريبة عن السوق في آخر النهار، يتقاول لاستئجار ركبة، وفي أحيانٍ، كان يفاوض غازية بعد ليلة في المولد، يمنح ما تيسر من

ربع كيلة قمح أو ذرة، حُقّ لبن أو بعض بيضات، يمدّ يده بالعطيَّة ويهمس بتلعثم وفي خجل وهو يتلفت حوله ليتأكد من خلوّ المجال من العيون: «سأحطّ رأسي على ركبتك. لدقائق يا خالة. وخذي بعدها ربع القمح في المقابل». تؤخذ المرأة، تعلن عدم الفهم وتستفسر عن الطلب أكثر، مُعطية لدماغها فرصة للاستيعاب، والشكّ يضرب في الرأس، وتحسّ أن وراء الأمر شيئاً آخر. والحجر يحاول الطمأنة، يحايل بأدب ويؤكد صدق طلبه. وفي أحيانٍ، وتحت سيف الحاجة؛ تقبض المرأة على وعاء القمح وتسحبه لناحيتها، بوجه جافّ تخونه لمحات من خوف، بينما الفضول يشفّ من ستارة ثقيلة أمام العين، تتلفّت حولها في قلق، ثم ترفع بيدها الأخرى طرف الجلباب؛ كاشفة عن ركبتيها أمامه في وسط الغيطان، في الخلاء، أو خلف عشّة خاوية، أو حائط صامد من بيت مهجور. وفي محاولة لتليين المفاجأة والغرابة؛ كانت تضحك كأنها على أعتاب مزحة، ضحكاً متخشّباً يحجز أمواج خوف من مجهول، وفي العين تساؤل عن سرّ الطلب، ما يلبث أن يتحوّل إلى دهشة من انكفاء الحجر، وضياعه التام فوق الركبة مع زفرات من همهمة وأنين. والحجر يلحظ نظرات خيبة الأمل في العيون، حينما تصطدم بقيام عموده الضخم وهو يفرك فيه من فوق الجلباب.

لكن ركبتي عزيزة، منذ أن صادفها الحجر على شطّ الغزالة؛ قد تولَّت خيالاتِه. أصبح يغمض عينيه فوق الركبة المستأجَرة، ويشكِّل ركبتي عزيزة في رأسه، يشمّ ويلحس ويقبِّل، ويروح في غور بلا قرار، غور من طمأنينة كالحليب، ينقطع ولا يحسّ فيه بالدنيا من حوله إلا بعد إتيانه في ملابسه، وبعد فترة من استراحة الخدّ على الركبة، وإلى أن يوقظه كفّ المرأة في لطف أو خشونة بحسب قلبها. وفي أحيانٍ، كانت المرأة تنتزعه من غور الطمأنينة، تدفع رأسه بعيداً عن ركبتيها وتسدل الجلباب على الساقين

عندما تلاحظ أو تتوهّم مروراً لشخص ما وهي تهمس محذّرة: «الناس»؛ فيصحو لاهثاً بقلب مضطرب.

كانت تضيق به الدنيا إذا عاندته ركبة عزيزة في الحضور إلى رأسه بعد محايلات؛ فيترك كيلة القمح ويقوم، متحاشياً النظر في عين صاحبة الركبة، يقضي ليلته في بكاء لائم، ما يلبث أن يُغمض عنه العينين حينما تنقره الشهوة، وتهبط صورة ركبة عزيزة على رأسه دون ملاحقة أو اجتهاد منه.

وأصبح الحجر أكثر جرأة عند الطلب، متخلّصاً من الخجل باعتياد التجربة، ومكتسباً حدّةً في المواجهة؛ من أفكار تدور لتسند رأسَه عقب ملامات مُذلّة لروحه تهاجمه في عزّ الليل؛ عندما يتذكر كلمات النساء الجارحة لرجولته بعد انكفائه فوق الركبة. أفكار تسنده بالإشارة إلى ضخامة جسده، وبوقوفه موقفَ المستأجر المانح. وتعلّم اختيار الركبة المستأجَرة من النظر إلى عيون المرأة؛ يسعى ويقايض العيون الغلبانة المنطفئة، عيون بلا حيلة. ولم تكن تعليقات النساء عقب خروجه من غور الطمأنينة بالسبب الرئيسي لانتقاء الحجر، بالرغم من تجريح روحه بسياط التعليقات التي تتهكم على رجولة مسخوطة، قبل أن يتعوّد على الردّ بالعين وبالكلمة، وبالكفّ في أحيان. لكن حرصه في الاختيار، كان في أعقاب الليلة التي قايض فيها ضاربة ودع عابرة على البلد، أخذت منه الذرة، وأخذته من يده إلى الخلاء، قعدت فوق صخرة وكشفت عن ركبتيها؛ والحجر راح في غوره تحت ليل وهواء صيف، أخذ كامل وقته من واحدة طيّبة، ولمّا أفاق؛ وجد خدّه مستنداً على جسد فأر كبير وميت، وصاحبة الودع قد تبخّرت. ظلَّ الحجر يتفّ ويتقيأ طوال الطريق إلى المناجاة، يحسّ بلزوجة سائله في اللباس؛ يتذكّر القبلات واللحس ويبكي. ولم يعد غور الطمأنينة الذي يذهب فيه الحجر بلا قرار بعد تلك الليلة، أصبح ناقصاً بحذر التجربة؛

بقعرٍ قريب ولزج، مفسداً حلاوة لحظات انكفائه على الركبة، من خلال سماحه ببزوغ تحكّمات إرادته، ماحياً للتواطؤ الحاصل، ومنافياً لخيالات رغبته في استسلام كامل، وفي ترك حرية التصرف به وبمصيره –ولو لدقائق– أمام الجبروت والتسلّط لأنوثة أمومية. ولم ينفلت جماح الحجر ثانية إلا في اللحظة التي انكفأ فيها على ركبتي عزيزة، في داره، بين قضبان حديدية على النوافذ، وقفلٍ معقود على الباب.

وحينما ملكت درّية الغزالة، لم يتوانَ الحجر؛ بادر بطلب عزيزة خلال أول زيارة، بالرغم من كونها رؤيته الأولى لدرية بعد سنوات من فراق. ولم تتأخر درية جبل؛ ابتسمت ونكزت كتفه في ودٍّ وهي تقول: «طلبك مُجاب. أنت جزء مني يا ولد. الحجر من الجبل يا عين درية».

ومنذ أول نفَس؛ التصق الحجر بالرائحة العصيّة لركبتي عزيزة. وصحيح، أنه لم يجدها تتطابق مع ما شكَّلت وتخيَّلت رأسُه عنها خلال المرور على عشرات الرُّكَب، إلا أنه أدرك اختلافها عن النساء السابقات. ولم يدرك وصفاً للرائحة المنبعثة من الركبتين، بمزيج هادر غير محدَّد؛ يقترب من رائحة باهتة لطَميٍ وتراب عند أسفل الرضفة، ويمتلئ برائحة لبن طازج في الأعلى وقرب الفخذين، وبينهما تبزغ رائحةٌ لبحر مالح. ولا تَكِنُّ روحه المختطفة في دوّامات متأجّجة، ولو بمرور السنين.

وفي النهار الذي دخل فيه عبده الأخرس إلى المناجاة وسحب خلفه النساء من الغيطان والبيوت، وهو يرفع صوته في الدروب بغناء لم يُسمع قط مثله، حتى توقف بهم ناحية سوق البلد بينما يستكمل الغناء. كان الحجر يمرّ بصعوبة عبر حلقات الرجال والنساء الملتفّة حول الأخرس؛ فقط يريد عزيزة. تدفعه قدماه خطوة إلى الأمام، ويزيحه الجمع عدّة خطوات إلى الخلف. واصطدمت عيناه بعلوان وهو يقاوم لينال امرأته من شعر الرأس،

وسميرة تبتعد عن يديه وتنفلت إلى حضن عبده، تتناول ثديها بالكفّ، تعافر من بين الخبطات والزحام لتدسّ الحلمة في فم الأخرس، تفتح فمها وتحاول القضم في شفتيه. والأخرس مغمض العينين، يرفع وجهَه تجاه السماء، وغناؤه الموصول بالسحر يربك رجال البلد؛ فتتوقف أذرعتهم في الهواء وهي تمتدّ لتخليص النساء من حوله.

كان علوان قد طال ذراع سميرة بعد تعب؛ قبض كغريق يتعلّق بصخور شطّ، أفسح بجسمه قليلاً إلى اليمين، وناوله للبرج الواقف خلفه مباشرة وهو يشدّد عليه ألا يفلته. والبرج حملها كماعز فوق أكتافه وخرج من وسط الخلق بصعوبة، وهي تقاوم وتتلوّى، وتحاول أن تتخلّص من بين ذراعيه وتسقط في الأرض.

كان الهرج سائداً، والناس كأمواج، ودفعة عكسية ألقت بالحجر أمام الأخرس؛ دفعة ترتب وتختار، وعلوان يزعق في اللحظة نفسها كأن روحه ستطلع، وهو يناضل ليخرج في عكس تيار الناس: «أخرِسوا ابن الكلب». وكأن علوان فتح له باب الغلّ؛ أمسك الحجر بحنجرة عبده الأخرس، والأخرس يحلِّق في سماوات لا معلومة؛ كأنه وحده ولا أحد، ينشد بلا تعثّر ومن روح الروح: «**إن كان جسمي عن جنابك قاطعٍ؛ فروحي نورٌ من جمالك مُدّتِ**». أطبق الحجر بيديه، وانتزعه بذراع جبّار قديم عارفة للطريقة، والنساء يتشبّثن أكثر. كان يضغط بيديه والأمواج تؤرجح؛ قدماه تتمسّكان بالأرض، والأصابع تتحجّر على العنق، كأنه والأخرس جسد واحد. كان سيّد يطبق جفنيه بقوّة عن وجه الأخرس، يتذكّر القديم ويصله في خط مستقيم باللحظة؛ فتضربه استنتاجات مفجعة لحياة مغدورة، وتهبُّ في ذراعيه طاقةُ جبال وهو يزمُّ الشفتين ويعصر العنق إلى أن توقّف الأخرس تماماً، هامداً ومنطفئاً بين الكفّين.

كانت البلد في فورة جنون وغضب، والرجال يلمّون نساءهم المتخلّية بمقاومة يائس ودموع فقدان ابن عن جسد الأخرس. هامت النساء مثل حبّات رمل مبعثرة في القرية، وشكّلت الرجالُ الريحَ التي تكنسهنّ نحو الدور. وظلّت عنق الأخرس بين يديه؛ الأخرس منتصبٌ في مشنقة، وعزيزة ما زالت منكبّة على الركبة بالدمع والتقبيل. كان غيظ الحجر كأنه أتى من حبل ذكريات يطوّق به عنق الأخرس بلفّات سريعة ومتأجّجة، وبإصرار لا يعنيه هبوب الموت مع أول لفّة حول العنق، بل يتأكّد من وصوله إلى نهاية طرف الحبل ليبرم عقدته. ولمّا نفد الحبل؛ كان يترك الأخرس ليسقط من بين يديه فوق الأرض. وبقيت جثّته في الطريق وبعيدة عن سؤال أهل البلد، حتى تكفّلتها أمّه بمعافرة. كانت كبغلة حرث وهي تسحبه من قدميه، تقطع المناجاة نحو الخلاء، وتسمع جسم الولد يخروش في الغيطان والدروب، وهي تصل به مع حلول الليل إلى المقابر. ولم يلمس الحجر عزيزة، خلع جلبابه وستر لحمها الظاهر، ثم حملها على كتفه إلى الدار.

قضتْ بيوتُ المناجاة تلك الليلة وما تلاها في عراك وقطيعة، بينما الحجر أنزل عزيزة على السرير، أزاح الجلباب، وانكبّ بأنفه فوق الركبتين وهو يئنّ ويبكي. لم يرِد على لسانه أيُّ ذِكرٍ لفعلة عزيزة طوال العمر. وامتلأت ركبتا عزيزة في تلك الليلة بسوائل عينيه عوضاً عن ريقه، بدموع لم تعرفها سوى ركبتي أمّه زينب؛ وهو يقع، ويزحف نحوها، ويلتصق بركبتيها طالباً النجدة من ضربات أبيه عزام. وزينب تحتضن الصبي المكلبش في ساقيها، وتدور بجسمها بعيداً عن كفوف عزام، تفرش ذراعيها فوق ظهر الولد للحماية، وترجو لوقف الضربات، بينما تطولها الضربات في أثناء محاولاتها لفداء الولد. وعزام مشتعل؛ يصرخ: «أنا أدور في الخدمة في الغيطان يا أولاد الكلب، وابنك يخلع جلبابه في وسط الغيط ليصاب

بالبرد. يتلكّك ليقعد في حجرك. ابن أمه». وسيّد يصرخ من بين دموعه: «الدنيا حرّ وجسمي سخن. والله سأنزل الغيط ولو بردت».

لكن سيّد كان يدرك السبب غير المعلن لضربه؛ عرفه من نظرات الرجال الساهمة لمّا بين فخذيه، قبل أن تتحوّل أبصارهم في ضيق وهمّ، ومن ابتسامات النساء في الغيط ونظراتهن المسروقة؛ حينما نزع الجلباب، وأكمل جمع لطع القطن باللباس، بينما ساقه الوسطى تتأرجح، كقطٍّ مكتوم يكاد أن يفتق اللباس. وحينما كان يقبض على فتحة الجوال الخيش في يده؛ بعدما امتلأ الجوال بقطع ذات لطع صفراء وبيضاء من أوراق القطن، ويناوله لسعدية الفولي لتضعه في حفرة خارج الغيط وتقوم بحرقه مع جوالات أخرى. مدّت سعدية كفّها خلال فروع القطن وكأنها تأخذ الجوال، ولكنها قبضت على ذكره وضحكت بميوعة وهي تدسّ كفّها الأخرى في فمها. همست بحياء مصنوع ليغلّف ضرب شهوة: «يا نهار أبيض! ولد يا سيّد! من أين جئت به؟». التفتت ونظرت إلى الخولي عزّام الواقف في وسط الغيط، ثم أشارت بالأصابع إلى ما بين ساقيها وأكملت: «من أعطاك يعطينا».

ولكن سيّد لم يعرف أن الغيرة وراء غشومية أبيه إلا بعد سنوات من العقاب. وعرف أن عزام لم ينل مثل الذي بين فخذيه؛ حينما كان يتلصّص على جسد أبيه وهو ينزع جلبابه وينزل إلى الترعة، فلا يرى سيد ثوراً ولا قِطّاً في اللباس. وعندما يختلس نظرات إليه وهو يقف داخل الطشت في دارهم، بينما عيون عزّام مغلقة وهو يستحمّ بالصابون والليف؛ كان سيد يجد دودة صغيرة منكمشة. وظلَّ سيّد يقارن منذ أن قبض الولد عبده الأخرس على ذكره أثناء التحامهما وهما يلعبان الحُكشة بجريد النخل؛ حينذاك برّقت عينا الولد وهو يقول: «يا الله! كبير يا سيّد. أيّ واحدة

تساعه؟». كان الولد مستغرباً؛ يتحسّس حجم عضوه، يضغط عليه، يبرزه من تحت الثياب ويقول: «هذا العادي مثل بقية خلق الله. أنا والعيال شفنا بعضنا في الترعة». كان سيّد يبتعد وينتر كفّ عبده عن جسده. وعبده يشير إلى ذكَر سيّد ويقول بإعجاب لا يخلو من غيرة: «رأسه بعد الفرك ستكون كرأس القط بحاله. الله يكون في عون أمّك زينب، لازم ذكَر عزّام كرأس ثور». ضحك عبده وأكمل: «المناجاة يمكنها أن تنام في فتحة أمّك زينب، لازم تكون واسعة كغيط من دخول الثور».

كان سيّد يلاحظ عيون عزام المنصبّة دوماً على غصنه، بينما يزجر ويضرب لأسباب بعيدة. وسيّد يكبر، يتخطى عزامَ ويمتد من جميع الجهات. يراه من خلال مساحة مكشوفة بين ستار الكنيف والجدار، وهو يتناول ذكره ويحاول أن يقيسه بالأصابع، ويشكّ في نسبه إلى ذلك الضئيل مقصوص الرجولة. ويسمع محاولات عزام الخائبة ليلاً أمام حوض زينب، وهي تهمس بضيق أنه نائم ويفرك في الخارج؛ وعزام يتعلل بالشقاء طوال النهار، يشتم بخفوت ويلعن عدم الفهم. ينام رجل البيت مخذولاً؛ ويصحو كجمرة نار تحرق من تطوله في البيت.

ولا ينسى سيّد تلك الأيام المتعاقبة على خذلان عزام المتجدد أمام حوض زينب؛ فنظرات زينب، وكلماتها المتناثرة، والروائح المنبعثة في الدار، حفرت خطوطاً بإزميلٍ في ذاكرته. كان عزّام يتناول قِطعاً من الحلتيت بعدما نصحه به إمام مسجد القط الشيخ عمر أبو حلاوة لتقوية القدرة. لكن معدة عزام لم تحتمل؛ تقيّأ ما في بطنه ووجهه يصفرّ ويحمرّ، وهو يصرخ في أهله من بين شهيق أنفاسه: «أنجدوني، أموت يا عالم!». وأشار عليه الشيخ عمر بحرق الحلتيت في المنزل لعدّة أيام، بدلاً من أكله ما دامت البطن لا تحتمل. كانت رائحة دخان الحلتيت كريهة بما يكفي

لتطرد الجان والعفاريت من المنزل، وتفكّ السحرَ والأعمال. لكن الرائحة كانت تجعل سيّد يخرج جرياً من الدار؛ ليفرغ ما في بطنه أمام البيت، بينما ظلَّ فشل عزام مستمرّاً في الليل. جرّب عزام تناول شحم سقنقور وشمع نحل مخلوطاً بطلع فحل النخل. وضع الطرف الحديدي لمنجل الحشّ داخل نار الفرن، حتى احمرّ الحديد وتوهّج. أمسكه من المقبض الخشبي ودخل به إلى الكنيف. كان عزام يتبوّل فوق الحديد الساخن ليفكّ السحر؛ ورائحة بخار البول تهيّج صدور أهل البيت وتنغّص العيشة لعدّة أيام. وأخذ بيضة من ساحر في البلد، مخطوط على قشرتها طلاسم بخطوط حمراء في مربعات، وضع البيضة بجوار الخبز على الصاجة في الفرن المشتعل، ثم أمسكها وكسر القشرة وأكل نصفَ الصفار، وأعطى زينب النصف الآخر. وفي مرّة أمسك سيّد من يده، قال: «ادخل وشُخّ في الكنيف». وقفت زينب وهرعت لتسدّ مدخل الكنيف، قالت بتوجّس: «مالك ومال الولد؟». ابتسم عزام بلزوجة: «اتركينا أنت في حالنا». أمسك يدها وأزاح جسمها من أمام المدخل. وفي الليل، كانت زينب تبرطم بالكلام وهي تتمدّد بجواره، تهمس في غيظ: «يا شيخ حرام عليك، أين تروح من ربّنا لو أصاب الولد ضرر!». وعزام يتودّد ويحاول القُرب، يضحك في خفوت: «خيره كثير. وأنتَ ومالكَ لأبيك كما يقول سيدك النبي». تستدير زينب وتعطيه ظهرها: «رُح يا أخي، منك لله. تقرأ السحر وتشخّ فوق شخّة الولد. حرام أذى الغريب، فما بالك بالضنا؟!».

ولم تُشكِّل تلك الكلمات التي تشير إلى أنانية وغيرة من جانب عزام أو إلى نيّته في أذى الولد وجعاً أكبر من طاقة سيّد على التحمّل كلّما مرّت بالذاكرة، لكن وقوف عزام المتذلل وبتودّد لزِج أمام زينب عقب كلّ محاولة لإصلاح رجولة مخذولة؛ كانت تُشعِر سيد بحرج وكسوف متقزّز، حرج

وكسوف يعاندان انقضاء الزمن، ويحطّان في روح سيد كلما قامت الرؤية من الجزء المُوجع في ذاكرته. والغريب، أن كسوفه لسقطة أبيه القديمة كان أكبر مما يحمله لسقطاته هو نفسه، وحتى الحاضرة منها، والبادية للعيون، والأعتى من سقطات عزام، يمكن لأن سقطات أبيه كانت تحمل الإشارة على نقيصة راسخة فيه، ذات أصل، منتقلة من خلال رباط الدم، وليست –كما أحب أن يتوهم– زلة عابرة، يتقبلها تحت دعوى استطاعة التخلص منها متى أراد، وهو يشعر بحقِّ الأبوة –فقط– في تلك اللحظات التي تتبدّى فيها سقطة أبيه من الذاكرة وتتماس مع شبيهة لها في حاضره. كان سيد يعاين كل حلقة من تجارب عزام، وهي مدفوعة بنشاط وبهمّة أمل مختبئ ومتحرّق للخلاص والعثور على نتيجة، وما يلبث ذلك الأمل أن يطفو مُطلّاً من عيون عزام في الفاصل بين انتهاء جهد التجربة وانتظار النتيجة. أمل حفظ أهلُ البيت ملامحَه، ويعرفون أنه ولد ليموت أمام أول خروج إلى هواء العالم، ويستعدّون لمّا وراءه بتوتّر المُنْتظِر للعاصفة، بينما عزام هو الوحيد الذي لا يصدّق موت أمله؛ يظل مستمرّاً في دسّ الطعام في فم الميت بتجربة إثر أخرى، تتفتّح عيناه على الموت في الفاصل بين محاولتين؛ فتحسبها روحُه فقداناً للوعي لا يحتاج إلا المزيد من الغذاء والإنعاش لوقوف الأمل على القدمين كحقيقة. كان عزام يهرب من وسط العمل في الغيط ويرجع متلهّفاً إلى الدار، يستعجل مضاجعة زينب ليعاين ما أسفرت عنه محاولته للاستعادة، ويوشوش بكلمات بالقرب من أذن زينب، وهو يبتسم بتزلّف وإحراج. وملامح زينب تنقلب إلى استنكار ونهر، وهي تشير إلى ضوء الشمس، وإلى العيال حولها، وإلى تعب جسمها. وكتف عزام تتهدّل أمام الرفض، والابتسامة اللزجة المتذللة تتحوّل إلى خيبة واهتزاز. ينسحب الأملُ من العين مختبئاً في ركن مظلم

في الروح؛ وما يلبث عزام أن يرتدي جلباب العنف لمواراة سوءة منكشفة لعينيه، ويتحوّل إلى حجر رحى يطحن قلوب عياله ومن يعملون تحت إمرته في الغيط.

أصبح عزام يخيط لسيّد سراويلَ فضفاضة من خيش؛ يلبسها أسفل الجلباب، تهري جلده وتعذّبه. ويلسعه بالكفّ كلما خلع جلبابه ليخفّف حرارة جسمه في عزّ الصيف، أو أراد أن يبدل ثيابه ويستحم. يحمرّ وجهه ويصرخ فيه: «استر روحك يا ابن الكلب؛ البيت فيه حريم». وحينما تتدخل زينب بكلمات للتهدئة ولترك الولد في حاله؛ كان غضب عزام يزيد، يهرول وراء سيد ويكسّر على جسمه جريدة نخل، وهو يهدر من بين الضرب: «مبسوطة يا بنت الكلب؟». يطول زينبَ نصيبٌ من الضرب وهي تنجد الولد البارك عند قدميها. وعينا سيّد تحتميان بركبتي أمه من العالم، يلفّ ذراعيه حول ساقيها، يطوّق، وروحه متقطّعة بين فزع خلفي وأمان أمامي. وحين ينقضي الضرب؛ يشتمُّ رائحة الأمان الطيبة على ركبتي زينب من بين دموعه؛ ويشعر بالقيام المتمهّل لسرّ بلوته.

وظلت محاولات عزام للنجاح أمام حوض زينب مستمرّة، بأمل متجدّد يتقصّى كلّ طريقة. وكلّما خانه الجسد؛ كانت يداه تسعفه في أجساد أهل البيت. وحتى الصباح الذي راح فيه إلى النخّاس وأقنعوه بحجامة الذكر لإخراج الدم الفاسد؛ وعاد في وقت العصر إلى المناجاة، نازفاً من شريط لجرح طولي في رجولته، وملابسه وكفوفه مليئة بالدم، وجهه أصفر، ومستنداً بذراعيه على أكتاف الرجال. وزينب تنزع ثيابه وتكبس بالبُنّ، تحيطه بالكفّ وتقبض بقوّة. كانت تهشّ سيّد إلى خارج الدار من بين جزعها، وسيد يراها تعتصر وتسحب روح عزام من ذكره. حتى انطفأ أبوه في الليل؛ سكن، أغمض عينيه، ومال برأسه على الحائط.

كان تعب الجسد يعمل كمصفاة؛ يصطاد ذكريات خشنة ومدبّبة من رأس الحجر، ويحطّها أمام عيونه، بينما يقف أمام داره منكمشاً على نفسه وهارباً من زنّ عزيزة. كان يرى ملامح أبيه المستسلمة في آخر اللحظات وهو يجلس مُفرشخاً على المصطبة المواجهة لباب الدار، رأسه إلى الوراء على الحائط باختلاجات الألم، وتفاحة آدم تعلو وتهبط. كانت زينب منكفئة على الأرض بين الساقين وتجاهد، ومحاولات يدها الضاغطة لا تسفر إلا عن آهات وجع وسحب الروح من الإير. وعندما انزلق حلّاق البلد إلى ساحة البيت من بين الأجساد المتجمّعة حول الباب، والعيون المطلّة على الفضيحة وعلى نصف أبيه العاري؛ مدّ الحلاق بصره من فوق رأس زينب وعاين مكان العلّة بارتباك، ويداه تتأخر قبل أن يضع صرّة قماش على المصطبة بجوار أبيه، يفكّها ويفرش فوقها عدَّته ببطء وبتحرٍّ غريب للنظام. ولا ينسى سيد ما قاله علوان بعد الدفن وخلال طريق العودة من المقابر، عن الرجل الذي قرصه الثعبان في طيزه وهو يتبرّز في الخلاء، ومات لأن الناس قرفوا من مصّ السم من طيزه. كان علوان يضحك، ومعه تضحك المناجاة العائدة من المدافن، وسيّد لا يفهم كيف يواصلون الكلام ويكونون كما كانوا، بينما غبار المدافن ما زال ملتصقاً بالثياب.

أطبق سيد جفونه بقوة، كأنما يغلق الخروم التي انسابت منها الذكريات.

وحين فتح عينيه على الغيط ببطء؛ انكشفت أمامه خيالات لأحد عشر رجلاً يلبسون جلابيبَ زاهية؛ كحلية ورمادية وزيتية، بعِممٍ بيضاء على الرؤوس، ويحيطون الأعناق بشيلان خُضْر. يجلسون في نصفِ دائرة فوق عشب أخضر نديّ، تنساب بكارة رائحته إلى الصدور. تنبت في ظهورهم أجنحة عملاقة من ريش أبيض. عيونهم اليمنى مطموسة، بينما يخرج من اليسرى شعاع نور يضيء ما حوله. وأمامهم يجري الماء رائقاً في حوض

واسع، قاعه من مرجان أحمر. يترنّمون باللطيف العالي، وحولهم يتجمّع مئة من المأذونين، في ثياب بيضاء وعمائم، يطوفون بالخدمة، لا يمسّون مقعداً، ولا يتحرّقون لِحُلُول. وفي منتصف الدائرة، ربابة وطبلة، معلّقتان في الهواء بلا أيدٍ، تُطربان من دون عازف. والهواء ينشقّ عن نبيذ مصفّى يسيل إلى الأفواه؛ كلما فتح واحدٌ من الجالسين فمه ورفعه إلى الأعلى.

انقطعت الصور فجأة عن عيونه؛ والحجر يفيق على حفيف هواء كيهك[1] وهو يمرّ بين رؤوس براعم القمح.

نفض رأسه، تلفّت حوله في ظلام ممتدّ.

ردّد تائهاً: «أين جناحاك يا حجر!».

*****

(1) كيهك أو كياك (11 ديسمبر – 8 يناير): رابع الشهور المصرية القديمة المرتبطة بنجم الشعرى اليماني. مشتق من التعبير «كا–حر–كا» أي قرين مع قرين. ومعناه: عيد اجتماع الأرواح عند الفراعنة. ولا تزال تلك الشهور تستخدم في الريف المصري لمعرفة مواعيد الزراعة والحصاد.

أمسكت عزيزة بكوزٍ من صفيح، ملأته من زيرٍ ملاصق للجدار على يمين باب البيت. كان الزير مرتفعاً عن الأرض ومغروساً من قاعدته في فتحة حاملٍ خشبيّ له أربع قوائم، وأسفله -على الأرض وبين القوائم الخشبية- سطلٌ فخاري ممتلئ بماء مُرشَّح يقطر من قاعدة الزير. رفعت الجلباب عن ساقيها، أخذت طرفه تحت الإبط، خطت إلى داخل طَشت نحاس واسع أمام مدخل الكنيف، وصبَّت المياه من الكوز فوق الركبة بينما تنحني وتدلّك الركبتين وما أسفلهما باليد الأخرى. كان القرف يتسلّل من ملامح الوجه نحو الذراع؛ فتفرك الجلد في عنف. تركت طرف الجلباب لينسدل على الساقين، خرجت من الطشت واضعةً قدميها في الشبشب. انحنت، حملت الطَّشتَ وطوّحت المياه حول فتحة الكنيف، ثم علَّقت الطَّشت من حافته على مسمار بارز بجوار الشبّاك، في الحائط المحصور بينه وبين مدخل الكنيف، وأعادت الكوز ثانية فوق الخشبة. استدارت نحو غرفة النوم، أمسكت الطرف السفلي للستارة المربوطة في مسمارين متقابلين أعلى مدخل الغرفة، ومسحت بها المياه المتبقية فوق ساقيها. التفتت، خطت تجاه الشبّاك على يسار باب الدار. ومن الدرفة الموَارَبة، ومن خلف أسياخ حديد متعامدة على فتحة الشبّاك؛ ألقت نظرة على ظهر الحجر الواقف في الخارج أمام الباب، وبصره شاخِص في الغيطان. أمسكت بأعناق القلل الموزّعة في صحن معدني فوق حافة الشبّاك، حملتها ورصصتها على الأرض أمام الزير. رفعت السطل الفخاري

الممتلئ بالماء المرشّح، وصبّت الماء من السطل إلى القلل وأعادتها إلى الصحن فوق الحافة. أمسكت بالمصباح الجاز من جوار القلل، نزعت زجاجة المصباح وتركت قاعدته على الحافة، وتناولت خرقة من الأرض. مدّت أصابعها بالخرقة ومسحت الهباب من السطح الداخلي للزجاجة، ثم ركّبت الزجاجة على القاعدة، قبل أن تتناول المصباح وتدخل إلى الغرفة. أعادته فوق الطاولة الجريد. نفخت في الفتيل من خلال الفوهة الزجاجية، ثم اندسّت في السرير وتمدّدت.

كانت عزيزة تتقلّب والنوم بعيد؛ أحسّت برأسها يتوهّج بالرغم من ثقل الأطراف. وظلت تصطدم برؤى مستقبلية؛ تشاهد خلالها النخل وهو يتدحرج ويهدم الدار فوق رأسها. ورأت نفسها محشورة أسفل الحجارة، وصدرها يجاهد لالتقاط نفس، وسخونة دم لزج تنساب فوق الجبين والوجه. ومنذ أن تناقلت المناجاة مشاهد الدهس، وقابلت النساء الخارجات من المناجاة في الصباح خلال طريقها إلى ترعة السُّلان؛ وهي تحسّ بين حين وآخر انكتام الهواء من حولها؛ فيستطيل عنقها وهي ترفع وجهها إلى الأعلى بحثاً عن نفَس واحد تلتقطه، وهي تدلك صدرها وتشهق بقوة، وأمامها تتمثّل صورة جسدها تحت نخل متكالب. كانت تتشنّج وتفتح فمها إلى آخره حتى يلج الهواء إلى الصدر؛ ثم تدخل بعدئذٍ في فورة من عياط لا تحسّ فيها بطبطبة الحجر ولا غضبه.

وحاولت أن تنبش عمّا يطمئن؛ كأن تروح بفكرها في حديث القطيفة مع الساكتة، وفي غرفة درّية وزيارة قبرها المزركش. وجاهدت لترمي بالها في سلامة عائلة أبو لبدة، أو في القِلّة الذين نجحوا في الهرب من أمام النخلات في الغزالة. وفي الظهيرة وهي وحدها في البيت، وأمام الفرن الطيني بعد عراكها مع الحجر، كان ما في عقلها يفلت إلى اللسان؛ فتردّد

نائحة: «والنبي كنت طفلة حينما هججت يا عمِّ فوزي مع النخلات، والحجر لم يقف في وجهك أبداً يا صاحب النخل، نحن غلابة ونريد العيش يا سيدنا». تهدأ لدقائق قبل أن يرجع الفزع ويركب من جديد؛ حينما تفكر في بسطاء الغزالة الذين دهسهم النخل ولم يفرِّق؛ فالنخل لم يلمس أبناء أبو لبدة لأنهم أصحاب معروف مع فوزي وعديلة، ولكنه ضَرَبَ الساكتين مثل الظالمين في الغزالة.

في الصباح أرادت الخروج من المناجاة، أن تلمَّ ما يمكن وتركب القطار من محطة الغزالة إلى نهايته. كانت تطوف في أنحاء الدار؛ تحشر ملابسها بيدين مرتبكتين في صرّة قماش، تقفز خلف الدواجن وتضعها في قفص خشبي، وتُخرج جوالات قمح إلى خارج الدار وتسندهم إلى الحائط جوار الباب. ترجو سيّد وهي مشتتة في مهمّة الجمع: «أبوس يدك نخرج من هنا. الكل يخرج إلى الجبل. لن يلاقي النخل سوانا في المناجاة يا سيد». لكن الحجر ظلَّ متيبّساً ولا يقبل بفكرة الخروج. كان يدور وراءها؛ ينتزع الصرّة من يديها، يعيد القمح إلى الداخل، يُخرج الفراريج من القفص وينشرها فوق أرضية البيت، يحلف عليها الأيمان بالسكوت، وعيناه تتجنّبان مجال بصرها، في حين يحاول أن يملك نفسه ويُطمئنها بهمسات ويطبطب. وعندما تصدّ محاولات الطمأنة بفزع المنقطع عمّا حوله وغير الواعي، وتكمل صائحة: «نقعد لمن! لا ناقة لنا ولا جمل»؛ كانت طاقته تخبو وغضبه ينفلت؛ ينكز كتفها بأطراف أصابعه والبيت يرتجّ بصوته. قال إن علوان طلب العساكر، وأن فوزي قضى أكثر من عشرين سنة حتى يجمع النخل الذي دهس الغزالة، وجُلّ جيشه قد راح وتحطّم هناك، وأمامه الكثير ليجمع غيره، وحتى لو دخل؛ فإن الحجر يفضّل الموت هنا، في هذه الدار. تربّعت له عزيزة على الأرض ولطمت: «يا ريته كان الموت.

العذاب في كل هَيْص وصوت أسمعه أو أتصوّره». كانت تحترق وتقول إن أهل الغزالة أحسن حالاً؛ أتاهم الموت في عزّ الذهول بلا مقدمات تُرعب.

وظل الحجر ناشفاً أمام مناحتها. وقفت وأمسكت يديه، عصرت بأمل أخير، وكأنها تحاول إيقاظه. قالت: «لا الدار دارك ولا الأرض أرضك يا حجر. الأرض للساكتة. أرض حرام ونحن فيها. يا سيّد أنجد نفسك وأنجدني. أنت ما عشت في الغزالة أيام درّية حتى تعرف الموت، وتبصّ على الجثث حولك في كل ساعة». نزع الحجر يديه وخرج من البيت. ظلت هي واقفة تقبض في يديها على الهواء وتبكي. تطبق جفونها وتتذكر رعباً قديماً ما زال يسرح في جسمها. فحتى بعيداً عن الموت، فإن الغرابة التي لازمتها في الغزالة قبل أن تمنحها درية للحجر كانت ككابوس ثقيل، تخاف عزيزة تكراره، ويبدو معه الموت راحة.

كانت عزيزة فيما مضى تخدم في بيوت أبو لبدة، في سنوات عزّهم، كانوا أسياد الغزالة قبل أن تنتزعهم درية جبل وتلقي بهم تحت أقدامها. عاشت الغزالة أياماً مُرّة بعد تولّي درّية، وقبل أن يبسط أهلُها كاملَ سلطانهم بالعدد والعتاد. وفي فجر كل صباح، وبعد أيام الشَّربة الأولى، كان الرجال من أولاد جبل يتجمّعون أمام دار درّية، الدار التي خدمت فيها عزيزة، والتي كانت ملكاً لعلي أبو لبدة قبل أيام من الشربة. يقف رجال جبل متحفّزين ومسلّحين بما أخذوه من أولاد أبو لبدة، وحولهم يتناثر أهل الغزالة والدوابّ والطير، ما بين واقف وجالس وممدّد على الأرض منذ الليلة السابقة، عيالهم يبكون في أيديهم من الجوع، والتعب يضرب الوجوه من انتظار بلا نوم. تُسْمَعُ رفعة المزلاج وينفتح الباب، تهبط درّيّة على سلالم الدار الحجرية، بينما ترفع بيديها ذيل الجلباب عن الأرض، أنفها الطويل في السماء، بأرنبة مستدقّة ومنخرين ضيّقين، وفوق جبهتها

العريضة البيضاء وشم لسيف أزرق، وعيناها الواسعتان مكحولتان بخطوط عريضة كأنما تحاوطان لدرّية على العالم، أسفل حاجب أسود كثيف ومقوّس، وحول بؤبؤ عسلي خاطف، محاط بصفاء بياض كالقمر، وجهها مربّع والفكّ عريض، بغمازة تشقّ الذقن، والأساور تلمع في المعصمين، والكردانات ترقص حول الصدر الرجراج. تتعلّق الأنظار بدرّية، يعلو الصراخ وتمتدّ الأيدي تجاهها برجاء مهيض، والطير يرفّ، والبهائم تشرئبّ. يحيط الحرس بدرّية وتمضي برفقتهم؛ سيدة الغزالة في المنتصف، بخطوٍ راكز متمهّل؛ يناسب عجيزتها الممتلئة وفخذيها المُلْحِمين.

يتحرك الموكب من أمام بيوت جبل الجديدة المطلة على النهر في أقصى الشمال الشرقي، والتي أخذوها بعد حكم درّية، وبعدما نقلت أولاد أبو لبدة إلى العشش في الغرب بجوار المصرف. يعبرون القنطرة الخشبية فوق ترعة الدسايس، ينزلون في أول طريق البلد الرئيسي من جهة الشرق، بعد ذلك يقطع الموكب الغزالة غرباً عبر طريق البلد وبمحاذاة ترعة الدسايس القابعة على يمين الموكب، وخلفهم أهل الغزالة، بين من يهرول ويزاحم الخلق، ومن يتنقّل على يديه وركبتيه مثل البهائم، ومن يزحف على البطون فوق الأرض خلف خطوات درّية، يلعقون التراب الذي وطأته قدماها، بينما بهائمهم تدوسهم وتعبر فوقهم للّحاق بالموكب، والدواجن ترفُّ وتتخبّط في السيقان، والزرع يتمايل في الغيطان المحيطة بجانبي الطريق، يكاد ينخلع أو ينكسر من جذوعه؛ ليحُفَّ بما تخلّف من لمسات درّية.

يركض بعضهم ويمرّ من جانب الحراسة، يسبق الموكب، ثم يلتفت وينظر إلى درّية، يمدّون الأيدي وينادون عليها بنظرة واحدة، يشقُّون

الجلابيب ويصرخون، يلطمون الوجوه ويهيلون التراب فوق الرؤوس، يخربشون الأجساد ويعضّون أيديهم. يفور من تركّزت الشربة في دمه أكثر من غيره؛ فيرتكز على الأرض مثل كلب بائس أمام الموكب، ويخبط رأسه في الأرض عدة مرات، بينما ينظر بين كل خبطة وأخرى نحو درية، دمعه ومخاطه يسيلان في خيوط إلى التراب حتى ينزف ويفقد الوعي. والموكب يمرّ إلى جواره، ولا أحد يسعف أو يمنع، الكلّ مشغول بالرؤية؛ وحتى عندما أمسك علي أبو لبدة بالمنجل وغرسه في بطنه في أول يوم لموكب درية، بينما يقف متشنّجاً أمامها، عارياً، يبكي ويصرخ، في شوق محروق، ويشدّ المنجل من أسفل البطن إلى صدره، وأحشاؤه تقع أمامه، لم يلتفت إليه أحد، ولم يلمّ جسمه من الأرض إلا رجال جبل وقرب العشاء، وقد ساروا به إلى خلف البيوت الجديدة لعائلته، طرحوه في حفرة، وأهالوا عليه التراب دون شاهد أو صلاة.

لم يكُ عليّ آخر قتلى أبو لبدة في الأيام الأولى لولاية درية، تبعه مئات من عائلته ومن أبناء البلد، تناثرت جثثهم في أنحاء الغزالة؛ بين من أفرغ بطنه بمنجل أو سكين، ومن أحاط عنقه بليف النخل وعلّقها على أفرع الشجر، ومن رمى روحه للغرق في بحر الدسايس. وحتى الفالت من قطيع غرام درية، لحقته رصاصات أولاد جبل وخناجرهم؛ وامتلأت مقابر المجاهيل بقبور بلا شواهد أو أسماء؛ تكفّلت -بعد ذلك- بمرور جميع أبناء أبو لبدة في مواسم الزيارة على قبر تلو الآخر للدعاء والقراءة، دون معرفة صاحب المكان، بعدما زال ماء درّية من الأجساد.

عزيزة أيضاً كانت تجنّ أمام بيت درّية، تتمدّد على الأرض لأيام، بجلباب مهترئ ومتسخ، تفرش ذراعها على الأرض ورأسها فوقها، منهكة وعلى حافة الموت، لكنها تقف مثل النخلة مع طلوع درية من الباب،

وتدخل السباق المحموم خلف مشوارها الصباحي. تنثني على الأرض جوعاً كي تسمح لها درّية أن تَمسّها أو تشمّ رائحتها، تقفز على أربع مثل الكلب وراء خطوات درية، تتشمم وتُقّبل آثار الأقدام التي تركتها السيدة، بينما حرّاس درية يتناوبون الضرب بالأيدي والعصي على المُغبّرين، ويدفعون لإبعادهم عن السكة. وأبناء الغزالة يلتفّون ويغافلون الحرس، ويعودون على الأيدي والأرجل، يسابقون البهائم خلف درّية.

يصل الموكب إلى أول التفريعة القبلية، التي تخرج من ترعة الدسايس من أمام سوق البلد، وتمضي في اتجاه عشش أبو لبدة الجديدة. يتجه الموكب جنوباً بمحاذاة التفريعة حتى منتصفها، دون المرور فوق القنطرة الثانية التي تعبر فوق التفريعة وتصل طريق البلد بمحطة القطار. يتوقف الحرس، وتتشكل دائرة محكمة تمنع الرؤية أو الوصول، ظهورهم لدرية ووجوههم للحراسة. ودرية تخلع المداس على الشطّ، ترفع طرف الجلباب المزركش؛ وتكشف عن ربلتين أخّاذتين ببياض شاهق، وحول كاحلها خلاخيل الذهب. تنزل بهدوء في ماء التفريعة؛ كأنها تخشى على الماء أن ينكسر، وكلّما أوغلت؛ كشفت الجلباب عن اللحم أكثر، والجنون يضرب في المتابعين، يحاولون اختراق الحصار، والوصول إلى مشاهدة من بين الأجساد الحارسة. ودرية تلتفت نحو الهياج؛ كأنها تلاحظه لأول مرّة، تشير بكفٍّ مُحَنّى، تصيح على الجوعى بالسكون والصمت؛ فيثبت الكلّ كتماثيل بلا حركة، وتخرج منهم أصوات بكاء مكتومة. قبل أن تستدير درية مرة أخرى وتقرفص في الماء، تبول، وتفرغ مثانتها في الماء الواصل إلى بيوت أبو لبدة وإلى مزروعاتهم وبهائمهم.

ظلّت كامل البلد تشرب من بول درية لستّة أيام متتالية، كانت تنزل فيها من الجبل البحري قبل الفجر، منفردة، تدسّ بولها في الماء، عند منبع ترعة

الغزالة من البحر الكبير في الشرق، قبل أن يتمكن ماؤها من القلوب؛ وتأمر أهلها بالنزول إلى الغزالة من جديد.

كانت الأحياء تهيم على وجهها خلال الأيام الستة، في الدروب والغيطان، وبلا تفرقة بين الليل وبين النهار، يسحبهم شوقٌ مُمْلٍ. واشتمَّ بعضهم رائحة درية في ماء الغزالة؛ فأسرعوا منكفئين على الترعة والقنوات، ينهلون منها حتى الإعياء والقيء، ويصل البعض إلى انفجار البطن؛ فينقلب على ظهره بجوار مجرى المياه، إلى أن تناول جثثَهم المتعفنة أبناءُ جبل بعد النزول.

وكلما تركّز الماء في الدم؛ وجدت درّيّة صعوبة في النزول من الجبل والعودة خلال الأيام الستة، وزاد المتتبعون لرائحتها. وفوجئت درّية في اليوم الرابع بالذراع التي تكلبش وتحيط بها من الخلف في الظلام بينما تقرفص وتتبوّل في أول ترعة الغزالة. وأحسّت بقبلات تنهمر على ظهرها ولسان يلعق في العنق، وهي تحاول أن تنتزع اليدين في صمت لا يُلحق بها المزيد من المتتبّعين، حتى بدأت تحسّ بعضّات مؤلمة وكأن المحبّ الهائج يكاد أن يأكلها؛ فنهتْه بغضب وهي تأمره بالجلوس ككلب على الأرض. وتبيَّنت في الظلام الوجه المتلهّف والملتاع للبنت حميدة، التي تخدم أيضاً في بيوت لبدة القريبة من منبع الترعة. وكاختبار لمّا سيأتي ورغبة في معاينة لنجاح نفاذ مائها في الأجساد؛ أمرتها درية بالقفز في البحر الكبير، دون إصدار صرخة أو كلمة واحدة، والبنت تمتثل؛ تغطس وتروح مع التيار.

أصبحت درّية بعد ذلك تحيط كامل جسمها بطبقة من الطمي، قبل الهبوط من الجبل نحو ترعة الغزالة. بينما لم تفلت من حيوانات البلد، التي تتبّعت وصعدت إلى الجبل، وأحاطت بدرية منذ اليوم الثاني أينما راحت داخل شقوق الجبل.

وفي الصباح السابع؛ أحاطت بها البلد مع أول خطوة من أقدامها إلى داخل الحد البحري للغزالة، في بداية عرض مهلك لجنونٍ استمرّ لشهور قاسية؛ أخذت فيه درية السلاح والبيوت من أولاد لبدة وناولتها إلى أهلها، جمعت أفراد لبدة وحراستهم وخدمهم في صفوف طويلة في وجه الشمس وأمام البحر الكبير، وسقتهم واحداً بعد واحد شربة مباشرة من بولها، يمرّ به أولاد جبل في قُلل فخارية على الأفواه، لكل روح شربة لا تزيد، بعدها تُسحب القُلَّة بخشونة من فوق الشفتين، بينما تُركت نصف قُلّة بين يدي عليّ أبو لبدة، الذي شاهدته عزيزة يشرب بلهفة، ويقلب القلة حتى آخر قطرة، يلعق فتحة القلة بلهفة ظامئ، ومن حوله أيادٍ متشابكة وملهوفة تمتد من الصف، تشدُّ ذراعيه وتحاول خطف القلة الممتلئة من فوق شفتيه. يلقي عليّ بالقلّة الفارغة على الأرض؛ والصفُّ ينهار وينكفئ حول قطع الفخار المتكسرة، يتجاذبونها ويلحسون بواطنها، بينما عليّ يخترق الحرس في هياج، يقعد تحت قدمي درّية، أصابعه تتشبّث بربلتي ساقيها وهو يبكي. ومن بين محاولات الحرس لانتزاعه، تومئ لهم درّية بتركه على حاله، تنزل وتقرفص مقتربة من وجهه، تتأمل فيه للحظات، تنفض الغبار عن جبينه وتتخلّل بالأصابع شعراتٍ شعثاء في رأسه، قبل أن تنتصب كنخلة شامخة من جديد، بينما شفتاه تنهمران بالقُبَل ولسانه باللحس على أقدام درية، إلى أن يلتقط إصبع قدمها الكبير في داخل فمه، وينام على جانبه كرضيعٍ بجسم مقوّس، ظهره للصفوف وهو يمتصّ الإصبع ويروح لهدوء وطمأنينة.

كانت البلد تروح، لا رعاية لأرض ولا طعام لبهيمة؛ فحصرتْ بولها في التفريعة القبلية الواصلة إلى عائلة أبو لبدة لمدة عام كامل، تمكنت خلاله من ضمان السلطة، والتمتّع بانكسارهم وامتثالهم اللامحدود للخدمة.

كانت عزيزة لا تعرف قبل ذلك درّية إلا كاسمٍ منسيّ، امرأة جميلة في الغياب، تتناولها ألسن الغزالة بحكايات تختلف حسب القعدة والأشخاص؛ ففي الليل وحول راكية المعسّل، يحكي رجال عن اختطافها من جنّيّ حينما شاهد الوردة بين لبن الفخذين وهي تستحمّ في ترعة الغزالة. ويعضّ أحدهم على شفته السفلى معلناً عن حقّ العفريت، ويقسم أنه شهدها وهي تستحمّ، وعندما لاحظته ابتسمت بكسوف ووارت بساعديها اليمامتين، بينما بقية المجلس يستفزّونه بإعلان كذبه؛ في مطالَبة خبيثة بمزيد من الوصف. وأحياناً؛ كان أحدهم يقسم بصوت هامس وهو يتلفّت حوله، على احتفاظ الحاج علي أبو لبدة بها لنفسه وبرضاها في حجرة تحت الأرض لا يملك مفتاحها إلاه، بعد أن أغوته ليترك بقية أقربائها أحياءً بعد الحادثة. وتحذّر النساء أولادها من الترعة ومن عويل الليل، ويشيرون إلى غرق درّية وجسمها الذي أكله سيّد القراميط، عندما خرج من الماء على صوت بكائها في الليل وهي على حافة الترعة. أو تسبُّ الأمُ ابنةً لأنها تتزوّق أمام مرآة، وتتوقع هروبها مع الغوازي في القطار، ورقصها في البلاد، ولحمها الذي ستناله الأيدي مثل الفاجرة درّية بنت عبد العليم، التي سيعود أحد أقاربها برأسها في يوم.

لكن درّية عادت بعد غياب طويل إلى الغزالة، مستترة بالليل، ودون أن يراها أحد، مرّت على بيوت آل جبل، أسرّت إلى رؤوس عائلتها، وأمرت أهلها بالخروج من البلد شمالاً، والصعود إلى الجبل البحري بعد التزوّد بمخزون من الماء والأكل.

كان أولاد جبل هم غالبية سكان الغزالة، النواة، وأول من وطأ بكارة الغزالة في يومٍ ما. كانوا قبل ذلك هجيناً من متسحّبي القرى مع عربانٍ اعتادوا مهاجمة الكفور وقطع الطرق للسلب والسرقة. يقطنون في واحات

الصحراء ومغارات الجبال، يحفظون ممرّات الجبال وشقوقها، ويتنقّلون من مكان إلى آخر هرباً من يد السلطة.

وخلال وقت ما؛ كان عددهم يتزايد، والعادات تتبدل، ويثقل السير على القبيلة يوماً وراء يوم، بعدما انضمّ إليهم المتسحِّبون الذين هربوا من القرى والنجوع إثر زيادة الديون والضرائب الحكومية. كانت الحكومة لا تفرّق بين موسر ومتعسر، أو بين الأراضي المروية والأراضي الشراقي. وجُمعت الضرائب المباشرة التي بلغت خمسة وأربعين قرشاً على الفدان الواحد، وغير المباشرة من سمن وعسل وأصواف، أو «حصيرة راكب»، تأخذ خلالها الحكومة ثلث محصول الموسم. كما أُقرّت فِرْدَة النفوس على الذكور فوق اثنتي عشرة سنة، وفردة منازل تتراوح ما بين عشرة قروش وخمسين قرشاً، تُنتزع من عشش البوص كما تؤخذ من الدور الحجرية، إضافةً إلى فردة النخيل والماشية.

كان الناس يتركون وراءهم البيوت والأراضي يضربها البور، يهربون إلى المدن والمراكز، وأحياناً باتجاه الشام عبر طريق العريش، أو إلى الحجاز من ميناء السويس. ومن لا تسعفه راحلةٌ أو قدماه؛ يطلب السكن والحماية من عربان الصحراء. حاولت الحكومة حصار المتسحّبين؛ فأُنشئت مصلحة المتسحّبين، وأُعدَّت الكشوف لحصر أسمائهم مع تحديث أسبوعي، وشُكِّلت قوات للمطاردة والإعادة إلى القرى بعد العقاب والضرب بالسياط، كما مُنع الدخول إلى المدن دون تصريح؛ وامتلأت بهم الأحواش والعشش في أطراف القاهرة، وانتشر فيها اللصوص والسرقة؛ فتعاقبت عليها هجمات العساكر. وجابت القواتُ الأزقّةَ والحواري، وأمسكت بمن لم تثبت إقامته لاثنتي عشرة سنة داخل القاهرة. وفي الإسكندرية؛ اشتدّت الحملات بمساعدة نساء يدخلن إلى

البيوت ويرشدن عن ساكنيها، وبلغ عدد المضبوطين نحو تسعة آلاف هارب. بينما وضَعت الحكومة نظام التكافل داخل القرى؛ لكي يسدّ الجار ضرائب الجار الهارب. وعندما خلت قرى بأكملها؛ اتسع نظام التكافل، لتضاف ديون القرية الخاوية إلى أخرى مأهولة.

وأمام مخاطر المدن؛ مال الناس إلى حماية البدو. ووفّر العربان (ومنهم جبل) السِّتر، واستقبلوا الأسر المتسحّبة بمزيج من خُلُق بدوي وعناد للحكومة، وانغمس المتسحّبون وأبناء جبل بعضهم ببعض. ظلوا يسدّون الجوع بالإغارة على الخلق، أو بتحصيل إتاوات من كفور في مقابل عدم التعرّض، أو حتى بتأجير خدماتهم في تأديب جهة ما. وخلال التنقل وفي نهارٍ ما؛ عثروا على الغزالة الشاردة في طرف صحراء محيطة، وفي الحدّ الشرقي بحر عذب؛ كأن الغزالة تنكفئ عليه لتروي عطشاً، قبل أن تفرّ من عيون الصيّاد وتتقافز بين الكثبان الرملية من جديد.

وفي لحظة ثبت فيها حضور الدم الوافد؛ تغلّبت روحُ الاستقرار على تنقّل البداوة (خاصة أن الحكومة أصدرت قراراً بعدم مطاردة من فات على هروبه أكثر من اثنتي عشرة سنة. كما أصدر الباشا قراراً بمنع الضرائب على الكفور حديثة العهد). هبط أبناء جبل إلى الغزالة. أقاموا مساكنهم الأولى في منتصف البلد على جانبي قناية صغيرة، تشق الغزالة من البحر الكبير شرقاً إلى الصحراء الشاسعة في الغرب. وتجمّع الناسُ تحت إذنهم، وبعد دفع الفضة والماشية، أو التعهّد بأنصبة من محاصيل قادمة. بنى القادمون بيوتاً طينية للسكن، وعِششاً للماشية والدواجن. زرعوا الأرض التي اكتفى أبناء جبل بتناول أجرتها، وظهرت معهم الغزالة. لكن أولاد جبل صاروا مهمّشين ومشتتين في أنحائها، بعدما مدَّ خليل أبو لبدة خطّ القطار إلى البلد، وتولّى جباية الضرائب للحكومة.

كان خليل أول رجال أبو لبدة في الغزالة. وفي زمن لم تشهده عزيزة، ظهر خليل في أكثر من موضع خلال الغيطان وخارج حدود البلد؛ بجبَّةٍ بنّيَّة، وجسمٍ قصير وعريض، وشارب ثقيل على وجه صخريّ يتوسّطه أنف أفطس، وعيون سود ضيّقة. اختفى؛ وعاد بعد أيام برجال ونساء من عائلته، يدخلون إلى الغزالة من الصحراء البحرية، وعلى الأكتاف وفي الأيدي أغراض قليلة. استقرّوا على الحافة، وأقاموا المساكن كشريط طولي فوق تبَّة صخرية مرتفعة، بمحاذاة الجانب البحري وقرب البحر الكبير. لم يدفع خليل المال ولم ينل إذناً من أبناء جبل الذين أهملوا تلك المساحة من الأرض؛ خوفاً من فيضان الماء خلال وقت جبر البحر، وفضّلوا البقاء في منتصف البلد.

كسّر رجالُ خليل الأحجارَ من الجبل البحري، وحملوها إلى الضفة الغربية للبحر الكبير؛ صنعوا حاجزاً حجرياً بين البحر وأراضيهم، يمتدّ من أطراف بيوتهم شمالاً إلى الجنوب حتى منبع القناية من البحر الكبير. غرسوا جذوع نخل وأشجار فيما بين الحجارة، وأحاطوها بطبقات من الطمي لتخفّف من ضربات الفيضان. زرعوا الأرض أمام بيوتهم، في تلك المساحة الأكثر خصوبة في البلد؛ والمحصورة ما بين بيوتهم في الشمال والقناية في الجنوب.

كان الرجال في طاعة خليل متى أمر. ووقفت نساؤهم خلال الصباح على حافة القناية، يبذرن حبوب الغلَّة في الماء وينتظرن في هدوء، قبل أن ينزلن إلى القناية، يرفعن الجلابيب ويربطن أطرافها حول الخصور، ثم يَسدُدْنَ المجرى من جهتين بألواح خشب منغرسة في قاع القناية، ويخُضنَ في الماء خلال تلك المساحة البسيطة بين الألواح والتي تشبه الحوض، ينزحن الماء بأوعية في أيديهن إلى ما وراء الألواح في مجرى القناة، حتى

يقلَّ الماء؛ وتمسك النساء بالأيدي سمك البلطي والشلباية من أرض القناية، وبأطراف الأصابع يقبضن على القراميط من جانبي الرأس دون أن تلمس راحة اليد ظهر القرموط. يجمعن السمك في مقاطف خوص، ويُزِحن الألواح الخشب، ثم ينتقلن إلى بقعة جديدة في قناية الغزالة، يبذرن الغلَّة ويضعن الألواح؛ ويمسكن بالسمك من جديد. وقرب المغيب؛ يحملن المقاطف ويَسِرن تجاه الشمس، بمحاذاة القناية إلى منتصف البلد، بالقرب من مكان سوق الغزالة الحالي. يقعدن بالمقاطف في طريق العائدين من الأرض أو من الرعي، ويبادلن السمك بدواجن وألبان وبيض من نساء جبل، اللواتي لم يتقنّ صيد التجميس بالأيدي مثل نساء لبدة.

بينما عرض رجال خليل أيديهم لخدمة النخل في القرية، في مقابل ثمرات قليلة في مواسم الجني، وأخذ المخلّفات المتبقية من جريد وليف بعد التقليم والتلقيح، والتي كان أبناء الغزالة يستخدمون بعضها في الأفران الطينية، ويحرقون الزائد عن الحاجة في الخلاء. كان رجال خليل يتعلّقون فوق النخلات المتناثرة في نواحي البلد خلال شهر برمهات، باستخدام أحزمة من الليف والخوص، يقلّمون رؤوس النخل؛ يقطعون السعف الجاف والزائد، والذي يمنع مرور الهواء إلى الرؤوس ويزيد من رطوبة الثمار، أو يعيق عمليات التكميم والتلقيح والجني بعد ذلك. يزيلون السعفات كبيرة السن، الملتفّة حول الجزء السفلي من رأس النخل، والتي لا تستطيع تناول الضوء وتعيق مساره نحو السعف الصغير الأخضر. يتناولون السعف المقطوع، يسلخون الخوص من حول الجريد بالمناجل. تتناول نساؤهم قطع الخوص المسلوخة؛ ويتركنه في المياه ليومين، ثم يشققنه طوليّاً ويضفّرنه إلى شرائط. يستخدمن فلقات الخوص الدقيقة كخيوط تُعلّق في إبر، ويحِكن الضفائر ببعضها لتّتخذ أشكالاً. ينقعن ليف

النخل في الماء لليلة كاملة، يكتسب فيها ليونة، ويفتلن الليف بعد تنظيفه، ويثبّتنه حول الخوص كدعامات وأيدٍ؛ فيشكِّلن مِشنّات ومقاطف وبروشاً. بينما يترك الرجال جريد النخل يتقلّب تحت الشمس لإزالة الرطوبة، ثم يحرقون جذوع أشجار؛ ويعرّضون الجريد للدخان لحمايته من التسوّس. يأخذه خليل بعد ذلك؛ يقطعه بالسكين ويقشره، يثقبه في مسارات مخصوصة، يساوي أطرافه الغليظة بأَجَنَة ويجهّز سطحه بمبردٍ خشّابي، ثم يعشِّق الأجزاء بالشاكوش لعمل كراسي وكنب وأسِرَّة، تحملها نساؤه مع منتجات الخوص للمقايضة بأغنام وماعز مع رجال جبل.

وخلال نهار ما، أعطى خليل ظهره للشمس وسار ناحية وسط الغزالة؛ تحدّث مع أهل البلد، أشار إلى غياب العديد من الحِرف عن الغزالة، وأن رجاله يتقنون بعضها ويمكنهم سدّ الحاجة. رسم بقطعة جريد في يده على التراب أمامهم شكلاً من ثلاث دوائر؛ أخذ منهم بقرة وثوراً بعدما توافق أهل البلد وتقاسموا الأنصبة فيما بينهم. وفي المقابل، توجّه إلى منبع القناية من البحر الكبير، أزال النطاطيل التي كانت تستلزم مجهود الرجال لحمل الماء من البحر ليجري في القناية خلال وقت راحة الفيضان. أقام مع رجاله ترسين دائريَّين من الخشب؛ أحدهما كبير ومنبسط على الأرض، ومثبت أفقيّاً بمحوَرٍ عموديّ من جذع سنط، والمحور مربوط في أعلاه إلى وتد خشبي، يمتدّ خارج حدود الترس، ويلتفّ بالحبال حول رقبة ثور معصوب العينين. يدور الثور، ومعه يدور الترس الكبير؛ وأسنانُه تدفع أسنانَ الترس الصغير، الذي يدور عموديّاً مع محور أفقي ممتدّ ومثبّت في نهايته إلى طارة ضخمة موازية للترس الصغير، ومعمولة من ألواح خشب متقاطعة، يلتفّ حول أطرافها حبالٌ غليظة لتشكّل دائرة. والطارة مغموسة من أسفلها في البحر الكبير. وحول الطارة الخشبية، رُبطت قواديس فخّار

بحبالٍ مفتولة من عراجين النخل. يدور الثور حول الترس الكبير؛ فتدور الطارة مع اتجاه سريان الماء في البحر الكبير؛ وتغطس القواديس وتخرج، حاملة الماء من البحر، ثم ترميه إلى صندوق خشب مفتوح، يمتد ليصبّ داخل قناية الغزالة.

بعد ذلك؛ اقترح خليل على أهل الغزالة حفر رشّاح في الغرب لتصريف الماء الزائد من القناية، حيث تكوّم الماءُ وبقايا الصرف في بحيرة عفنة غرب البلد، حلّقت حولها هَوامّ وحيّات. تكاسل أبناء جبل عن العمل، بينما وضع بعض الأهالي (خاصة القريبة مساكنهم من الغرب) أنفسهم تحت تصرّفه. أزالوا الأوساخ من غرب البلد، وشقّوا المصرف بمحاذاة الحدّ الغربي للبلد، من نهاية القناية وفي اتجاه الجنوب، حتى يصبّ في وسط الخلاء القبلي المحصور بينهم وبين المناجاة.

اختفى خليل بعد ذلك عن الغزالة لشهور، لا يعرف أحد مكان غيابه. عاد، وبصحبته عمال كثيرون، مربوطون إلى بعضهم بحبال في أيديهم، ومعهم معدّات حديدية محمولة على عربات تجرّها بغال، وجمال فوقها هجّانة ببشرة سوداء وجوارب طويلة أسفل البناطيل القصيرة. دخلوا البلد في ضجّة ساوت ليل الغزالة بالنهار. وخارج حدود البلد في الغرب، أحرقوا النبات والشجر المتناثر، وأزالوا البقايا المحروقة. ثم حملوا الرمال والحصى من الصحراء، وكوّموه في خطّ مستقيم وطويل؛ يمتد بمحاذاة الحدّ الغربي، ويكمل إلى عمق الصحراء في الشمال وإلى الجنوب فيما بعد المناجاة. ومرّت عليه البغال وهي تَسحب بحبال مربوطة إلى أعناقها عوارضَ حديدية ثقيلة لتسوية السطح المرتفع، مع الاحتفاظ بانحداره من الجانبين. كان أهل الغزالة يتوارون في بيوتهم خوفاً من الهجّانة الحكومية، لكن خليل استأجر بعضهم لخدمة العمالة ومدِّهم بالماء طوال الشغل،

وإقامة سواتر دائرية من أعواد بوص مغروسة في الأرض وفرشِها بحَشِيَّات وأكلِمة لنوم عمالته. واشترى من أهل البلد دواجنَ ومحاصيل من قمح وأرز وخضراوات ليطبخها أهله، ثم باعها كوجبات جاهزة للهجّانة والعمالة.

حلّق الناسُ حول العمل، يخدمون ويتفرّجون؛ وبدا لهم الخط المستقيم والمتكوّم من الرمال كأثر لمرور محراث عملاق على الأرض. وتحدثت الغزالة عن زرعة ضخمة يزرعها خليل لتشقّ السماء، ويتسلّقها الناس للقعود فوق القمر أو يخرمون من خلالها السحاب لإنزال الماء في أيّ وقت.

وبعد الانتهاء من أساس السكّة؛ وضعوا عوارضَ خشبية قصيرة ومتعامدة على طول الخطّ الرمليّ المرتفع، حاوطوها بكسر أحجار حملوها من الجبل البحري. وأتت عرباتهم بقضبان حديدية طويلة، عريضة عند الرأس والقاعدة ومستدقّة في المنتصف، بلغ طول القضيب الواحد عشرين متراً، وثبّتوها فوق العوارض الخشبية بمسامير تنفذ من خلال قاعدة القضبان إلى العوارض. بينما وصلوا بين القضبان طوليّاً بماسكات قصيرة من حديد، وُضعت على جوانب القضبان، وثُبِّتت بأربعة براغي موزّعة عند التقاء كلّ قضيبين. كسروا أحجار الجبل إلى مكعّبات. وأمام القضبان الممتدّة، رُصَّتْ الأحجار المكعّبة بعضها فوق بعض باستخدام لحامات من الطمي. ومن تربة المصرف المتكلّسة؛ قاموا بلياسة لتسوية الفراغات والشقوق في سطح الرصيف الحجري، الذي ظهر بلون أبيض بعد جفافه. حمل خليل لوحة معدنية مطليّة بلونٍ أبيض، ومكتوب فوقها «**محطة الغزالة**» بلونٍ أسود. ثبَّتها فوق الرصيف الحجري من خلال حاملين خشبيَّين مدقوقين في صخور الرصيف. أقام غرفة

مسقوفة بالجذوع والجريد فوق الرصيف لمراقب القطار، وصبَّ حولها المصاطبَ الطينية لجلوس المسافرين. وعندما مرّ القطار بطرف البلد، احتبست الأنفاس مع هدير طاحن يقترب، وركض الخلق إلى البيوت، مختبئين فيها، مع تخيّلات عن إمكانية شرود الطاحن عن مسار القضبان الرفيعة، وهم يختلسون النظرات من الشبابيك ومن عتبات الأبواب، في انتظار زوال غول الحديد الأسود، نافث السحابات في سقف الغزالة.

وسّع خليل القناية التي تشقّ الغزالة وحفر تفريعة قبلية؛ فبعثر الناس في نواحي البلد. وجمّع أولادَ جبل في عشش في الركن الجنوبي الغربي، كانت استخدمتها عمالته الوافدة للنوم أثناء أعمال السكة الحديد. مدّ المصرف الغربي إلى الشمال وإلى الجنوب، بعدما كان ينتهي عند الحدّ القبلي للبلد. أرغم رجال جبل على الأعمال تحت سياط الهجّانة؛ فكانوا يُربَطون بحبال بعضهم إلى بعض في صفوف طويلة، يحفرون، ونساؤهم والأطفال ينقلون التراب بالمقاطف بعيداً. أخذ بيوتاً لسكن الهجّانة والعمالة الوافدة. ثبّت مقياساً خشبيّاً عليه علامات مُرقَّمة في البحر الكبير أمام الغزالة، وأبلغهم بأن الهجّانة هم أداة الحكومة، وبمعنى الضريبة التي تصبّ في صالح البلد، وأن الضريبة تُجمع مالاً أو من الغلة والقطن، وبناءً على صعود الماء في مقابل درجات المقياس، وأنه المسؤول عن جباية الضريبة وحفظ الغزالة.

أزال خليل بيته القديم، وأقام مكانه بيتاً واسعاً من دورين باستخدام حجر الجبل، ومرتفعاً عن الأرض بدرجات حجرية. صنع له سقوفاً من أعواد خشب سنط مُركَّبة من طرفيها على حافة الحوائط، وحَبَكَ بين الأعواد بجريد النخل. فرش فوقها السعف، وغطّى فوقها بطبقة من الطين ممزوجة بكسر الطوب اللبن من بيته القديم، ثم لاس السقف بتربة

المصرف المالحة. صنع ملاقف هواء عند الجهة البحرية من الدار؛ حيث أقام جدارين متوازيين للبيت في الجهة البحرية، بينهما مسافة نصف متر، فتح في أعلى الجدار الخارجي النوافذ المرتفعة، بينما نثر فتحات صغيرة في أسفل الجدار الداخلي لتسمح بمرور الهواء البارد إلى الدار.

تولّى خليل زمامَ الأمور في الغزالة، وسّع السدّ على طول الحافة الغربية للبحر الكبير، وحطّ يديه على جميع أراضي الجهة البحرية شمال الترعة، وعلى أرض الجهة الشرقية الملاصقة للبحر الكبير. أرسل الأنفار من أولاد جبل إلى الجهادية وأعمال الميري عند الحكومة؛ كان يتخلّص من مقاومتهم. وفي موسم التجنيد أو عند الحاجة لعمالة السخرة؛ كان «بلوك» العسكر ينقضّ على عشش جبل، يسحبون الرجال والذكور إلى بندر المديرية، وتتبعهم نساء يولولن. كان ذكور جبل يفرّون للاختفاء في الصحراء عند البدو لشهور حينما تصل الأخبار باقتراب موكّلي التجنيد. ولجأ رجال جبل –الذين تقطّعت بهم السبل عن الخروج من الغزالة– إلى قطع أطرافهم أو فقء العيون وطمسها عوضاً عن ترك الأهل، ولكي يتركهم موكّلو التجنيد في حالهم، نظراً إلى الإعاقات الجسدية التي تمنعهم عن خدمة الميري. وامتلأت الغزالة بمبتوري الأذرع والعُرج والعُميان؛ فاتَّخذ خليل –في رضا– من يصلح خدماً لبيوته، وخفراً على السدّ في وقت الفيضان. ظلت البلد تحت طوعه وطوع نسله، إلى أن عادت درّيّة بنت عبد العليم جبل من رحلة طويلة، قضتها بين أيام عجيبة وغياهب غير معلومة، ودسّت بولها في الأبدان من خلال ترعة الغزالة.

وبعد شهر من ولاية درّية؛ كان الهياج الصباحي يخفت، وعدد المتتبّعين لمشوارها يقلّ، أصبح ينحصر في الشاربين من التفريعة القبلية، ومنهم عزيزة. التي أحضرتها درّية في يوم، وأمرتها بالذهاب إلى المناجاة

مع الحجر. كانت عزيزة مكسورة، انكفأت وتمدّدت ببطنها على الأرض، ودموعها تغسل قدمَي درّية، تقبّل وتلعق للوداع، وأصابعها تنغرز في الكعب المتورّد. إلا أنها أطاعت وراحت خلف الحجر. وظلت لأيام مضطربة بالحنين إلى السيدة، منهوشة بجوع يفوق الاحتمال إلى رؤية، وحبيسة بين الجنون ودار الحجر. تتملّص من بين يديه، وتحاول الهرب في أثناء الليل والنهار لتنال طلّة من درّية أو شربة من ماء التفريعة، أو –حتى– أثراً من تراب خطت عليه القدمان. والحجر صابر، يُحكم الأقفال ويثبّت أسياخ الحديد على النوافذ، يُكثر من سقايتها الماء، ومنقوعاً لمدرّات بول من ليمون وكرفس وزنجبيل كما نصحته درّية – قبل الخروج بعزيزة إلى المناجاة–، وهي تقف في كتفه وتملّس براحة يدها على ظهره، تتناول كفّه وتفركها بين يديها في مودّة، تُطمئنه، بينما تبتسم في حنان، والحجر مستغرب وساهمٌ في عزيزة التي تتقلّب عند القدمين.

وبعدما زال الأثر من الدم؛ ظلت عزيزة تبكي لشهور طويلة، صحت وهي لا تصدّق مهانتها أو مهانة مخدوميها عند تراب درّية. تستنكر المذلّة وتحترق بغيظ مقهور لصورتها وهي منساقة ككلبة خلف السيدة. وتجود بالحزن على من عاشرت ولم تجد وقتاً لوداعٍ وهم الآن بين أكفان ومدافن مجهولة.

وبعد الزواج؛ كان الحجر يصطحب عزيزة في كلّ جمعة إلى بيت درّيّة أثناء الزيارة، التي باتت طقساً أسبوعيّاً لا ينكسر، خاصة أن درّية بعد أن تربّعت فوق الغزالة، قد أعادت له الأرض والدار اللتين استرجعهما علوان بعد هروب الساكتة إلى الخلاء.

كانت عزيزة تمضي وهي مكرهة تحت ضغطِه، تروح خلفه بالخطا المتعثّرة، منكسرة وخجلانة. وأثناء الزيارة وفي الدار التي عاشت تحت

سقفها لسنوات؛ كانت تتحاشى العيون ما أمكن، وتكمش جسمها تحت وطأة إحساس بالعري وكأنها بلا هِدمةٍ تستر، تطأطئ أمام درّية وتردّ باقتضاب يشعّ بكراهية. لكنها عند الرجوع إلى المناجاة وفي لحظات غريبة وغير قابلة للكسر؛ كان يباغتها افتقاد للاستكانة عند أقدام درّية من جديد، لإلقاء حمولة روحها في هيئة دموع على القدمين. وتحسّ بلذّة تستشري في الروح عندما تتخيّل أقدام درّية تحت لسانها، وهي تتوسّل وتستعطف لرحمة لا تعرف لنزولها محلّاً ولا ساعةً. كانت تجد أثقالها تنخلع عنها، وإرادتها مربوطة بإشارة من أصابع درّية. هناك، تستسلم؛ حيث لا ذنوب تعافر معها ولا رغبات تجرجرها، لا ألم ولا تَذكُّر. والعالم يتسمّر عند اللحظة؛ فلا قبل ولا بعد، وأفعالها بعيدة وغريبة عليها، معلّقة في رقبة أخرى. كانت تلك اللحظات الغريبة تدفعها إلى بكاء آخر؛ بكاء المستغرب من جهله لجديد نفسه، بكاء من اللافهم. تحاول أن تدفع عن بالها ذلك الباب؛ فيعاند، وينفتح على صور متلاحقة لشفتَيها حول أقدام درّية، وهي مستكينة تحتها كقطّة، بينما حجرها يذوب فوق ركبتيها كل ليلة؛ ويصبح لعبتها يوماً بعد يوم.

وشحنتْ المشاعرُ المضطربة والخيالات الجديدة كلماتِها بزيادة من كراهية للحجر ولدرّية في خلال اللقاءات؛ مما استدعى تدخّلاً متكرّراً من الحجر ليلطّف الجو. وعندما طغت الكراهية على طاقة الودّ في كلماته؛ أصبح يقطع الزيارة مباشرة بعد تناول الغذاء، يجرّها إلى المناجاة، يؤنّب ويعاتب طوال الطريق، ويردّد أن ما فات مات، ويشير إلى مَعزّة درية في قلبه. صار يستبق يوم الزيارة بتذلّل وتوسّلات لطيفة. وفي مرات كان يسبّ ويتوعّد، ويضطرّ إلى تركها في المناجاة والذهاب بمفرده يوم الجمعة.

لكن الكلمات أمام درّية -ورغماً عن عزيزة- كانت تتحوّل من مقت

إلى احترام يلامس حواف المذلّة، ودون أيّ دخلٍ لتنبيهات الحجر. أحسّت عزيزة بأصابع تمسك لسانها وتلويه، تُحرِّكه بالغصب. والحجر غير منتبه، مبسوط لمراعاة خاطره، ومتخلّص من سبب قلقه خلال الزيارة. لكن درّية وعت مكنون عزيزة، وبنظرة واحدة في العين؛ عرفت شدّة حاجة مُحرقة ولا سبيل لإخماد.

كانت رغبة عزيزة تتأجّج، تتمنّى لو عادت إلى شربة واحدة من التفريعة القبلية. وفكرت كثيراً أن تغافل الحجر خلال الدخول إلى الحد القبلي للغزالة، تتأخر عنه وتصطنع العطش والنسيان، وتنهل من ماء التفريعة الواصل ببول درّية إلى مساكن لبدة؛ فتعلّق عليه فعلاً تحسّ أنه آتٍ، ومخترق لآخر طبقات المقاومة، فعل أقرب إليها من حبل الوريد.

وبصَمْت، تابعت درّية الشحوب والهزال وتلعثم الكلام. كانت عزيزة تروح وتبدو ببصر زائغ وأنفاس متقطّعة. والحجر حائر، يهتمّ بالأكل ويحرص على سقايتها بالحليب، يحضِّر وصفات لتقوية البدن من عسلٍ وتمرٍ مخلوط بفلفل حارّ وحلبة، يسأل عن العون من درّية أثناء الزيارات الأسبوعية. حتى خلت عليهما الدار ذات مرة في العصر وبعد الغذاء؛ بذهاب الحجر مع رجال جبل للسهرة والمعسل في عراشية المحطة. أخذتها درّية إلى غرفة نومها لتهبها عطيّة من مصاغها. كانت ستائر حريرية ترفّ على النوافذ المفتوحة، كاشفةً عن أوراق شجر برتقال متمايل برائحة مسكرة تضرب الغرفة التي تقبع بين النور والظلام في وسط زقزقة عصافير. أحضرت درّية علبة مصاغ ونثرت محتواها فوق السرير. جلست على طرفه وثنت قدماً تحت الفخذ، بينما تركت الأخرى معلقة وتتأرجح. أشارت لعزيزة بالانتقاء. وعزيزة واقفة، مسحوقة، تنقل العين بين وجه درّية وقدمها. نظرت درّية في فهمٍ وأومأت بالرأس. كانت إيماءة واحدة

لعزيزة العريانة بلا مصدّ؛ فانكفأت تقبّل القدم وتشكر الغوث من بين الدموع. تحكي لدرّية عن أدقّ التفاصيل، وعن الأوجاع التي صاحبت، منذ ولوج ماء أبيها إلى رحم الأم وتكوّنها كجنين، حتى اللحظة التي خلّفهم فيها الحجر بعد الغذاء. حَكَت عن سيّدها القديم عليّ، وعن زوجته، وعن ليلها مع الحجر. ودرّيّة تميل وتمدّ الكفّ وتملّس على شعر عزيزة، تربّت على الكتفين، تُطمئِن وتجيب عن سؤال عزيزة المتوجّس والمتكرّر: «أهي آخر مرّة يا ستّ درّية؟»؛ فتنزل برأسها إلى وجه عزيزة المحترق في رجاء وتهمس: «لا حرمان بعد اللحظة يا عزيزة». وعزيزة تأمن وتبكي، تمتصّ أصابع القدم، تحكي بصوت مكتوم، وتشعر بسائل رطب ينثال بين فخذيها.

وعندما رجعت إلى المناجاة في تلك الليلة، بكت بحرقة من جديد، وظلّت عزيزة بفِكرٍ صاحٍ ووجعٍ مستيقظ؛ بعد تسرّب قطرات مقاومة من غيمة شبعٍ وقتيّ. وماطلت الحجر في الزيارة التالية لدرّية. ولم تسأل درّية كثيراً عن سبب غياب تعلم -يقيناً- أنه سريع الانكسار. لكن الجوع الضارب من جديد؛ أيقظ عزيزة من الفجر في الجمعة التالية، وقد حسمت مصيرها طوال أيام من شوق ومعاناة واختفاء الغيوم، بالاستسلام والراحة دون عناد أو مكابرة، وهي تقتل الأفكار المضادّة مع مرور الأسابيع عند أقدام درّية.

أصبحت تسابق الحجر في الذهاب إلى الغزالة، تصحو بلهفة من الفجر وتوقظه بإصرار. وفي الأغلب، لا يغمض لها جفن طوال ليلة الجمعة، وتلهي عقلها بالدوران في البيت وخلال أشغال بلا غاية حتى بدايات النور. تذبل أمام زمن بطيء، والماء قبالها يتحرك ولا يصل حتى لحظة انتهاء الغذاء في بيت درية وخروج الحجر مع الرجال، فتطلع إلى الغرفة وراء درّية بتبعثر موعود بالسقاية. كانت الجلسات في غرفة درّية تطول إلى

أواخر الليل، مع امتداد سهرة الحجر المُطمئن، والحكي يدور ولا ينحصر على لسان عزيزة وحدها. وحتى في الشهور الأخيرة بعد وفاة درّية؛ كانت عزيزة تروح إلى مقابر الغزالة، ثقيلة وتجلس عند آخر مقبرة درّية، تسند ظهرها إلى الجدار اللبن وخدّها يحتك بالقماش الأخضر، تغمض العينين وتفرك الكفّ في الكتف وتطبطب على روحها، والفم ينهمر بقبلات على النسيج فيما تخاله موضع القدمين من تحت الجدران. تضع إبهامها في الفم، تمتصّه بشوق، وتستشعر سكينة، ومن تحته تسيب اللسان المغمغم في سيلٍ من حكايات متحرّرة.

كانت عزيزة تجترّ راحة لحظات قديمة من حوارات سابقة جرت مع درّية، بينما تتمدّد على السرير في انتظار النوم، والحجر واقف أمام باب البيت، تمصّ إبهام اليد، وعقلها يُفلت، ويسرح مبتعداً عن فوزي ومشاهد جسدها الملوّث بدمٍ تحت النخلات، يتراجع عن عينيها حديث القطيفة، ولا تجد نفسها إلا في خواء أبيض، وفي منتصفه قدم درّية تملأ العين؛ وهي تهدأ وتسقط في النوم.

صَحَتْ مع أول ضوء ولم تجد الحجر بجوارها والدار خالية؛ والفزع ينفرد بها ويشوط. كانت تفكّر من جديد في شكل جثّتها الملقاة لأيام في العراء، وفي قبرٍ بلا اسم، وفي زمنٍ طويل وأبديّ، تنام فيه وحيدة في قبر، وحتى بلا منحة دقائق من زوّار يمرّون ويتكلمون معها وعندها بما حصل في الدنيا وهي غائبة تحت. بينما الرعب الأصيل يكمن في الوحدة التي بلا معرفة لموعد نهاية. وفكّرت أن الذهاب إلى جهنّم مباشرة بصحبة ناس أقلّ تعذيباً من انتظار الجنّة، انتظار لانهائي والجسم في وضع ثابت ومكتَّف بلا ونس، إلا من عقاب طويل ومنفرد على حياة قصيرة لا تستأهل كلّ هذا الطول في العقاب.

كانت تضربها أمنياتٌ مشتّتة بوجود درّية على قيد الحياة في تلك اللحظة، بامتلاكها لحلّ، وبقدرتها على المنع بشكل ما. وفكّرت في أخذ مصباحٍ وبطاطينَ وفراريجَ تقأقئ، وما خمّنته من احتياجات الميّت، ثم الذهاب والحكي عند القبر، إلا أنها تعود وتتشكّك في رغبات الموت، وهل حاجته في هدوء أم صخب، وهل الجوّ هناك برد أم صهد؛ كان دماغها يصل إلى حديث قديم قالت خلاله درّيّة إن الميّت عارفٌ بلا قدرة، لكن الحيَّ جاهلٌ ولو كان في حركة وتعبير. ومن بين عظمة المخاوف؛ كانت تريد أن تسأل درّية لماذا راحت قبل أن تأخذها في يدها! لكنها ترجع وتخشى من دخول الغزالة والاصطدام بالمشهد، أو حتى العبور بجوار المصرف المسكون بالنخل. كانت تسترجع يوم أتى خبر درّية على لسان فاطمة، وقيام عزيزة النادبة من أمام الفرن، وهي مشتّتة في البيت بين لبس الجلباب والبحث المتلخبط عن طرحة، وبين إطفاء نار الفرن وتغطية العجين في الماجور. كانت خطواتها متعثّرة في الخلاء وتحت شمس حامية، بينما يضربها الأمل بكذب الخبر أو باختلال لسان الساكتة. وهي تدخل على درّية الممدّدة بلا حركة فوق السرير، وتطلّ على جسدٍ سلطانيّ تاركٍ لملكوته، في الغرفة نفسها التي شهدت انفراط العين واللسان. كانت عزيزة تخترق حلقة الأجساد الهشّة (تحت تأثير المفاجأة) والمحيطة بسرير درّية، تعاين الجسد الممزّق واللحم المنقوص على طول الذراعين: من الرسغ وحتى الأكتاف بعظام الساعدين المكشوفة، وترى الدم الجامد فوق صدر درّية الشبيه بمسطّح من بقايا أثداء كانت تلالَ خصوبة قبل ساعات. وعزيزة تندلق على حافة الفراش وتحتضن كفوف درّية لتبوسها؛ فتنخضّ من كتلة عجفاء عديمة الأصابع، وتهرب إلى الشبّاك من الوجه المعشوق والمتهتّك لغريب غير مألوف، بتخشُّب آلام أخيرة، وبملامح

شائهة، وأسنانٍ مخلّعة ومتكسّرة فوق المُلاءَة الغارقة في فزعٍ أحمر ومنثور أيضاً في بُقَعٍ جافة حول الحنك وفوق سجاجيد الأرضية وبلاطاتها، مع جروحٍ نازفة، ممتدّة في العنق وخلال بطن درّية، وحتى سطوح الفخذين.

كانت الأفكار تتضارب في رأس عزيزة وهي تتطوّح في أنحاء البيت، حينما بدا لها أمل خفيف؛ وعلى عجل، غطّت رأسها وأخذت المداس، خرجت من الدار بخطوات سريعة. كانت تسير إلى الجهة البحرية، إلى خارج حدود المناجاة، بينما تهبّ لسعات من هواءٍ بارد محمّلٍ بندى الصباح؛ فتكوِّر كفّها فوق الأنف والفم.

ومع السير، كان الأمل يتقوّى في قدرة الساكتة على التصدّي للنخلات؛ وكأن الأمل يتقوَّت من حبّات الرمل التي تخطو عليها. وعزيزة تقرّر عدم القبول بسكوت فاطمة هذه المرّة. حلفت أن تنغرس أمام بيتها ولا تبارح حتى تمدّ لها فاطمة يدَ المساعدة وتشوف لها حلّاً. كان رأسها يتخيّل الحوار، ويصنع الجُمل التي يمكن أن تسعفها لرجاء فاطمة.

أسرعتْ، ولاح لها المقام؛ ومن بعيد وعلى المصطبة الطينية الملاصقة لمقام الغرقى، كانت عزيزة ترى الحجر جالساً، بعيونٍ منخفضة، وجسدٍ يهتزّ كحال الباكي، وقباله وقفت الساكتة وظهرها لعزيزة، ذراعاها تستندان على كتفيه، ساعداها تحاوطان حول عنقه، وكفوفها تمسح فوق رأسه اللامع.

*****

الفصل الثاني

إن كان جسمي عن جنابك قاطعِ

ملأت صابحة قصعةً صاج بالرمل من حواف الحفرة أمام الدار. وقفت تلتقط الأنفاس وعيناها ساهمتان في حواف القصعة، وفي الصدأ الغالب بألوانٍ بنّيّة وذهبيّة تحاصر لون الحديد الأسود. كانت تتّكئ بكوعها على المقبض الخشبيّ لجاروف مغروس من طرفه المعدني في الأرض. رفعت بصرها وتطلّعت في الدم المُنساب من شمسٍ راحلة في الصحراء، وفي انعكاسات الأضواء فوق قضبان السكة الحديد، وتمايل الحشائش على حافة المصرف. وبينما تمسح بظهر الكفّ قطرات عرق –قد جفّت بالفعل– من فوق الجبين الواسع، كانت عيناها تلتقيان بندوبٍ لجروح قديمة منتشرة فوق الساعد المشمّر. وملّست على الساعد بإبهام الذراع المتكئة على الجاروف، قبل أن تحسَّ برعشة من تيّار هواء ضارب في الجسد المتعرِّق. سحبت الجاروف والتفتت إلى اليمين، ركنت مقبضه إلى الجدار بمحاذاة الباب، وانحنت تلتقط القصعة في مجاهدة لشحوم مُدْغِلة ومنتشرة في الجسم. دخلت إلى الدار بخطوات ثقيلة ومتطوّحة، وضعت القصعة على يمين الفرن الملاصق للجدار البحري. التفتت، ردَّت الباب، وأنزلت المزلاج الخشب. صبَّت الرمل من القصعة إلى داخل غربالٍ ملقى على الأرض، ثم حملت الغربال ورجّته عدة مرات فوق القصعة؛ فنزل الرمل من جديد إلى داخل القصعة. نترت الأوساخ المتبقّية في الغربال أمام مدخل الكنيف المقام أسفل السلّم الطينيّ. حملت القصعة، صعدت الدرجات إلى السطح، وحافة القصعة تحزُّ في لحم الصدر مع كلّ درجة

تصعدها. وعند آخر الدرجات؛ كانت تعبر بجوار راوية. كانت البنت تجلس على الأرض، تمسك بعلبة صفيح، وتحاصر بها نملة تحاول أن تفرّ في جهات مختلفة. وقفت البنت عندما شاهدت القصعة؛ ألقت العلبة، وحلّقت حول صابحة وهي تمدّ يديها إلى طرف القصعة. كانت صابحة ترفع القصعة لأعلى بعيداً عن منال البنت، تستدير بصدرها إلى اليمين بينما تخطو نحو الجدار القبلي، تتحاشى الاصطدام بالبنت التي تسدّ الطريق وتمدّ الذراعين باستعجال. قلبت الرملَ فوق الأرض عند الركن بين الجدارين، أفلتت القصعة بجوار كومة الرمل، وتركت البنت التي انكبّت على الرمل وهي تدسّ حفناتٍ منه في فمها. نزلت على الدرجات، حملت الغربال وألقت به فوق الفرن، استدارت ورمت روحها على الكنبة في مواجهة الباب. كانت تسدل أكمام الجلباب فوق الذراعين حينما تعطّلت يدها، وأخذتْ أصابعَها لتلامس آثار الندبات من جديد. أغلقت عينيها وهي تريح رأسها على الحائط. كانت تفكّر في منظر الصدأ المنتشر على القصعة، بألوان ذهبية خلابة أو بانطفاء مكتوم وتقشُّر، وأنه -حتى- الصدأ يعني حياة تدبُّ من خلال استخدام ومعاشرة، حياة تتنقل بين اللون والانطفاء والكشط، وأنها طوال العمر كانت قطعة حديد للفُرجة، تلمع من بعيد ودون استخدام. مدّت يدها إلى العنق تتحسّس، وانسابت من طاقة الجلباب إلى منتصف الصدر وحول الكتفين ولامست ندبات مماثلة؛ وهي تتذكّر جسدها المحاط بسعف وليف نخل، وفوزي ينام فوقها وجسمه يهتزّ، يطوّق بذراعيه، وكفّاه تقبضان على حُزم سعف، وتعصران من خلاله اللحم والعضلات.

كانت قد أنهكت جسمها في أشغال منذ الصباح في محاولة للنسيان، بينما دفاعها يعمل بلا وعي لطرد علوان القابع في رأسها منذ صياحه أمام

الباب؛ باستحضار ذكريات أخرى ولو مصحوبة -أيضاً- بألم، لكنه دوماً أخفّ من مشهد الخروج وتوابعه، الذي ينساب كسحبة خيط حادّ ولانهائي من حول بكرة سوداء وعملاقة؛ متلازمة دوماً مع رؤيتها لعلوان.

وبالرغم من سنوات قضتها في محاولات تلقائية وغير مخطّطة لعلاج الذكريات بالذكريات، إلا أن رؤية علوان كانت غالبة، ودوماً توقظ في الرأس صورة فوزي، والبرج يجرّده من ملابسه في وسط المناجاة، ينزعها عنه قطعة قطعة، وينهال على وجهه بالكفّ ليدُكَّ محاولاته الواهنة للفرار والستر، يثبّته من كتفه بالكفّ الأخرى، بينما فوزي يتزلزل ويحاول أن يحمي نفسه بذراعين تسقطان أمام ضربات البرج. طوّقه البرج بحبلٍ حول وسطه، وربطه حول معصميه وهو يثبّتهما خلف ظهره، قبل أن يمدّ الحبل فوق الظهر، ويلفّه حول عنق فوزي ثم يعقده من طرفيه. كان علوان ينثر الشتائم بغيظ والبلد تتفرّج. تبكي هي وعديلة، ويتنقلن كظلال خلف ابن القط، يطبطبن بالكفوف على منتصف صدورهن، يترجّين ويستحلفن بالنبي والغالي، وعيالها كحشائش متفاوتة في الطول، لا تعطي المناجاة لهم بالاً. كان الولد محمد يتعثر في كفّها؛ فتتركه وهي منشغلة بمحاولات الاستسماح، إلى أن يقوم بسرعة؛ في محاولة للّحاق بخطوات الكبار الواسعة وغير المنتبهة، وبعدما تغطي دموعه وريالته تراب الطريق (تلك الدموع ستبقى مصدراً لتساؤلات الولد فيما بعد أثناء قعوده على المصطبة أمام مقام الغرقى، وهو يسأل روحه، هل كان يفزع حقّاً لمشهد عري أبيه، أم أن فزعه كان متولّداً من رؤيته لرعب صابحة فقط). كانت أميرة البكرية حافية، مغبّرة وتحوم حول البرج؛ تحاول أن تتناول يده وتصرخ برعب: «أحبُّ على يدك يا عمّ سالم». ينترها سالم عن ذراعه؛ فتعاود المحاولة وهي تتشبّث بجلبابه من الخلف. كانت عديلة تنهار، تقفز وتتعلّق بأكتاف

علوان، مقتربة من عنقه وفمها مفتوح على آخره وكأنها ستأكله، تصرخ: «ماذا كنا نعمل يا ظالم! لا مكان للقمة عيش في بلدك وأنت تضيّق علينا وعلى الولد». دفعها علوان في غيظ لترتطم بقوّةٍ في الأرض. كان ينظر إلى كتلة الثياب المكوّمة فوق عظام عديلة في غضبٍ يمسّه عتاب. صرخ: «ابنك ابن حرام، نوّام وعمره ما كان له في شغل. علوان لا يظلم، ابنك قلّعنا هدومنا وخلّى الكل ملط».

كان فوزي يجري عارياً أمام المناجاة، دمه يسيل على عينه من جرح غائر في الجبهة؛ يغلق عينه اليمنى بينما يده مكبّلة خلف ظهره، خطوته متخبّطة برؤية مشوّشة، وفزعُه قد سحق خجلَه ولا تصديقه الأول أمام أمر علوان للبرج؛ فاتسعت عيناه، أصبح بوجهِ ميّت، ورأسه يتنقل في حدّة وسرعة بين الجهات، ينادي: «حرام يا حاج علوان. أعتقني لوجه الله. لم أعرف والله. من زمان وأنا خدّامك وخدّام أهلك». يتلفّت إلى الناس الذين يتجمّعون خلفه ويسأل النجدة؛ فيعدله البرج بصفعة على قفاه، وما إن يجد أحداً يمرّ بجانبه على طريق البلد حتى يندلق نحوه، يقع وهو يصرخ: «أغيثوني يا أهل الله لوجه الله»؛ فينتزعه البرج من الحبل ويوقفه على قدميه من جديد.

بدأ عيال البلد يتغامزون ويلقون الكلمات حول عورته المنكمشة؛ فيقابلها من الكبار زجرٌ مائع يكبت الضحك، وما يلبث الابتسام والضحك أن ينفلت من الكبار أمام معاودة العيال الإشارة. كانت صابحة تتحاشى النظر إلى موضع التغامز. وضربها خاطرٌ غريب بالشكر لله على انجذاب الأبصار والكلمات بالاستهزاء نحو الدودة الصغيرة، عوضاً عن التساؤل عن الجروح المنتشرة في جسد زوجها.

كان البرج يسوق فوزي خلال طريق المناجاة باتجاه الغرب، والناس

خلفهما تتجمّع وتتفرّج. حتى وصلوا إلى أطراف أرض القط الغربية، وحيث القطعة التي وهبها علوان للحجر؛ فالتفتوا يميناً وأكملوا السير نحو الجهة البحرية، إلى أن خرجوا من الحدّ البحري للمناجاة، ووصلوا إلى دار فوزي في الخلاء.

كانت صابحة قد توقفت عن ملاحقة علوان منذ دخولهم إلى أرض الحجر، إلا أن صراخها استمر خلفهم، يشقّ المناجاة بالرجاء وبحسٍّ مبحوح؛ بعدما ارتعشت ساقا عديلة، وخفتت خطوتها وتعثّرت عدّة مرات؛ فأحاطتها صابحة بذراعها الأيمن، وسندت بالساعد عديلة من الإبط، تاركة أمامها كلاباً تنهش في الزوج.

وبينما تسيران ببطء في أثر الموكب السابق، كانتا تمرّان على أعمال البناء في دار الحجر الجديدة. كان الحجر يعدُّ سقف الدار مع العمال. وقرفص الحجر مولياً ظهره للعابرين في أرضه كأنما هو أصمٌّ وأعمى، بينما تسمّر العمال على حواف السطح، وأطراف جلابيبهم مربوطة حول الخصور وكاشفة عن سيقان عجاف، يشخصون بالأبصار خلف العاري ويستفسرون من ذيول القافلة. رفعت صابحة صوتها المشروخ: «يا سيّد تكلم مع علوان. والله لا يرضي ربنا ولا يرضي الست فاطمة ما يعمله علوان مع الغلبان». لكن الحجر لم يلتفت حتى بنظرة.

كان البرج يلسع فوزي بعصا خيزران على مؤخّرته طوال الطريق، ويثبّته من الحبل أمام عصا علوان حينما ينادي الأخير: «وسّع ليأخذ واحدة من بركة القط». ورجال القط يركلون فوزي ليتعثر ويسقط على وجهه، ثم يركلونه ثانية ليقف ويهرول، مع مشاركة البعض من المناجاة المغتاظة من فعلة فوزي. ربطه البرج إلى النخلة أمام الدار، ووقف أمامه بعض رجال علوان كسياج، يصدّون عنه كلمات رحمة واستعطاف بدأت في الخروج

على استحياء من أهل البلد؛ عندما دهس البرج بيتهم وكسّر فيه ما أمكنه. كمّم الرجال أفواههم، لفّوا حول أيديهم قطعاً من الخيش؛ وأمسكوا بأغنام فوزي وبهائمه، وذبحوها بمساعدة رجال المناجاة. كان أهل المناجاة يذبحون الأغنام في سرعة ولهفة؛ وهم بين ناقم على سبب البلوة، ومُشفق يحاول أن يعجِّل بانتهاء فصل المهانة. حملوا البهائم المذبوحة في جوالات خيش، ووضعوها في حفرة واسعة في وسط الخلاء، سكبوا عليها الجاز وأحرقوها، قبل أن يردموا فوقها بالرمل. وفوزي معهم، معلّق في يد البرج. طردهم علوان دون أن يسمح لهم بتناول شيء من البيت؛ وخرج زوجها مكسوراً من المناجاة. كانت صابحة تستره بقطع الخيش التي تركها الرجال، وتلفّ جسده بما لاقت من سعف وليف نخل في الخلاء، تمضي في ذيله بالعيال نحو الغزالة.

فتحتْ صابحة عينيها وهي تجلس فوق الكنبة. كانت تطلّ إلى الفرن على اليمين، ومدخل الكنيف من خلفه، تلتفت يساراً نحو مدخل الغرف؛ فترى -مجدّداً- خطوات البرج والرجال داخل الدار، يضربون الفرن بالفؤوس، ويحطّمون المصابيح والفخّاريات، يحملون الأسرّة والكراسي الجريد، ويلقون بها مع المشنّات والجلابيب في كومة، ويشعلون فيها النار أمام البيت.

كانت صابحة تسمع من جديد -ولمرّات لانهائية- أنين عديلة المكتوم، وهي تحجز فمها بالكفّ وتشهق، وكأنه معلّق في الهواء طوال تلك السنوات، وصوت رجاء أميرة التي تحاول أن تخترق حصار الرجال حول فوزي، وتلقي عليه بجلباب وهي تطلب ستر الرجل، قبل أن ينزعه البرج من يدها ويلقيه في النار.

رفعتْ صابحة ساقيها وتربّعت على الكنبة، مالت بظهرها إلى الوراء

ومدّت ذراعها، تحسّست الحائط الذي تستند إليه، وخشونة طبقة الطمي المحمولة من حواف المصرف إلى الجدران، في يومٍ كان فيه ظَلَف العيش يقف على العتبة، ويلوّح مودّعاً ببسمة مخادع.

كانت الحياة قبل الخروج إلى الغزالة قد لانت لصابحة وعيالها؛ كثرت الأغنام التي يعثر عليها فوزي في الصحراء أثناء رعيه خارج المناجاة، وأصبحت آلام جسدها محتملة مع السعف الذي يلفّه فوزي حولها كل ليلة، وروحها أكثر تعوّداً على خروجه من الدار عقب قيامه من فوقها. خروجه المهين إلى النخلة، الذي يحمل علامة عدم شبع توقظ عجز أنوثتها. أصبح فوزي قادراً على كفاية أهله؛ وتوقفت عديلة عن الخروج بقفص الخضراوات إلى سوق المناجاة كما كانت تفعل كلّ صباح، نالت راحةً تعوزها سنون عمرها، بعدما أنفقت العمر في سدّ جوع فوزي وصابحة وعيالهم. أزال فوزي العشّة القديمة التي آوته مع عديلة منذ ولادته، وأقام بيتاً من الطين والحجر، فيه الفرن والسقف.

لم يكُ فوزي قادراً على بناء بيت بطريقة العُشومَة قبل أن تتيسّر أحواله من تجارة الأغنام؛ فالمناجاة دهسته دوماً بجهله بأبيه، وأقصته من دائرة العشم الذي تداولته فيما بين أهلها لبناء سقوف وجدران تحميهم، إذ يكفي أن يطلب أحدهم مساعدة في بناء بيت أو رعاية الأرض؛ فتهبّ أذرع المناجاة لستر عائلته بأقل المصاريف. وبينما تغاشمت قلوبهم على فوزي فضيّقت عليه في رزقه، بالرغم من العيال المربوطة في الرقبة، وأيمان عديلة وقسمها الدائم على صحّة شرفها، وأنها أتت به في الحلال ومن زوج هجّ في ليلة وتركها خلفه تحمل الولد، تسامحت نفس المناجاة مع جهل صابحة بالأب والأم، ولاطفت شعرها النحاسي وعيونها الخضراء، وهي تقعد في حجر عديلة أو تلعب جوارها تحت مظلّة الخيش في السوق.

وحتى في أيام مرض عديلة؛ قبلت المناجاة صابحة وهي تحمل قفص الخضار وتجلس وتنادي مكانها. صابحة التي تناولتها عديلة من جانب شريط السكة الحديد، بعدما أيقظها صراخ رضيعٍ جائع ينقر في الليل؛ فخاضت عديلة المصرف على قدميها إلى البرّ الآخر، وحملت البنت إلى العشّة، وكبّرتها مع الولد.

كانت الزلعة التي يعلّقها فوزي بحبل ليف على الخوص فوق مطرح نومه قد امتلأت بالفضة من تجارة الغنم؛ فأحسّ بضيق العشّة عليه وعلى أهله. أحضر البنّائين؛ وبدؤوا بحفر الأرض بعمق ثلاث أذرع في خطوط مستقيمة لتجهيز أساسات البيت الجديد، قبل أن يحشروا فيها الصخور التي ارتفعت بمقدار شبرين فوق الأرض. وصابحة تتنقل وتناول أدوار الشاي للعمال من فوق الكانون الطين أمام العشّة، تجهّز للرجال في كلّ ليلةٍ عشاءً من عسلٍ وجبن وبيض عائم في الزبدة. كانت يداها تعدّان الأكل بهمّة وبكرم نابع من كونه المنفذ الوحيد للتعبير عن بهجة حبيسة ومتوجّسة يمتلئ بها صدرها، وتنتظر لحظة غلق باب الدار الجديدة عليهم لتخرج في صورة حَمْدٍ للفضل دون زيادة، وكأنها قد وعت من الأيام تلك الطريقة في مغافلة مصائب تدور حولها وتتشمّم روائح الفرح والاطمئنان لتنهشها منه ككلب جائع، بينما كانت فرحة عيالها منطلقة ومخلوطة باللعب حول العمال.

حَمَلَ الرجالُ كمياتٍ من الطين إلى حفرة واسعة أمام العشة، نقّوه من الحصى والشوائب، وخلطوه بالتبن والرمل والماء قبل أن تعجنه أقدامهم. كان فوزي يقف بجلبابه الجديد، يتنقّل بخطوات قصيرة ومرتبكة أمام أُجَرَاء لم يتعوّد على موضعه منهم، يراقب العمل ويسمع أكثر، ويردّ عليهم -عند الضرورة- بتلعثم وبكلمات قليلة، قبل أن تتحوّل إرشاداته

غير المُفسّرة إلى الوضوح، بسلطة يقف عليها يوماً بعد يوم في أثناء العمل. أخذ الرجال قِطعاً من معجون الطمي إلى داخل قوالب خشبية مستطيلة، يكبسون داخلها الطمي ويرفعون عنه القالب، ويتركون الطوب المتشكِّل ليتقلّب ويجفّ تحت الشمس لأربعة أيام، احترق فيها العيال لدخول البيت قبل أن يحترق الطمي بالشمس.

كانت الجدران ترتفع والتقسيمات الداخلية تتّضح. وعاين النجار مقاسات المدخل والنافذة؛ لتجهيز باب وشباك من خشب السنط، كما أتى بأعواد طوليّة من الخشب نفسه لسقف البيت. وحينما أراد الرجال قطع النخل لتجهيز دعائم السقف والأعمدة، والحبك بين الخشب بالجريد وفرش السعف على السطح؛ تركهم فوزي تحت إشراف صابحة. كان مضطرباً من رؤية البلطات في الأيدي، يتخلّى عنه ثباتُه من جديد. وعلى عجل، أخذ نفسه وذهب إلى الصحراء للبحث عن قطيع جديد. عاد بعد انتهاء التسقيف وأعمال اللياسة على الجدران من طمي المصرف، وانصرف عن إلحاح البنّائين في معاينة شغل السقف والأعمدة بالرسم بعجينة من الجير والمُغْرَة الحمراء لشكل نخلة على باب البيت، طالباً بلهجة حانية –وعلى غير العادة– مساعدة الولد محمد، الذي كان يتنقل طوال العمل بين البنّائين، يتأمل ويفحص، ويسألهم عن كل خطوة يقومون بها.

طلب فوزي من العمال نقل نخلة من الخلاء إلى أمام الدار. سقى فوزي النخلة بغزارة حتى يسهل الحفر حول الجذور. أحضر من العشّة حزام المطلاع الذي عمل به فوق نخل أبو لبدة في الغزالة فيما قبل شغلة الرعي. ربط وسطه بالمطلاع إلى الجذع، وطلع في سهولة وسرعة، رغم محاولات الرجال لإرجاعه عن رأيه، وتحذيرهم من النخلة التي تخلو في منتصف الساق من بروز الوَقَل اللازم لغرس القدم خلال الصعود،

واقتراحهم زراعة شجرة أخرى أمام البيت، في تأييد ظاهر لرأي نساء البيت، لكنه يبطِّن رغبة في تناول الأجر وإنهاء المقاولة. خفّف فوزي السعف الزائد، وربط السعف المتبقي إلى قلب النخلة، قبل أن يحفر حول محيطها في اليوم التالي لتحرير الجذر من التربة. جذبها الرجال من خلال حبال متصلة بأحزمة عريضة ملفوفة حول الساق، ثم حملوها على الأكتاف إلى موضع الغرس الجديد، وسمّدوا تربتها بعد الخلط برمل وكلس. ربطوا ساقها بحبل مثبّت من طرفه إلى وتدين مغروسين في الأرض أمام الدار بَحريّ النخلة؛ حتى تصلّب طولها وتمدّ الجذور في الأرض الجديدة أمام الهواء المعاكس.

كانت صابحة تحفظ تلك النخلة وتميّزها من بين نخلات الخلاء؛ جرت يدُها كثيراً فوق وَقَلاتها وليف الجذع، وعيناها اختزنت صورة أقواس السعف المتدلي، والخوص الذابل في نهاياته، والسطوح شبه الملساء في منتصف الساق، مع اعوجاجها الحادّ فيما قبل الجُمّارة. وفي نهارات سابقة بعد الزواج من فوزي؛ كثيراً ما جلست صابحة أسفل تلك النخلة، تتكلم وتسأل، تخمش الجذع بالأظافر في غيظ، وتطرق فيه جبهتها في انكسار.

وفي ساعة نقلها أمام الدار الجديدة؛ كانت تدخل إلى الدار، وتهمس في أذن عديلة بأن تقترح على فوزي غرس شجرة توت أو نقل نخلة أخرى غير نخلة الحزن المشوّهة تلك، بانحناءٍ في الساق وبدنٍ أملس. وحتى عديلة، تبرّمت، وهي تفرُّ بعينيها وتطرق الهواء بظهر الكفّ، وتشير عليه بترك النخلة في مكانها، إذ يمكن للنقل أن يقتل النخلة مع عدم معرفة البنّائين بالطريقة.

لكن فوزي مضى بما في رأسه. رأته صابحة يدخل ويدعبس بلهفة على

المطلاع في أركان العشة، وهي ممتلئة بخجل وخزي من العمال، وتتخيّل نظراتهم تغطس في بئر السرّ، وتطّلع على سلّم المعرفة المخفيّة درجة وراء درجة من خلال تصرّفات الزوج. كانت عيناها ممتلئتين باستنكار صامت وهي تشاهد ذكره الواقف من أسفل الجلباب، بينما ذراعاه تستعدّان للذّة جديدة عليه؛ باحتضان البغيّ في العلن، أمام أهل بيته، وتحت أعين رجال أغراب. ودخلت صابحة بخطوات سريعة ومرتبكة لتختفي في العشة، تبكي وتلمّ الحاجات قبل أن يزيل الرجال العشّة لاستخدام مكوناتها في إقامة حظيرة للدواجن.

لقد عرفت صابحة ما يخرج إليه فوزي في كلّ ليلة منذ كان صبيّاً، وعرفت مصدر الجروح المنتشرة في وجهه وجسده، وسبب فرشخة ساقيه وهو يخطو بيمينه ثم يحاذيها بيساره في بطء، في محاولته لتجنّب ألمٍ ناجم من اهتزازٍ واحتكاكٍ لمّا بينهما. كانت تعرف، وحتى قبل معرفة عديلة التي رأت صورة مشوّشة بعين أمّ تنكر وضوح العيب في ولدها، في عقب الليلة التي اكتشف فيها فوزي أباه. عرفت صابحة ولم تُشر إليه أو إلى عديلة بتلك المعرفة. وحتى في ليلة اكتشافه لأبيه تلك، وعندما دخل يبكي وعديلة تنهض مفزوعة على وحيدها، وفوزي يخبرها برؤيته لأبيه لأول مرة بين النخلات؛ تصنّعت صابحة النوم، بينما فوزي يتشنّج بكلمات غير مفهومة في حضن أمّه غير المستوعبة لكيفية توصّله إلى أبٍ غائب منذ حملها بالولد. لكن صابحة الصغيرة التقطت الكلمات عن الرجل الذي يسرح بين النخلات ويلتصق بها، وفهمت أن الولد مثل أبيه أمام الغواية ذاتها.

تعوّدت صابحة أن تتمدّد في كلّ ليلة إلى جوار عديلة النائمة، عيناها على السماء من خلال الفتحات بين خوص السقف وخشباته في العشة، تسرح في نجوم وسحاب، وأصوات الماء والضفادع في المصرف، تعدّ

القطارات التي تعوي بجلجلة العجلات فوق القضبان وتزيح الهواء؛ فيهتزّ خوص العشّة التي أقامتها عديلة في الخلاء بجوار الرشاح، بَحريّ أرض الحجر، التي كانت مُلكاً للقط وقتذاك. تُلاعب صابحة قلقَ الغياب بينما تنتظر دخول فوزي قرب الفجر، تسمع انضغاط الحصى والرمال التي يدوسها، وصوت أنفاسه وخشخشة يديه بينما يُعدّ مكان نومه قرب مدخل العشّة؛ عندئذ تَطمئنّ صابحة على الأخ، تطبق الجفون وتنام.

كانت صابحة قد تتبّعته في بدايات إدراكها لغيابه، مستترةً مثله بالليل، ومدفوعةً بفضولٍ وبخوفٍ على الأخ ورجل البيت. مضت وراءه وهو يتجه إلى الجهة البحرية نحو النخل المتناثر في الخلاء، ورأته يخلع الجلباب واللباس، ويطوّق بذراعيه جذع نخلة، عارياً، يحتضن وجذعه يتأرجح ما بين الأمام والخلف، يغمس وجهه في الليف، يتشمّم ويقلِّب رأسه بحنان وشغف كذاكرٍ في حضرة، وخدّاه يتمسّحان بالساق. تمتصّ شفتاه حواف الوقل، وتتنقلان بين مواضع في الساق وعنقه ينكمش ويشرئب؛ لينهمر بقبلات على ما يطوله وكأنه عصفور يلتقط الحَبَّ. ينتصب عموده ويرتطم بالجذع؛ فَتُسمع آهات مكتومة للشهوة والوجع، وإيقاع الولد يزداد، أفخاذه تكلبش في الساق، جسمه يتشنّج، وصدره ينطحن فوق النخلة، يقبض بالأصابع، يغرزها وكأنه يحفر، ذكره يحتك بالوقلات ووسطه يتموّج في سرعة، يفتح فكّيهِ، يمتصّ ويعضّ بالأسنان على حواف الوقل، إلى أن ينزل ماؤه سائلاً فوق الجذع؛ ويبدأ جسده في الهدوء والتراخي؛ يلتفت حينئذ إلى جروحه وجلده المكشوط، ويكبس فوقه بالرمل. بينما في ليالٍ أخرى، كانت تراه يكتفي بالجلوس تحت النخلة، يحكُّ ظهره في الجذع، يغمض عينيه ويتحسّسها بكفِّه، يلصق الخدّ ويمتصّ بشفتيه، ويده الأخرى تُلامس قضيبه المتسلّخ.

ولم تشر إليه صابحة بمعرفتها إلا بعد زواجها منه؛ ومضطرّة من خلال سعيها المستمرّ لإيجاد قشّة تملأ جوعه، أو عكاز تستند عليه أنوثتها في مواجهة الغريمة، ويلقي ببذرة فوزي داخلها.

لقد كان احتمال الغريمة مستطاعاً عندما اقتصر ضررها على القلق من غياب الأخ كلّ ليلة، لكنها تحوّلت إلى ضَرَّة تسحب الزوج وتعيق الأمومة.

وفي بداية الزواج؛ قضت صابحة الليالي وهي مهجورة فوق حشيّة صوف، بينها وبين منام عديلة ستارة ثقيلة ومعتمة، معلّقة على حبل يقسم العشّة إلى نصفين؛ معطيةً للعروسين خلوة غير ضرورية. كانت صابحة تشعر بنظرات النائمة التي تخترق القماش وترميها بالعيب وتعكير المزاج؛ حتى أصبح الولد يهجّ إلى الخارج في كلّ ليلة. وحاولت صابحة بجسدها وبألعاب وبكلمات تدسّها في أذنيه بجرأة، تأخذها من نصائح الحريم بينما تملأ الزلعة من حافة السلّانة أو تغسل الثياب. لكن فوزي ظلَّ حروناً عند غوايتها، وكلماتها تتحوّل في أذنيه إلى حجارة تنزل إلى ذراعيه؛ فيلطم رأسها لتقع على الفرشة، وبعد ذلك يقفز كعادته نحو نخلة الخلاء. تتغامز نساء المناجاة، يضحكن في خبث عند رؤيتها ويضعن أيديهن فوق البطن، يتحسّسن ويسألن عن القادم في السكّة وعلّة التأخر.

كانت صابحة تستيقظ وتترك فوزي النائم مثل ميّت بعد السهر في الخلاء. تذهب في أول الصباح وتجلس تحت الضَّرَّة. تسأل وتشتكي ولا تعثر على إجابة. تنهض بعدما تنفد الكلمات والدموع. تلطم بالكفوف على الجذع وعلى وجهها. تلتقط طرحة رأسها الساقطة من الأرض، تنفض عنها الرمل، تلفُّها في لهوجة وتغادر. تعود بعد الظهر ببلطة تشهرها أمام النخلة وتُلوِّح، تطرق الجذع بظهر البلطة عدة مرّات بغيظ مكتوم، قبل أن تلطم على وجهها وتغادر. أحضرت كومة من شواش ذرة وأشعلت

فيها النار أمام النخلة، ونظرت نحوها بتحدٍّ وهي تُقرِّب حطبة مشتعلة إلى الساق. وما لبثت أن ألقت النار على الأرض، لطمت وناحت، ثم رجعت إلى الزوج.

وفي صباحٍ يائس تخطّى حدود القدرة والاحتمال، متولّد من ليلة خبط فيها فوزي رأسها في أرض العشّة عدّة مرات حتى خفتت روحها، عندما عاد مع ضوء الصباح ووجدها متربّعة وخدّها على الكفّ، ترفع صوتها ليصل إلى النائمة وتقول: «والنبي بدري! يحسدوك. الناس شبعت من النوم وراحت للرزق يا رجل البيت». كانت تخرج إلى الخلاء وأصابعها تكبس على جروح الجبهة، تتقافز بين الأركان وتلتقط السعف الأصفر المتناثر فوق الرمال، تحمله وتمضي به إلى المناجاة.

وبخطوات واسعة وسريعة نحو الشرق، وصلت إلى مسجد «**القط**» عند ضفّة البحر الكبير. تسلّلت من باب المئذنة وصعدت الدرج الدائري إلى أعلى. وقفت أمام شبّاك المئذنة وأحاطت جسدها بالسعف، وربطته حول جسمها بحبلٍ من الليف. ظلت ثابتة تنظر إلى المناجاة من أعلى نقطة، حتى أنزلها الشيخ عمر أبو حلاوة إمام المناجاة في وقت صلاة الظهر. كانت البلد تشاهد عمر وهو يرفع الأذان، وصابحة واقفة ومحاطة بالسعف إلى جواره. يدفعها الشيخ بكوعه بعيداً عن الشبّاك وهو يحاوط على فمه بكفَّيه. يلتفت إليها بعد كل مقطع ويهمس: «وضوئي سينتقض يا رمّة. انزلي». تخشّبت صابحة وتصلّبت أصابعها على حواف الشباك. كانت تطلّ منه وتصرخ في الناس: «أنا نخلة عالية».

كانت الناس يتهيّؤون لدخول الجامع، يتجمّعون ويقفون تحت المئذنة، يرفعون الرؤوس ويتفرّجون، يحوقلون ويضربون بالكفوف على بعض. بصّ البرج إلى الواقفين وضحك: «الشيخ عمر راكب فوق نخلة».

رفع رأسه إلى الشيخ وإلى معافرة صابحة معه: «رجل في مثل سنّك وقادر على الركوب. ما شاء الله يا عمِّ الشيخ. احضن بالقوي وإلا تقع». كان عمر ينادي بحيَّ على الفلاح، والبرج يصيح: «الفَلَاح بعيد عن الأكل وحدك يا شيخ أبو حلاوة. هزّها شوية لينزل بلح إلى أحبابك». أخرج عمر رأسه من الشباك، طوّح بيديه وهو يصيح: «امشِ يا طينة وسخة. والله لأقول لسيدك ليضربك بالمداس». أكمل الأذان بينما يختلط صوته بكلامٍ وضحكٍ من تحت وفيما بينهما صرخات صابحة.

وخلال الصلاة، كان المصلّون يتذكّرون غضب الشيخ وقطع الأذان؛ فيكتمون الضحكات والأجساد ترتجّ والكفوف تحجز على الأفواه، قبل أن يغلب الضحك وينفجر فيعمّ الجامع. قطع عمر صلاته، التفت يؤنّب بغيظ: «لا تقبّلَ منكم ربّي يا كفرة. أأنتم ناس وتعرفون ربّنا أنتم؟». قبل أن يروح معهم في نوبة الضحك، لمّا قام البرج من بين المصلين وهو يحاوط بيديه على ثدييه، يتراقص بكتفيه ويقول: «بلحة واحدة من الصدر يا عمّ الشيخ».

قضتْ صابحة اليوم ما بين طلوع ونزول بالدفع على درجات المئذنة. ينصرف عنها الناس بعد الظهر؛ فتظل ثابتة في الشبّاك إلى العصر، ومن بعد العصر وحتى وقت المغرب. والمناجاة تتناقل الخبر؛ يعود الناس من الحقول والأعمال إلى الجامع مباشرة، وتتجمع النساء والعيال تحت المئذنة لمعاينة الممسوسة بالنخل. تسابق الأولاد في قذف المئذنة بالحجارة؛ وكسروا المصابيح المعلّقة على جانبي الشباك وهم يحاولون الحصول على البلح، ويبتكرون ألعاباً للتسديد في جسم النخلة المُطلَّة.

وجاء فوزي يسعى ولا ينظر في عين؛ بعدما وصل الخبر إلى عديلة المتربّعة في السوق أسفل ظلال العصر؛ فلملمت على عجلٍ حزم الفجل

والبقدونس والشبت في الجوال الخيش، وراحت في طلب فوزي، وحتى دون رشّ المياه على البضاعة كما تفعل دوماً عند نهاية القعدة لتحفظ نضارة الخضراوات الباقية. كان فوزي يرى صابحة وهي تتحجّر أمام باب المئذنة وتحاول المعاودة، والشيخ عمر يسدّ الباب ويدفعها بيديه في صدرها. هجم فوزي، جذب ذراعها فوقعت، واستمرّ في سحب الذراع وسحلها بالأرض حتى وقفت مذعورة في كفّه. كانت تجري وهو يلاحقها، يسكعها أمام الناس وخلال الطريق، وهو يحسّ بعاره الجديد يولد في عيون المناجاة، مضافاً إلى عاره القديم والخاص بالنسب وشرف عديلة. والشيخ عمر يصيح ويطالبه بثمن المصابيح المتكسّرة. وفوزي ينزع عنها السعف بغشومية ويركل، وهي تقع وتقوم، تفرّ من أمامه بطول البلد. وفي العشّة، أكمل الدكّ بكفوفه وبقدميه، وعديلة تحشر جسمها في المنتصف؛ تحول بينهما كمصدّ شجريّ أمام رياح غضب شيطاني، تدور أمامه بجسدها كلما حاول الالتفاف لإيجاد ثغرة، تلاحق ذراعيه وتمسك بهما، تبرِّر فعلة البنت بالسذاجة والصغر، وتتعهّد بعدم التكرار.

وغادر فوزي العشّة بعد وصلة الضرب. كان مبكّراً عن موعد خروجه المتسلّل، والذي اعتاده عندما ينام الناس وتسكن المناجاة. وعاد -أيضاً وعلى غير العادة- قبل طلوع الضوء، وبضجّة غير عابئة في الدخول، وبكلمات ردّ مقتضبة على اطمئنان عديلة على وصوله وحاله من خلف الساتر. اندسّ بجانب صابحة الممدّدة في نومٍ زائف. كان يتقلب بالفكر بعيداً عن أوان نومه، وصابحة تحسّ به، وتشمّ بين تقلّباته -في تلك الليلة وفي ليالٍ تالية- رائحة جديدة ومغايرة لرائحة جسده المعبّأ بالنخل.

في تلك الأيام، كانت تصحو مليئة بهاجس، وتظل واقفة أمامه، تختلس النظرات إلى الوجه النائم، وتدقّق في الخدوش المندملة في

العنق والصدر، الخدوش التي راحت تتقادم يوماً إثر يوم؛ فتتيقّن من حدس راودها خلال الليل. وأثناء لحظات التدقيق تلك، كانت تحسّ لوهلة بغربة ملامحه عنها، وتفزع من مشاركته إياها السقف نفسه ومكان النوم؛ فتنتفض أمام برودة مباغتة ومنبعثة من عمقٍ غير معلوم. وعلى عجلٍ تناولت الجلباب الأسود، حطّته على جسمها فوق جلباب البيت، لفّت الطرحة وخرجت إلى الخلاء. جلست تحت النخلة بهدوء وانكسار، بعيداً عن الغيرة والكراهية، تسند عليها الظهر وتمدّ يدها وتملّس، تلتفّ وتركن جبهتها على الجذع، تهمس: «فوزي ينام مع واحدة ثانية، غيري وغيرك، واحدة من بنات حواء. لا أقول لإثارة غيرة أو لوقيعة بينك وبينه، ولكن لا أحد غيرك لأقول ويسمعني».

وكأن فوزي كان في انتظار الخطأ؛ صار خروجه ودخوله دون خجل أو تبرير يُطيِّب الخاطر. كان يتخلّص من ذنبٍ مدفون في روحه تجاهها، وإحساس بالتقصير في حقِّ بدنها، يجاهر بالهجر، ونفسه تنتصب من جديد في مشوار الغواية، بعدما كان اللوم يضربه مرّتين إثر كل تفريغ لطاقته فوق الجذع، ويحني روحه بذنبين؛ واحد لمضاجعة الجماد، وثانٍ تجاه العروس التي حبس عنها الفرحة. كان اكتشافه لتوارث اللعنة عندما شاهد أبيه بين النخلات؛ قد أصبح حبلًا يعلّق عليه جبرية خطئه، ويمنع عنه دموعه بينما يحتضن نخلته قبل الزواج. لكن جاهزية البنت ومحاولاتها؛ أيقظتا في روحه إحساساً بعلّته. وحلاوة صابحة وعيون المناجاة التي تترصّدها؛ كشفت بصره على الزلّة. كانت تجيء وتحاول وتفتح عما بين ساقيها؛ فتلقي بالحمل على ذكورة معيبة وتقصير؛ فيلطمها بالكفّ وكأنه يلطم عجزه الذي أخرجته من داخله للعيان.

وصحيح أن جزءاً من عقله ظلَّ مشغولاً بالرابط بين ما فعلته البنت

وطريقة إدراكها لسرّه. إلا أن انشغاله الأكبر كان في مقدار معرفة المناجاة، وهل تهامست البنت بشيء عنه لحريم البلد؟

كان ضربه لها في تلك الليلة خارجاً عن حدود العقاب، وعيناه لا تريان صابحة أمامه؛ وكأنما يضرب روحه المخذولة والممنوعة عن النساء. ومن بين الهواجس العاتية وسهامه العدائية، كانت تأخذه موجة اللوم على ما وصلت إليه البنت، بعنفٍ غير مسبوق ولا يقدر على تخطّيه، قاذفةً به على شطوط خيبته. وحاول الخروج منها بالزحف تجاه فكرة اعتياده للبنت، اعتياد حاضر من التربية والنمو تحت سقف واحد في عشّة لا تستر، اعتياد يصيبه بزهد فيها، وبانعدام شغف وفضولِ الرؤية لمّا هو مكشوف قبلاً ومسبوق رؤيته؛ وأخذ روحه ليجرّب في بيت معلوم في قرية النخّاس، قضى عدة ليالٍ بنصف نجاح يدفعه إلى استمرار بأمل الخلاص وتدريب الجسم على نسيان القديم، لكن قديمه ضيّق عليه وما لبث أن تغلّب. وفي أول ليالي العودة إلى حضن نخلة الخلاء؛ كانت صابحة تتشمّم رائحة النخل إلى جوارها، تروح في نوم بينما تحسُّ برجوع اطمئنان مفقود. وبالرغم من نظرات الزوج التي باتت تحمل الكراهية على ولوجها إلى سرّه المغلق والموجع، إلا أنها أحسّت بشيء من ألفة، وهدوء بالٍ مستعاد لا يرمي كل العيب فوقها بنجاحه مع أخرى من بنات جنسها، بل يزيح جزءاً من العيب عن أنوثتها، ويشرك معها الرجل في أفكارها المتلاطمة عن الخيبة.

وفوجئت به في ليلة بعد عودته من الخلاء وهو يشعل المصباح فوق رأسها، ينزل ويستند بركبتيه على الأرض، ينكزها من الكتف لتستيقظ. تربّعت أمام وجهه. كان يسأل في خفوت: «لماذا لبست السعف؟». كانت تهرب من حصار نظراته، تتلعثم أمام سؤال متأخر حتى نسيت وجوده.

همست: «خاطر غبي يا ابن أمي وحبيبي. والنبي لا تزعل مني. صابحة طول عمرها ما خرجت عن طوعك». كانت تمدّ يدها بالطبطبة فوق كتفه، وفوزي راضٍ بالتواطؤ الحاصل، لا ينكز بأسئلة أخرى، ولا يريد للسرّ بينه وبينها إلا أن يكون كرأس نعامة.

وكمزيج من مكافأة وتوتّر منزاح عنه بكلماتها، وثقة إثر معاينته لقدرته على بلوغ درجة من نجاح في بيت النخّاس؛ ضاجعها لأول مرة، غارساً بذور البكرية داخلها. كان جماعاً بلا متعة، بتعجّل، مختلطاً برائحة النخلة في منخرها، وبعَرَقٍ يشبه تعب العزق في الغيط تحت الشمس.

وأخذتها صابحة كبشارة لبداية صلحٍ مع الدنيا، متسامحة مع السقطات الجديدة، ومعتبرة إياها عثراتٍ لازمة في طريق مجاهدة لعادة راسخة. وكثيراً ما نهضت من نوم متقطّع، عند عودته المتأخرة إلى العشة؛ تعرّي جسده، وتغسل الجروح بضغطات خفيفة من قطعة قماش مبتلّة، تحفظها في إناء ممتلئ بالمياه بجوار موضع نومها، ثم تتناول شرائح من الصبار، تقطّعها وتضغط لينزّ عصير الصبار فوق الجلد، تُدلِّكه بأصابعها مُوزِّعةً إياه فوق الجروح. كانت يدها تتجرّأ يوماً عن يوم؛ وتمتدّ من مداواة صدره إلى الهبوط نحو ما بين ساقيه، بينما هو يتأوه، ويحبس بداخله كلمات شكر مخلوطة بطلبٍ للسماح موشك على الخروج مع الاعتراف بالزلّة.

أصبح فوزي يتذوّق ضربة الحب من باب الامتنان، متخلّصاً من الاعتماد الكليِّ على خيط شعوره بالشفقة نحوها، الخيط المنسلّ من إدراكه لبؤس البنت، والخيط الذي كان حريصاً على وجوده للاحتفاظ بها تحت سقفه، والتعامل معها بحدّ الكفاية، وبما يضمن استمرار الحياة أمام المناجاة وأمام أمه.

وصحيح أنه كان يفيق أحياناً من ضربة الحب تلك على إحساس

بكراهية؛ فينتر اليد المداوية بعيداً عما حول ذكره، يفزُّ من رقدته ويتربّع قبالها، يستجوب بتربّص عما قالته للنساء عند البحر، أو خلال الرغو أثناء زياراتها للمساعدة في الخبيز داخل بيوت المناجاة. يتسلط على رأسه خداع تسامحها، ويراه مشتغلاً كمحراث يحفر خطوطاً مؤلمة في قلبه لإسقاط بذور الامتنان تلك في روحه ومشاهدة نباتها؛ فتسحبه تلك الكراهية لأيام طويلة ومتوالية نحو الخلاء، انسحاب ظاهره لعينيه الكراهية ومقابلة شعوره بالخداع، بينما أصله انكسار مقاومته، وانعدام شهوته في صابحة.

أصبح يعاير البنت لأول مرة -منذ دخولها إلى كنف أمه- باليد التي أطعمت وآوت. كان يخبط بطنها الحبلى حينما تتأخر في مناولته قُلّة أو إعداد أكل. وعندما تنسحب البنت بدموع نحو عديلة، كان يصرخ: «جميلنا فوق رأسك ولا تقدري أن توفيه يا صابحة يا بنت من لا نعرف». تمتدّ إليه كلمات عديلة التي تعيب قولَه مع إشارات تطالبه بالتوقف من خبطات متتالية وسريعة من الكفّ على الفم. لكنه يمضي ويكمل عليها في مواقف أخرى؛ يطلع إلى العتبة ويشير ناحية المصرف وهو يصرخ: «لولا أمي لكنت ميتة في البرد أو في بطن كلب من كلاب الخلاء». وساهمت رؤيته لها كمُحمّلة بجميل في تخفيف أثر الامتنان، وكحائط دفاع ينتشله من بين لحظات يرى فيها امتنانه كمذلّة. كان يتبادل معها الأدوار في عقله، ويتخلّص من إحساس بالصغر في عينيها، بينما يصغُر صبرُها وتَحمُّلُها في عينيه.

كانت بطنها تكبر، وارتباك فوزي واضح، ومعاملته الجافة أظهر. وكلما بشّرته عديلة بالولد؛ كانت ملامحه تنقلب. وعندما تهمس له صابحة بأن رفسته في بطنها تدلّ على شقاوة ولد، وأنه سيكون لأبيه؛ كان يشيح بالوجه عنها ويردّ: «ستكون بنتاً إن شاء الله».

وفي أواخر الحمل، ظلَّت عينه على البطن، تطلب عديلة من البنت أن تستريح، ويجاهد هو في منع الراحة ويكلّفها بمشاوير وأشغال لا قيمة لها. وعندما أشارت عديلة إلى حجم البطن الكبير بينما يجلسون إلى طبلية العشاء، وربطته بقدوم الذكر، لأن الذكر أكبر في الحجم من الأنثى؛ قلب فوزي الطبلية بما عليها من أكل، ورفس بطن صابحة مباشرة ودون سبب. كانت عديلة تستغفر الله، وتستحرم رمي النعمة، تردّ عليه: «كل واحد يأتي برزقه يا ضنايا»، وهو يتوعّد: «والله سأخنقه في الرمل يا صابحة».

وأمام رعب كلمات لا تملك عليها الردّ، كان الخوف يتحكّم ولا تقدر على تقديم التسامح بأيدٍ ثابتة؛ فينقطع –حتى– خيط الشفقة الأول. وكثيراً ما انفرد بها في العشّة في أثناء الحمل وضربها. كانت تشعر بها كمحاولات إجهاض؛ وباتت تتعلّل بأسباب ملفّقة للنوم بجوار عديلة، وللذهاب معها إلى السوق، مبتعدةً بحملها الذي اقترب بعد يأسٍ عن وساوس جنون. كانت صابحة تأخذ جانب الدفاع، تلمّح بصحّة شرفها في ذلك الوقت، وكثيراً ما تردِّد أمام أذنيه كلمات ذات معنيين، كأن تقول: «أنا بنت عديلة، واليد الشريفة ربّتني أمام عينك، وأنا أبوسها وأحطّها على رأسي». وهي تظن أن رغبته في الخلاص من بطنها مبعثها شكٌّ في قدرته، وطعنٌ خفيّ في شرفها، بينما ظاهر الجملة هو إظهار المعرفة بحق الجميل ومدح المُنعم، والموافقة المنكسرة على معايرته.

ولكن ما إن أتت أميرة حتى هدأت نفسه. كان يتناول البنت في كلّ مطرح، لا يجلس إلا وهي في حِجره، وتأخذها صابحة بصعوبة من بين يديه للرضاعة. وعندما مرضت أميرة؛ كان يموت وهو يتنقّل بها بين المداوين في الغزالة والنخّاس. ومع بدايات الشفاء، تحايل على عديلة لأخذ القروش التي تحفظها تحت البلاطة؛ وعملَ صينية رضوة للبنت،

واضعاً فيها: سبع بلحات، وسبع فولات، وثلاثة أرغفة قمح، وسكّر ومعسل، ثم أرسل عديلة لتضعها في الطَلِّ بين مقابر البلد بعد صلاة العشاء.

كانت صابحة تستغرب الحال وتقارن بما قبل، ثم تنسى تحت وطأة وعدٍ بحلاوة القادم. وحال الرجل ينصلح؛ يصحو مع الشمس، ويجري على عيشه في الغزالة مع أولاد أبو لبدة، أو يحاول التقاط الرزق من المناجاة الضيقة.

لكن الصلح –ومرة أخرى– كان ينكسر بالتدريج، يبدأ بالتأخر لساعةٍ أو اثنتين في أعقاب العمل في الغزالة، ثم بالتأخر إلى منتصف الليل قبل العودة إلى الأهل. ينسى أميرة وتخفت اللهفة. تظهر جروحه من جديد. واستقبلت صابحة مروره بالنخلة في طريق عودته من الغزالة بشيء من التسليم والموافقة على أقل الضرر، وهي تحتفظ –على الأقل– بجسده إلى جوارها في أثناء النوم.

لكن تسلّل الليل عاد، وامتلأ القلب بحبّات يأسٍ من طَرْف جاروف غشيم، ينزل وحافته الحادة تشق القلب بلهوجة، في أثناء نقلات سريعة ومُصِرَّة على التعبئة.

وفي صباح، كانت تسند فيه ظهرها إلى الجذع والبنت في حجرها، مدّت يدها إلى النخلة، ملّست وطبطبت، وسألتها بالحنية عن العمل. كانت تخرج ثديها من شقّ الثوب، وما زال مرتفعاً ومدوّراً ومشدوداً؛ تسنده من الأسفل بيد، وبالأخرى تُملّس فوقه، تنظر إليه في حسرة وتقرِّبه من الجذع، تعصره وتحكّه بالوقل، مقرِّبةً شفتيها وهامسة: «أيرضيكِ ألا يذوق أصابعه! ولا يتعلّق فيه عيّل آخر! إن كان؛ فأنا على أمرِك».

كانت صابحة تقلب ثديها فوق الجذع، تفركه وتضغط، تُدرُّ لبنها

عليه، وكأنما تحنّن قلب النخلة على الحال. ظلَّ الثدي يحسّ الخشونة، والحلمة تنفر وتحتكّ، ويد صابحة تهزّ بلا وعي، بينما عيناها تروحان وتسرحان في الخلاء.

وكأنما همست النخلة بصلح، وكأنما سمعته صابحة؛ عادت إلى العشّة مسرعةً وفي صدرها ضربة من أمل. كان الرجل نائماً وهي تلقي بالبنت فوق اللحاف الصوف، في ركن عديلة الغائبة في السوق. نزعت ثيابها بلهفة، وغطّت البدن العاري بسعف النخل. كانت تضغط السعف فوق الجسد، وتثبّته حول جسمها بليفٍ مفتول، تحرص على غياب البدن كاملاً تحت السعف، فلا يبدو منها إلا ما يمكن الشوف به.

كان فوزي يصحو ويرى نخلة لا يظهر منها سوى شعرٍ نحاسيّ يشبه الليف، وعيونٍ خضراء كأوائل البلح؛ تتعربد الشهوة ويلاحقها في العشّة وحتى الخارج أمام المدخل. يشيل الجسم بين ذراعيه ويدسّ فيه وجهه، يُرقدها، ويستطلع الفتحة من بين السعف، وذكره ناشف وقائم أمامه، بينما صابحة تتجاهل حدّة السعف فوق الجلد وشرائط الجروح، وتضحك كعروس لأول مرة منذ دخوله بها، تروح وتتذوّق غرابة حلوة لشهوة صادقة وجديدة عليها.

لكن ثمار اللعبة أصبحت أقلّ يوماً عن يوم، والرجل يعود إلى زهد الجسد، وأفعالها لاستثارته –وقد باتت أكثر جرأة وعلناً– ترتدّ بإهانة، تصفها بعدم الشبع والانحلال، تدفنها كدموع مع وجهها فوق اللحاف الصوف، وتكتم الصوت كي لا يصل إلى مسامع عديلة. وفوزي تحمل عيناه المعرفة بانكشاف تمام أمره؛ فيفعل دون مراعاة، وبتحدٍّ تامّ لرجلٍ مخطوءٍ أمام بدنٍ ضعيف ومُجرَّب.

واجتهدت لتدخل في سباقٍ محموم مع غريمة لا تجتهد؛ تزيد صابحة

من السعف والليف فوق جسدها لإحضار الزوج بين الفخذين، تُحضر سُباطة تَمْر، تضعها فوق الصدر والبطن، وتغطي كامل الجسم والوجه؛ فلا يراها ولا تراه، ولا يظهر منها إلا فتحة من تحت أكوام السعف. كانت تسكن كجماد، تكتم آهات متعة، وتخرس كي تتلاشى؛ مانحة إياه الشعور بتمام النخلة بين يديه.

وفوزي يستجيب في مرّات، يستخدم حسب مزاجه، لكنه يلتفت إلى غاويته الأولى في الغالب.

في ذلك الوقت، كان الجوع يضربها بعد مرّات من استعمال الأنوثة، جوع من ذاق، خالصاً للجسد، وبعيداً عن رغبة في أمومة أو إثبات لأنوثة أمام نفسها وأمام المناجاة.

كانت الدماء تحمى في العروق؛ وهي تخرج في آخر الليل بعد طلوع فوزي، ماضية في الجهة المعاكسة لخطوات الزوج، ذاهبة باتجاه المناجاة، وهابطة في ماء السلّانة البارد. كانت تحسّ بالنبض وبنمل يأكل، وبحاجة إلى ما يملأ. والدموع الليلية تذرف في سبيل الشبق وليس الهجر؛ فتؤنّب روحها، وتضيق عليها الدنيا بتحوّل مباغت ينزل بها إلى إحساس بالنجاسة، وتفكر في ترك رأسها أسفل الماء لتستريح من الدنيا وما فيها، بينما تنقع الجسم في ماء الترعة لتزيل بقعة مُتملِّكة وبرائحة قذرة.

وفي صباح بارد بسماء رمادية وغيم ثقيل، كانت تجلس تحت الجذع، تبكي وتشتكي. تقبض على وقلة بأصابع اليد وكأنما تحفر. تتوجّع من شوكة أحدّ عليها مما سبق. ولم تشعر بيدها الأخرى وهي تتسحّب وتندسّ بين الفخذين، والأصابع تلعق وترفرف. أغلقت العينين وتأوّهت، أخرجت ثديها وحكّت الحلمة في خشونة الليف، دحرجت الثدي فوق الوقل، وكلبشت في الساعد بساقين مضمومتين. كانت تمتصّ في الوقل،

تشهق بأنفاس تضطرب، تترك حبل روحها على غارب اللحظة؛ فتنخر وتكزّ بالأسنان على الشفة، تتشنّج بدفقات كهرباء سارية لكنما بعيداً عن الألم، وتشعر بماء رطب ولزج يسيل على الجلد.

*****

بعد سنوات من الزواج بعلوان وخلال الحمل في البكريّ أحمد؛ كانت سميرة الفيل تحتفظ دوماً وأينما راحت بكُرات صغيرة من طميٍ أحمر تجلبه أمّ عبده من حواف السلّان ككتلة واحدة في حجم قبضة يد. ومدفوعة من خلال هبّات وَحَم حارقة وبلا مقدمات؛ كانت سميرة تسرع تجاه أي غرفة أو ركنٍ خاوٍ بمشية بطّة منغرسة ومتأرجحة في استعادة لا واعية لطفولة النخّاس. تدفس قطعة طمي وراء أخرى في فمها، وتحسّ باللسعة الخشنة لأصول العناصر، بينما صدرها يعبُّ الأنفاس في راحة ما بعد ضنى.

وكان يحدث أن ينفد الطين من جيوب سميرة في ليالٍ نتيجة لشراهة غير متوقعة وكاسرة للحسابات؛ حينئذٍ، كانت تتحوّل إلى بهيمة مضطربة ومتخبّطة بين جدران البيت، وبأنفاس متقطّعة ومسموعة بسبب مجاهدات الصدر. كانت تدور في الظلام فيما هو أكثر من لمسات الأيدي، بلسان متدلٍّ ولاعقٍ لملاط الجدران والأزيار، وبمحاولات نابشة في أرضية البيت لإيجاد تصبيرة، حاشرة في فمها أكوام تراب لا مستساغة وبعيدة عن ذاكرة التذوق، بينما تروح على الشبابيك بين لحظة ولحظة مستطلعة أول النهار؛ فتلفحها رائحة الأرض الطالعة بغرزات من إبر ندى، مضيفة مزيداً من هياج وتوق.

ومع بدايات النور وما إن تُميِّز سميرة صوتَ أم عبده وهي تُصبّح على الخفر أمام الباب؛ حتى تتفلّت من أعضائها كسجين يتهيّأ للطلوع من

محبس. وما إن تعبر أمّ عبده عتبة البيت حتى تخبط بسميرة، التي تسرُّ فوراً وعند العتبة بحال الليلة في وشوشات عذابات مستنجدة. بعدئذٍ تستدير أمّ عبده مباشرة وتغادر البيت مرة أخرى وهي مصحوبة بالتوصيات المكررة، وبطبطبات ظاهرها الامتنان من يد سميرة، لكنما هي دافعة بقوة نحو الباب لدرجة مؤلمة وغير محسوبة في بعضها نتيجة لهفةٍ واستعجال على الطلب.

كانت أمّ عبده تنزل من البيت نحو الجهة البحرية، حتى تتسلم طريق التفريعة، تمضي فيه، وعلى يمينها تمتدّ صفحة السلّان بصفاء بدايات المجرى، مع لطخات ذهبية من أطراف فرشاة الشمس. وقبل بضعة أمتار من بلوغها نقطة الأمن القابعة قرب نهاية الطريق وفيما قبل قنطرة الخفر؛ كانت تتوقف متلفّتة في الجهات، وتعاين بلهوجة طيِّب مُستجَدّ في المكر، قبل أن تنحرف يميناً، مسرعةً إلى جهة الشط، ناحية المنطقة الهادئة فيما خلف النقطة، والمغطاة بأوراق غزيرة جافة وقرون بُنيّة متساقطة من أشجار سنط ظليلة معمرة ومتداخلة الأفرع. كانت أم عبده تشعر في تلك اللحظات بأنها بعيدة عن حسِّ النهار، وخارج الزمن بالعتمة الخفيفة لشبيه دغل تضربها فيه رهبةُ الانقطاع؛ فتتأفّف من عجلة سميرة، ومن مشوار أول النهار الذي لم يكن على الخاطر. تنحني وتنتش كتلة طين وهي تفحص اللون وتختبر الليونة بضغطات خفيفة، بينما تتهامس مع روحها باستفهامات عن صلاحية الكتلة، وفي دماغها تحضر توصياتُ سميرة بإحضار قطعة تماثل شكل السابقة وطعمها. وربما أفلتت بلعنة على الحَبَل وسنينه؛ حينما تخلط بين قرون السنط والطين أسفل غزارة الأوراق، قائلة: «وهل أنا ذقت لأعرف طعمها يا ست!»، أو تجهر بسباب حينما تبقى منكفئة لالتقاط كتلة وراء أخرى ناشفة وغير مرضية لدلع الحبل. لكنها وما إن تخرج إلى النور وتستلم الطريق مجدّداً؛ حتى كانت ترفع وجهها

إلى السماء وتطرق الهواء بظهر الكفوف، داعيةً بالفرج لسميرة، وراجية في إخلاص بتمام الحمل على خير في هذه المرة، مُعدِّدة لربّها محاسن سميرة وطيبتها؛ وكأنها تخشى النسيان في وسط زحمة الخلق. كانت بعد ذلك ترتبك للحظات وهي تفكر في خطيئة الظن بنسيانه، والعقل يتلخبط ويتوقف في بحر شكوك، مفسحاً المجال للّسان الذي ينطلق لنجدة سريعة؛ فيُلحق كلّ ميزة من ميزات سميرة بقول «وأنت عارف»، ضاغطاً على الحروف بحرقة إيمان، وبطبقة صوتٍ أعلى من همساتها بالميزات والمحاسن، في طريقة مؤدّبة ومحترمة لاستكمال تذكيره، لكن من خلال الجهر بمعرفته للباطن. ولكن وقبل أن يلامسها اطمئنان، كانت تعود وتفكر في أنها وقعت في حفرة من عمل اللسان، وأن لسانها استغل عطلة العقل وتحايل بغرض التحرر من الهواجس وتجاه استكمال الدعوات؛ فتشيح بيدها وهي تطبق عينيها صائحة «أخ» بغيظ، وترى روحَها انخدعت ووقعت في خطيئتين بدلاً من واحدة؛ فقد تخابثت مفترضة قناعة الخالق بهذا التلاعب، كما استكملت التعامل على أساس جهله بالخافي في بالها. كانت تخرج طرف لسانها وتقرصه بين السبابة والإبهام وهي تردّد أنه زالف ويحتاج إلى القطع، تستغفر في ندمٍ مخلص، ثم تحبس ميزات سميرة في البال، بينما لسانها يكتفي بترديد «وأنت عارف»، في حلٍّ عقليٍّ ومُرضٍ من خلال إعطاء التعظيم الواجب لتمام معرفته بالدواخل. تعود بعد دقائق وتحس بأنها قليلة الأدب وتتعامل معه كطفل تضعه في حزورة، وهي تنتظر شطارته في كشف غير المعلن؛ فتخبط بالكفّ فوق رأسها مستدركة وهي تلعن دلع الحبل وسنينه.

كانت الأفكار والتمتمات تتعارك في الرأس واللسان، وأم عبده تستكمل المسير نحو الغرب في طريق التفريعة، متخطّية نقطة الأمن وعابرة

فوق قنطرة الخفر إلى الجهة الأخرى من السلان حيث طريق المناجاة، مكملة إلى وسط البلد لقضاء حاجات فعليّة للبيت أو لإحضار ما لا لزوم له وما تعلّلت به أمام الخفر للارتداد نحو الخارج، وتحسّباً لعودة يمكن أن تأتي بعد صَحَيان سيدها صاحب المزاج العاصف في أول النهار.

وعند العودة؛ كانت سميرة تتناول الكتلة بلا شكر؛ ناتج من لهفة وليس سوء أدب، ومباشرة تقضم منها قطعة بينما تخفُّ تجاه المسطاح الخلفي وهي تمصّ وتلوك. وهناك، تتربّع كعادتها على الأرض، وتفرش في حجرها منديلاً مزركشاً بورود حمراء غائبة في الوساخة، تقطِّع فوقه الطين إلى أحجام أقل من عقلة إصبع وتكوّرها، تبرم أطراف المنديل وتعقدها فوق القطع محتفظة بها في جيب الجلباب. وأحياناً، نتيجة حرارة في منتصف النهار، كانت تشعر بتصلّب القطع في فمها؛ فتخرج المنديل وتبلُّ أطراف الأصابع من الزير، ثم ترشّ فوق المنديل قطرات الماء لتُبقي على رطوبة الكرات.

وعموماً، كانت كلمات سميرة للناس قليلة منذ سلّمها أخوالها في النخّاس إلى بيت القط في المناجاة، لكنها ندرت خلال شهور الحمل، بينما ظلت تفيض على جدران الدار بنداءات واستعطاف. كما أمسكت بزمام نفسها بعيداً عن ضحكة فالتة أو أقل مُحيّا لبهجة؛ ملتزمة في صرامة بنصائح أم عبده، على أمل انطفاء غيرة القرينة وتمام الحمل. ولضمان الاختلاء بجدران البيت بعيداً عن معايرة علوان وشتائمه؛ كانت ترقد بجواره في الفراش بأعين مفتوحة على السقف، وأذناها تلتقطان حفيف أوراق الشجر من خلال الشبّاك الموارب على اليسار، وطنين وأزيز حشرات من خلف النسيج السكّري للناموسية. وما إن تسمع انتظام أنفاس علوان وتتأكد من رواحه إلى النوم حتى تغادر فرشتها، متحسّسة الطريق

في الظلام، بينما تطوف حافية على الجدران واحداً بعد واحد، تملِّس عليها بالكفوف وتوشوش في غمغمة غير مفهومة، مبتدئة بحيطان غرفة النوم، وماضية في ملازمة الجدران حتى صحن البيت. وفي بعض الليالي وكنتيجة للتعجّل؛ كان علوان يستيقظ من خفّة بدايات النوم على همساتها للجدران، يرفع رأسه مستطلعاً بعينٍ ناعسة، ويستعيذ بالله منها ويسبّ قلّة العقل، قبل أن يثقُل رأسُه بحمولة التعب ويسقط فوق الوسادة مرة أخرى، عائداً للنوم، ويده تسحب اللحاف فوق رأسه من برد الشتاء ومن وشوشة سميرة، بينما يهرف بكلمات مُتوعِّدة عن العقاب، وأن الصباح براح وله عينان. أما في أوقات عافيته، التي صارت سميرة تميّزها من نشاط حركاته وانطلاق لسانه قبل دخوله إلى السرير، وتمثّل لها ذعراً بلا حدود يدفعها إلى حرص وإلى إعادة الترتيبات؛ فكان يسكت، يتسلّل من الفراش ويقف خلف ظهرها، يقدِّم أذنه لثوانٍ في محاولة –بلا فائدة– لفهم تلك الوشوشة، يعتدل بعدئذٍ ويرفع ذراعه عالياً، وينزل مناولاً القفا بغيظٍ وبعزم ما فيه لمرّات متتالية، بينما يستقبلها الحائط كمصدٍّ راسخ، وصريخ علوان يشرخ عز الليل: «ولا واحد عاقل يميّز من هرتلتك كلمة يا بنت الكلب. يا عرة الزوجات. يا ماعون خراء وقعت فيه». كان علوان يجرّها من يدها نازلاً فوق الدرجات إلى صحن البيت، في قفزات واسعة يكاد هو نفسه أن يسقط معها. ينده ويرسل من يوقظ الخدم مستدعياً الكلّ من العشش والدور المحيطة بالبيت، يأمر بإشعال الأضواء، يسحب كرسيّاً إلى وسط القاعة ويجلس فوقه ساكناً، وأمامه تقف سميرة ترتعش بالنحيب من آثار مباغتة لا تزال تحجز وراءها الشعور بالألم؛ فيعامد علوان بسبابته على شفتيه في إشارة إلى الصمت. كان الخفراء والخدم يدخلون واحداً بعد واحد وهو مكتفٍ بإشارة من طرف عصاه ودون كلمة للوقوف في صفٍّ

واحد خلف سميرة؛ يتراصّون وهم في جهاد لصلب الأطوال من خلال فرك العيون ودعك الرؤوس. ولمّا يكتمل العدد؛ يبدأ علوان في حفلة تستمرّ إلى بدايات الصبح، يمسك عصاه، ينقّلها ويشير بطرفها إلى أنحاء البيت وفي ملامحه قرف، يبصق جهة سميرة ويقول في استهجان: «زبالة في كل ناحية. مثل البهائم تأكل من مطرح ما تشخ. هل هذا بيت القط! هل هذا بيت أصلاً؟! أنا قاعد لك يا رمّة حتى تنظف كلّ زاوية». يهب واقفاً من انفعال، يكمل: «مهما عملتِ، يبقى هذا بيت محمد القط غصباً عنك، وغصباً عن أيّ نفر. الناس تسميه بيت القط وليس بيت القطن. من غير نون يا وسخة». ينقل طرف العصا، يسدّده تجاه الواقفين من خلفها «ولا واحد من كلاب السكك الذين يستعبطونك سيمدّ يده. سيقفون ويتفرجون عليك وأنت تنظفين كل البيت. وسأرمي الماء في كل ناحية. وستنظّفين الأرض بماء، وبصابون يا بنت خديجة الفيل».

تنتقل سميرة أمامه ببطن منتفخة وخلفها الخدم يتفرّجون. تتناول في يدها مقشّة أرز ودلو مياه وقطع خيش. وعلوان يخبط بعصاه في عنف فوق أيّ ذراع تمتد للمساعدة؛ ماحياً لإحراج يعرف أنه مصطنع، لكنه يمكن أن يحرّضهم على تناسي التنبيهات وتكسير كلمته. يدور بطرف العصا مشيراً نحو الأجساد ويقول: «بيت فيه عشرة خدم ولا أيّ نظافة. تطبطبي عليهم وأنا أضرب. شغل مكر؛ أنت بنت الأصول الطيبة وأنا النار المكروهة. المفروض أن الرجل بحر والست جسر، وأنت عكستِ الآية يا سميرة».

كانت سميرة تنفض الأكلمة وتكوّمها جانباً، تكنس الأرضيات بالمقشّة، ثم تنكفئ وتفرك بخيش مبتلّ، تسرع وتحاصر آثار المياه بخيش ناشف. لكن وما إن تجفّ الأرض؛ حتى يضرب علوان السطل بقدمه لينساب الماء تحتها وهو يشير إلى عدم رضاه عن مستوى النظافة؛ فتقوم

هي مفزوعة وجارية في كلّ الجهات، تحاوط على الماء بقطع الخيش الناشف. كان علوان يراقب ذعرها بدهشة سرعان ما يحجزها وتنقلب إلى ضحك مفتعل، يختتمه بتصفيق الكفوف وهو يطلب الصبر على البلاء. يهزّ رأسه ويقول: «كيف كانت تتدحرج الست أمك يا سميرة! أخذتك من بيت مجانين ولله الحمد. اسمعي يا بنت خديجة، أنا لست محمد الفيل لتركبي فوق ظهري بجنانك وتدلدلي رجليك».

كان يظلّ في ظهرها حتى بدايات النور، يشير إلى بروزات خشنة وداكنة منتشرة في الحيطان قائلاً: «وساخة في كل ناحية». يحدّق في ظهرها وهو يهزّ رأسه في أسى ناتج من شعور بقلة الحظ بينما يرى الأوساخ المنتشرة في جلبابها وبقع الطين، يقول: «زمن أغبر». يفيق من ندبه ويرفع عصاه، يهزّها في الهواء «انظري يا رمّة! ورحمة الغالي الحاج محمد القط، إن وقع ما في بطنك ودفنتهِ في الجدار هذه المرة من وراء ظهري، والله لو كان في خُن، سأعرف. أنا عارف لعددهم. وسأهدّ كلّ جدران البيت وأرميها بما فيها في البحر. ولا يهمني إن كان بيتك أو بيت الباشا نفسه». كان يدقّق أمام كلّ هفوة، ينكز ظهرها بطرف عصاه وبقوة حتى تتأوه، ثم ينقله نحو أتربة لم تلاحظها سميرة وأركان منسية، وهو يقول كأستاذ يائس من تلميذ خائب الرجاء: «خذي نفحة من بركة القط يمكن أن ينعدل حالك».

كان الجمع يتنقل خلال ساحات البيت وغرفه، ينتصب الخدم بالمصابيح كأعمدة إنارة، وعلوان يطلب منهم الاقتراب وتسليط الضوء في كل زاوية عقب عمل سميرة. وخلال فرك البيت كان علوان يدوس مرة أو مرتين فوق إحدى البلاطات المخلّعة؛ فيميل ويحسّ بأنه سيقع، يهيج ويهدر: «كلنا يا رمّة سنمشي نرقص مثل أهلك ونقع متكسّرين بفضل جنانك وبفضل نصائح الحيزبون». حينئذٍ كان يستدير مُنقّلاً عينيه ومفتّشاً

في الوجوه، يشرئبّ بعنقه ويسأل: «أين كبيرة الياوران؟». وحين يعثر على ضالّته الضئيلة مستترة وراء الأجساد؛ يشير بأطراف أصابعه إلى اليمين وإلى اليسار لتنزاح الأجساد مبتعدة عن أمّ عبده التي تقف قباله وكأنها جرباء مُتجنَّبة. كان يحدّق فيها لفترة حتى تتلخبط أعضاؤها. يثبِّت طرف عصاه في الأرض ويستند على رأسها الفضّي بكوعه، يضع ذقنه على كفّه ويميل بجسمه إلى الأمام وإلى الخلف مع العصا بينما يغمض عينيه وينغّم ويمطّ أواخر الحروف: «أنت أصل الداء واللعب في الدماغ يا حيزبون!». تتلفّت أم عبده في الوجوه وكأنها تسأل عن مُعين، تقول: «وأنا ما لي؟!». يفتح علوان عينيه، يستدير إلى البرج، يرفع العصا ويطوّح بها ناحية أم عبده «خذ الثعلبة العجوز إلى الغيط. ترمح بها من هنا إلى الأرض الغربية. وطوال النهار تعزق وأنت واقف فوق رأسها. ولا ترجع بها إلا بعد العشاء. وسأمرّ عليكم لأشوف يا برج». يردّد على ظهرها وهي ماضية في رفقة البرج: «كُهن النسوان لا يسلك مع علوان». يشير بطرف سبابته إلى جانب رأسه ويكمل: «أنا قط يا عجوز ولست حمامة للأكل».

ولذلك؛ تعوّدت سميرة أن تتمهّل قبل الخروج من جوار علوان، منتظرة إلى ما بعد التأكد من تمام نومه، وخاصة في الأيام التي يتبدّى فيها نشاطه. كما تعوّدت أن تبدأ بالطواف على جدران الدور التحتاني، قبل أن تعود وتختتم جولتها الليلية في الطابق العلوي أمام جدران غرفة النوم. وعند جدران غرفة النوم كانت تهمس باعتذارات عن التأخير، وتقسم أن لها الأولوية في القلب وأنهم أول ما شافت العين، لكن الترتيب في المرور ليس بيدها، بينما تتلفّت مُستطلعةً النائم من بين همسة وهمسة. وفي أوقات من ليالٍ يتأخر فيها رواح أم عبده؛ كان يحدث أن تتعثر بها خلال الظلام عند ساحة البيت، وشفتاها ملتصقتان بالتمتمات في الحائط؛

فتتناولها أمّ عبده من يدها، وبحسٍّ هامس تسألها العودة إلى الغرفة كي لا يصحو علوان ويتفقّدها ويبدأ وجع القلب. وكمن يُلاطف طفلاً وينزل إلى عقله؛ كانت أم عبده تصطاد لها العلامات والبشائر، تُؤوِّل وتحلف، تُطمئِن بقدوم الفرج هذه المرة، بينما تُساهِي، وتأخذها صاعدة الدرجات الخشبية وعائدة بها إلى غرفة النوم. وفي أحيان، كانت سميرة وهي بعيدة عن النوم ومتلهفة للمزيد من اطمئنان تسحب معها أمّ عبده تجاه غرفة المضيفة في عناد طفل غير قابل للمساهاة. تتربّع فوق الأرض رافضة الجلوس على الكنبة الكبيرة إلى جوار أم عبده، قابضة على كفوف المرأة، وسائلة عن مزيد من علامات. كانت أم عبده تجتهد في الصيد حتى فراغ الجعبة؛ فما تلبث سميرة أن تصيد لروحها بشائر وهي تطلب تأكيدات وموافقات من أم عبده حتى خروج النور. تُفاجأ أم عبده بخيوط الصباح التي تتسلّل من شبّاك المندرة، وتنهض في ضيقِ مخدوعٍ بعدما ضاعت فرصة راحة وقضت ليلتها بعيداً عن العيال والزوج. وفي محاولات قَلِقة ساعية لفضّ الجلسة أمام كتلة عناد؛ كانت تأخذ بذراع سميرة وهي تدندن أغاني بشارة بصوت جميل ودافئ حتى غرفة النوم. وفي مراتٍ؛ كانت سميرة تتمدد على أرضية المندرة، بينما رأسها في حِجر أم عبده، وأذناها متعلقتان بغناء المرأة، حتى تروح في غفوة تفيق منها على صوت علوان المستيقظ للتو.

كانت بطن سميرة قبل أحمد صنبوراً للموتى، وانسلت خلال عشر سنوات ما يقرب من ثلاثين جنيناً ميّتاً، تأخذهم من أسفلها أم عبده، تحفر وتدفنهم في كوة داخل جدران البيت، وتَسدُّ فوقها بطوبة وتليّس بالطمي، تبشِّر سميرة بسلامة الجنين القادم بعد مراضاة القرينة ودرء أذاها. وفي مراتٍ؛ كانت أم عبده تفصل المشيمة وتضعها داخل سلطانية مع رغيف

خبز ورطل ملح، تخلع بلاطة أو اثنتين من أرضية البيت وتحفر، تدفن السلطانية وتكبس بالتراب وتعيد فوقه البلاطات.

جرّبت سميرة الأولياء، حملت الأحجبة، شربت مناقيع ووصفات، كشفتْ جسمها ونامت وظهرها على الأرض في عراء المسطاح، والنساء يفرشن فوق بطنها عجيناً من دقيق، يُثبِّتن في العجين فوق موضع سرتها قوالحَ ذرة ويشعلن في رؤوسها النار، ويضعن قِدراً فخارياً للحظات فوق القوالح المشتعلة ثم ينزعنه بقوة؛ فتَصدُر فرقعة مكتومة، يُبشِّرن بزوال الغازات التي تزاحم الجنين في البطن ويتلقّين الأجرة، ويغادرن الدار قبل المعاودة بحلول أخرى.

لم ينقطع أمل سميرة ولا التجريب، حتى عندما تزوج علوان بنتاً من أولاد لبدة لليلة واحدة؛ بعدما أسقطت بطن سميرة أكثر من عشرة أجنة في بدايات الزواج. عرفت سميرة بعزم علوان على الزواج من الغزالة قبل أن يخبرها هو. كانت تشاهد الترتيبات التي يتخذها في البيت، وإعادة طلاء الغرفة المجاورة لغرفتها، وتأثيثها، والتي كان يستخدمها أبوه في زمن ما للقراءة. كان علوان يعبئ الكتب بحماس في زكائب، ويأمر الخفر بالحرص أثناء تشوينها في ركن من غرفة الخزين للحفاظ على شيء من رائحة القط وعلى نوادر كتبه من أيدي بهائم البيت. ينزع الرفوف الخشبية من الجدران ويعمل على تقطيب الثقوب. بينما يبرّر ذلك –ودون أن تبادر هي بسؤال– برغبته في تجهيز الغرفة لضيوف مهمّين.

وحين جاء يخبرها بنيَّتِه قبل الزواج بأسبوع واحد، كانت واقفة تتحسّس جدران غرفة النوم، تلصق الخدّ في موضع بارز ومنقوش بآثار أصابع ضئيلة لصق المرآة المعلقة قبال السرير، وتهمس وهي مغمضة: «أنت البكري يا سعد! يرضيك ما يعمله أبوك والزمن؟». كان علوان يتكلم

وهي في وادٍ آخر؛ أكملت: «أم عبده أتت بحجاب من ولي منفوح يا سعد». ضحكت «قالت لي لا تأكلي إلا السبانخ في الليل والنهار». يئس علوان من جدوى كلماته المعلقة في الهواء والتي لا تدخل إلى أذن، والتفت إلى مدخل الغرفة منادياً على البرج: «يا ولد! أحضر العمال لإزالة الموتى من الجدران. سنساوي الجدران ونطلي كامل البيت مثل الغرفة»؛ حينئذٍ نطقت سميرة: «تزوج، لكن لا تلمس عيالي». بهت علوان أمام معرفتها وأمام الإفاقة المباغتة وهي تكمل كأنما عرفت وتجهّزت قبل مجيئه: «أرض أبي في النخاس سأكتبها لك، واكتب لي البيت في المقابل. وادخل بالعروس في الغزالة». تردَّد لوهلة قبل أن يسأل في حذر: «الأرض كاملة؟». أومأت سميرة «الخمسون فدّاناً كاملة وعهد الله!». وقال هو: «موافق».

لكن علوان طلّق الزوجة الأخرى في ليلة دخلته عليها، وعاد إلى المناجاة جرياً في وجه الفجر كأن العفاريت خلفه. أيقظ سميرة من النوم وضاجعها في لهفة وتوتر. أخبرها بطلاقه للبنت وهو يتذلّل للسماح. وأمسك ذكره عندما أتى وظلَّ يتشمّم سائله على الكفّ. أشعل نور المصباح وبقي يدقّق في شكل السائل الأبيض. ظلَّ يشمّ وينظر حتى هدأ من لخبطته وانقلب إلى جوارها نائماً. وفي الصباح؛ راضى عائلة البنت المجتمعين في المضيفة بقطعة كبيرة من أرضه في الجهة البحرية، مطلّة على البحر ومتاخمة لحدّ أراضي أبو لبدة. كان وجهه في لون الكركم وهو يطلب العفو. وأهل البنت يحاصرونه بالغضب، ومعهم علي أبو لبدة يهدِّئ ويُطيِّب الخواطر. كانت سميرة تسمع أم البنت وهي تصف علوان بالحائض، وتقول لعلي: «كلما جاء البنت أمس نزل منه الدم يا حاج علي. والبنت فزعت. يعالج روحه الأول قبل طلب بنات الناس». يهيج علوان، يقف فجأة ويأمر البرج بطردهم؛ وعليّ يطلب منهم الجلوس

ويقول: «كلّ شيء قسمة ونصيب. والحاج علوان قال إنه مستعد للترضية يا جماعة».

طافت سميرة في تلك الليلة على العيال. كانت تبكي وتتمتم في صدق: «وعهد الله لم أقصد يا سعد. قلتُ حسبي الله وسكتّ. ما كان في النيّة أذيّة. وما عرفت أن حسبي الله تجعل الرجل يحيض والناس تتكلم عليه. يا عيال رُدُّوا! ما الحلّ! طيّب وعهد الله الحزن يدهس في صدري كيوم دَهْس القطار لجِدَّكم في النخّاس. أنا قلت لجدكم يأخذني في يده إلى المركز وهو ما رضي. كان محمد الفيل يريد الولد ليأخذه إلى المركز. زعلت وصفوت في نفس الوقت. وقالوا وقع منّا تحت القطار ومات بين العجل. وعهد الله زمن كالحديد وناس كالحديد وموت بالحديد يا سعد! انكتب عليه أن يكون بلا ولد. وأنا قلت لا زعل بعدها من أي واحد. وحتى ما زعلت من علوان. بأمانة. وقلت له تزوج لكن خلّ البيت في حاله».

وفي الساعة التي أتاها الطلق في أحمد، كانت لتوِّها قد سمعت عمر أبو حلاوة يرفع أذان الظهر من مئذنة المناجاة، في حين تستند على أرضية المضيفة، تمدّ ذراعها بالمقشّة أسفل أحد الكراسي، وهي تدندن في حزن وقريبة من نواح: «المندرة رصّوا كراسيها، وكرسي حبيبي وحده انكسر فيها».

كانت تلك الآلام قد أضحت عادة بالنسبة إليها. تحاملت ماشية إلى ساحة البيت بخطوات متأرجحة. صعدت فوق الدرجات وهي تتمسّك بالدرابزين المشغول من خشب ورد، محتفظة بالمقشّة في يدها، بينما تضغط بالساعد كحزام حول أسفل البطن.

وفي أعلى السلّم وقفت، تنده حريم البيت بروح مسحوبة، قبل أن تسبق وتروح إلى غرفة النوم. وداخل الغرفة وفي طقس متكرر؛ خلعت الثياب،

وقرفصت عارية على الأرض، مدّت ذراعها وسحبت طشتاً نحاسياً من أسفل السرير، فتحت حوضها ووسَّعَتْ بين فخذيها، نصبت الطشت رأسيّاً على الأرض مستوعبة له بين الفخذين بينما يرتكز على أحد جوانبه المدوّرة، واستندت بمرفقيها على جانبه الآخر المقابل للأرض. كانت يداها تعتصران حواف الطشت، تخمشه وتضغط قعره على البطن. وبقيت الانقباضات تحاصر في أسفل الظهر والبطن، وهي تنأم بروح ضائعة من بين الأسنان. تحزق وتتلفّت على الجدران في فزع وتصيح: «وجع غير كل مرة. ميّت. ميّت في بطني يا أم عبده. ميّت كبقية إخوته».

كانت سميرة تقوم من بين هجوم النوبات بساقين مرتعشتين، تتمايل وهي تدور على جدران الغرفة، تصفِّق فوقها بالكفوف مع صريخ «لا روحة إلى الجدار ذي المرة يا ناس! لا وعهد الله. قريب ذي المرة يا خلق».

تنتشلها النسوة من نوبة الدوران والصراخ، يجذبن من الذراعين ويطبطبن، يطلقن بشارة ورجاوات؛ تعود، تقرفص وتمسك بالطشت هامسة في حرقة: «الله يهديكم خلّوه للأرض. وحياة النبي يا سعد، أنت الكبير، قل لإخوتك. وعهد الله سأشرّبه غلوّكم بالملعقة ويتعلمه كما أحفظه في قلبي».

كانت ترفع عينيها الغارقة في دموع وعرق نازل؛ تحدّق في بروزات الجدران، في أماكن بلون أسود، خشنة ومختلفة عن ألوان بقية الحوائط، تنادي في توسّل: «يا عيال أنتم كثير في الجدار وأنا بلا ونس في الدنيا».

ولمّا انفلت السائل من الرحم وظلَّ الولد يتحجّر في النزول؛ كانت أم عبده تهرع خارج الغرفة، تهبط حتى منتصف السلم بينما تفتش بالعين، وتنادي مستنجدة على سيدها. أتاها البرج من مدخل الدار ووقف على العتبة، أشار ناحية الغرفة العلوية الملاصقة لغرفة سميرة؛ صعدت

مرة أخرى وطرقت الباب، ولم تنتظر إذناً قبل أن تدير المقبض وتبادر بالدخول.

وفي الغرفة، كان علوان قاعداً فوق كرسي أسفل نافذة عريضة تحتل الجدار المقابل للباب، يمسك مصحفاً، ويقرأ بصوت مسموع في سورة مريم. كان الكرسي منجّداً ومغطىً بقماش قديم ومهترئ، وعلوان يتكئ بكوعيه إلى المساند المطلية بقشرة مذهّبة مطفيّة والمعمولة من خشب محفور ومنقوش برسومات لمنحنيات هندسية متداخلة. وفوق رأسه كانت قضبان خشبية متعامدة على فتحة الشباك، بزخارف مكوّرة وعقدية، مدهونة بورنيش بنّي غامق. كان الكرسي – الذي كان خاصّاً بجلسة محمد القط للقراءة في زمن ما– محمّلاً بآثار استعمال مثل بقية محتويات البيت على عكس الطلاء الحديث للغرفة وأثاثها الجديد. وظلَّ علوان يقرأ على الرغم من الصرخات المنبعثة في الغرفة المجاورة، ومن اضطراب واضح في صوته يرميه بعيداً عن الانغماس.

خطَتْ ووقفت قباله، انحنت تبوس رأسه، طبطبت على كتفيه ورَجَتْ بالنبي وبرحمة الأموات أن يسمع الكلام هذه المرة، بينما تربّت براحتها فوق منتصف صدرها وتذكّره بنصيبها في تربيته، وبكفوفها التي حملته أول ما خرج إلى الدنيا. أومأ علوان بلا صبر ووجهه غائب في المصحف وهي ما زالت تستدرّ وتحنِّن. صَدَّق من خلال زفير هائج ومتقطع. أغلق المصحف. قبّل سطحه ومسّ به فوق جبهته، ثم حطّه فوق طاولة خشب ذات سطح مستدير. تنفّس في عمق، فرد ساقيه في الهواء لبرهة وتطلّع إلى قدميه، خفضهما في دبدبة على الأرض وقال: «حاضر يا أم الأخرس. سأقطع البلد برأيك ولأجل بطن المجنونة. لكن كنتِ نفعت ابنك أولى يا حزينة. دنيا العجب؛ حزينة تساعد حزينة». سهمت أم عبده ونكست

رأسها، وما لبثت ومع ازدياد الصرخات في الغرفة المجاورة أن انتشلت نفسها من لحظات فِكر في حالها وتركت الغرفة. رجعت بإناء واسع وكوز مملوء بالماء، جلست على الأرض قباله، تناولت قدمه اليمنى في حجرها، خلعت حذاءه والجورب القطن ووضعت الإناء في حجرها تحت قدمه، صبّت الماء من الكوز على كعب القدم وهي تفرك، بينما حرصت على استقبال الماء الساقط في داخل الإناء. أخذت الماء من الإناء وصبّته مجدّداً في الكوز المعدن ودخلت إلى الغرفة المجاورة لتسقي سميرة من الكوز. عادت ثانية، سألت علوان أن يذهب الآن. كانت تؤكد عليه بينما تنزل وراءه على درجات السلم، تعيد الإرشادات بالدوران سبع مرات حول المناجاة، وأن يكتفي بلمس الجبهة إذا سلم عليه نفر. ترجوه: «والنبي يا حاجّ! سبع لفّات بالعدد. ولا تردّ على كائن مهما كان. والله سينزل بالسلامة هذه المرّة. طاوعني». كان علوان يهبط إلى ساحة البيت، يقول بصوت عالٍ: «حاضر يا رمم! ألا يكفيكم التشوّهات في جدران البيت! بيت محمد القط صار كزريبة بلا صاحب!».

اتجه علوان إلى الشرق حتى حافة البحر الكبير، وبدأ في الدوران حول المناجاة، سائراً نحو الجهة البحرية بمحاذاة البحر إلى نهاية أرضه، ثم إلى الغرب وعلى الحد البحري للمناجاة قاطعاً رمال الخلاء حتى حافة المصرف، ومن ثم جنوباً بمحاذاة المصرف ووصولاً إلى الحدّ القبلي للبلد، قبل أن يلتفت باتجاه الشرق من جديد.

وخلال كلّ دورة كان يلهث، يشعر بالشمس تخرم رأسه، وبالعطش يشقّ الجوف، يلعن بطن سميرة التي لا تحتفظ بعيّل، وشورة أمّ عبده.

وبنهاية آخر لفّة، كان أذان العصر يصل إلى مسامعه من مئذنة الجامع. أكمل متجاوزاً ظهر داره ومتجهاً إلى بدايات السلّان من البحر الكبير،

حيث خلع الحذاء والجورب ورفع جلبابه ليعقده حول وسطه، ترك عصاه على الشطّ ودخل في الماء. كان يغرف شربات متتالية ويغسل رأسه. وظلَّ يملِّس بيده على القفا والوجه المحمرّ. توضّأ للعصر وأحسّ الصهد يغادره بالتدريج، تاركاً إياه مع نفسه؛ فراح يتأوه منادياً على محمد القط بصوت نادب. وبدأ يحلف بصورة محمد القط التي كانت لسبع بلا إهانة ولا تلعب به النسوان، يتحسّر ويلوم أبيه على تركه وحيداً في العالم بلا سند ولا ظلّ، يروح في نوبة إحساس بهزال، ويفيق منها متوعّداً الكلّ بعقاب قريب وبتغيير الحال.

كان يرمي جسده ليقعد على الشط وهو يفرك قدميه إحداهما بالثانية داخل الماء، ويضغط بين حين وآخَر على جبهته بأيدٍ مبتلّة كأنما يعصر أواخِر الحرّ. وبينما يحسّ بالوجع سائراً في أعضائه وبطنين يطقطق في أذنيه، كان يلتفت إلى صفحة الماء في البحر الكبير، ويتابع سريان المجرى الأكبر -في العمر والاتساع- وهو يتدفّق ويضخّ في مجرى السلّان الأصغر فيقيم عودَه. وراح بال علوان إلى أخيه الكبير عادل، وإلى جلسة أخيه القديمة عند تلك البقعة من بدايات السلّان، ممسكاً بقصبة في طرفها خيط معقود، وفي آخر الخيط شصّ متدلٍّ في الماء الجاري، في حين يصطاد السمك بالتمشيط أو باستخدام الطُّعم وبحسب المزاج وبما تيسّر. كان الصيد والانفراد مبتغى عادل، منطلقاً لهواه بعيداً عن تكليفات الأب، وبالرغم من تعكير القط لمزاج الولد. وتذكُّر علوان المرّة التي أمسك فيها محمد القط بعادل وعلّقه من قدميه في حبل أمام باب الدار طوال ليلة كاملة، إلى أن أتت النجدة في هيئة توسّلات الأم بإنهاء العقاب. كان القط ينزل بخيزرانة على الجسد المتأرجح ويصرخ: «تسرق من مالي! صاحب المزاج يشتري من فلوسه يا ابن القط». كان عادل قد أخذ جوالات قمح

من وراء أبيهم وأعطاها لنجار مراكب وألفطي، في مقابل الحصول على قارب صغير من خشب كافور، يسمح له بتمام الانفراد وبالصيد من البحر الكبير مباشرة. أخذ محمد القط المركبَ والصنارة من الولد، وقبل أن يرميها في مخزن البيت، أتى بالنجار والألفطي، حطّ المركب في هذه البقعة ونزل فيها، وأنزل الثلاثة إلى السلّان بعد خلع الجلابيب وربط الأيدي خلف الظهور، أمسك الصنارة، ووعد أول من يشبك في الشصّ بالسلامة من العقاب. كان النجار والألفطي يتنازعان حول المركب لتناول الشصّ بأفواه مفتوحة، ومن ورائهما الولد، ساكن في الماء وبدموع. والقط ينظر إليه، يلاعب الصنارة بين الرجلين ويدور بالخيط في الهواء، ينظر إليه من بين النجار والألفطي ويقول: «الصيد الصح صيد الناس يا ابن أمك يا عيّاط». أمسك الشصُّ في حنك النجار؛ ترك له القطُ قمحَه، ولكنه استردّ حقَّ الألفطي، متجاهلاً أيّ توسّلات، ومبرّراً ذلك بالدرس للنجار وللألفطي وللمناجاة كلها، حتى لا يتجرأ واحد على الفعل من وراء ظهره فيما بعد.

كانت تضرب علوان -في أثناء جلوسه أمام السلان- بروق خاطفة بصورة أخيه الميت؛ فيغلظ من نداءاته على القط الكبير باشتياقه لغوث سلطة بعيدة، وكأنما النداءات أغطية من خيش ثقيل يحجب فيها عيونَه عن رؤية عادل. يصرخ: «يا أبي!»، عدة مرات، متنقلًا بين غيظ ولوم وحرمان، يمدّ يده ويمسك بعصا محمد القط، يحدّق في المقبض الفضي والمنقوش بالآية الأولى من سورة المُلك، ويتذكر كفَّ أبيه القادرة على إلزام كلّ نفر بمحلّه. كان يُقرّب المقبض من أنفه، يتشمّم ويحسّ برائحة عرق أبيه لا تزال موجودة على المقبض؛ حتى أنه مدّ طرف لسانه واستطعم ملحاً أعاده إلى طفولة كان يقعد خلالها في حجر الأب، يلعب ويعضّ أصابعه مع

كلّ لقمة يدخلها القط إلى فم الولد. كان علوان يقف ويغرس عصاه في الطمي، يولّي وجهه شطر البحر ويدخل في الصلاة. وفي الركعة الأولى ظلت تحوم في رأسه صور محمد القط وهو يركب فوق الفرس مباشرة وبلا كارتّه ليقطع دروب البلد، وصورُه في وقت رجوعه مساءً إلى البيت حيث يقف الكلّ في استقباله مشدودين كزنّار. وفي بقية صلاته، كانت صور القط تنسحب، ولا يرى علوان سوى نفسه في ليلة دخلته في الغزالة؛ فتهزّه معاتبات وأسئلة بلا جواب، معاتبات تصطدم بجدار صلب من حيرة؛ فتتفرق مغتاظة في دروب تقف على آخرها ودوماً سميرة الفيل.

ولم يكن سخط علوان في تلك اللحظة نتيجة مسافة مشاها أو لأسياخ شمس خرّمت رأسه. وصحيح أن أوجاع جسمه ساهمت في تقليب المواجع واستدعائها، لكن غضبه –في بدايته– كان فيه غيظ من نفسه، ومن انخداعه بالأمل كغيره، واندفاعه الراضي إلى سراب كأيّ أهطل. وربما وكرجل؛ لم يملك الذهاب كسميرة خلف حلول سحرية وعجيبة للإنجاب، ولم يملك بلع تلك المسكِّنات التي تتناولها سميرة بين حين وحين، لكن الأمل في وريث أوقف يديه عن تمام المنع، مكتفياً بفرجة سببها بصيص داخلي من تمنّي الإمكان، بصيصٌ مُذلٌّ حين يطلّ ويلامسه في أحيان، وفُرْجَة وإن كانت تتبدّى رافضة، لكنها لم تمنع عنه مساس الإهانة في أوقات. وحتى حين راح ليبحث عن حلٍّ رجولي بالزواج من غيرها؛ كانت الإهانة تلحق به وتنزله أمام نفسه في مقام الظالم، تاركة إيّاه كعبرة أمام الخلق. وبقيت تلك الواقعة تحيطه بشكوك حول عدل ربّنا وصواب أعماله. كان يتكلم مع روحه بصوت مسموع في أحيان، ينادي ويستفهم عن عمله، ويردّد أنه راح للحلال وليس كغيره من مرتادي ليالي السوء وبيوت البغاء في النخّاس، ولكن غيره لم يحِضْ ولم يتحوّل إلى آية

تلوكها الألسنة. وصحيح أن تلك الأسئلة المعلقة بقيت بشروخ في روحه يتسرّب منها الأسى حينما يحضر محفّزٌ، مُصيبة إياه بهزّات لكنما ليست بالطويلة؛ لأنه دوماً يقفل فوقها بغطاء من غيظٍ مجنون، ويجد منفذاً سهلاً في تجميع تلك الخسارات ودفسها في شرارة كراهيته لسميرة، شرارة ولدت من رغبة في إيجاد عدوّ متسبّب، وتحوّلت بسرعة إلى راكية، ثم وفي يوم ما إلى حريق كبير بينه وبين سميرة، يحجز عنه الرؤية، ويجعل من سميرة في عينيه شيطانة بقرون من نار؛ فينساق نحو إلقاء المزيد من زلّات السنين ومصاعب القدر فيها.

وحتى أن ذلك الحريق الكبير بينه وبين سميرة كانت ولادته على يد فاطمة، حينما أرادت ونفّذت زواجها بالحجر. ساعتئذٍ كان ينزل بناره على فرق المقامات وسمعة سيد. لكن بعد خروجها من داره، كان يحسّ فجوة النار تتسع وتبتلع المسافة الباقية بينه وبين سميرة، ويدرك أن الغيرة من حظّ سيّد هي السبب. كانت حرب الأنثى لاختيار الرجل موجعة لعلوان، وهو لم يحظَ بشيء منها بالرغم من اسم القط، فزواجه كان عادياً دون حتى مناوشات، ولم ينل من الأنثى جرأة في طلبه كفاطمة حين تمسّكت بالحجر، بل إنه يرى إدبار أنثاه وكأنه قذارة، ولم يجرّب لهفة الأنثى عليه حتى وإن كانت ساكتة وتفعلها بالعين. كان يحسّ بنقصان وكأن جزءاً من صدره سقط وغير موجود؛ وأصبحت وقفاته دائمة أمام المرآة في غرفة النوم، المعلّقة بمحاذاة الكوة التي تحمل جنين سميرة الأول. كان يتفحّص جسده ووجهه، يتكلم مع روحه بهمسات، ويطمئن نفسه بتعديد مزاياه ورجولته، مع أن أصغر ملاحظة على جسده وقبل أن يترك المرآة؛ كانت يمكن أن تحوّل يومه إلى كربٍ متصل، لا يتخلّص منه إلا برميه نحو قرون الشيطانة المتسبّبة.

أما سميرة، وحتى أتاها شيء من الفرج في صورة أحمد، فقد ظلّت يداها مهووستين ببروز الأسطح وخشونتها. كانت تسرح عندما تلمس حجر الرحى بينما تطحن القمح، ترفع صوتها فجأة وتنادي: «جوعان يا خالد؟». والخدم ينسلتون من حولها إلى الخارج؛ تاركين مساحة لمناجاة تتسع بالانفراد. وعندما تملأ الأزيار بالماء أو تروح لتشرب؛ كانت تنسى الكوز وتُسقِط خشبة الزير على الأرض. تملِّس على سطح الزير بحنان. تقعد أمامه على ركبتيها وتنادي على العطشان من العيال.

وظلَّ البيت بلا ماء شرب لعدة أيام، كان الخدم يخرجون فيها إلى بيوتهم المجاورة أو إلى السلان لإطفاء العطش، بينما ظلّت سميرة تأخذ شربات مسروقة من يد فاطمة وهي محجوزة في حجرتها؛ عندما دخل علوان وشاهد سميرة في حضن الزير في ساحة البيت، قاعدة على الأرض وساقاها منفرجتان وتحاوطان الفخار، تلصق خدّها بالسطح وتحكُّه، تخمش بالأظافر، تغمره بقبلات ولحس وحكايات. ظلَّ علوان يضرب رأسها بمقبض عصاه، وينهال على أزيار البيت حتى تكسّرت. يصرخ: «لا نظافة، ولا عقل، ولا حتى شرف. يا سلسال وسخ. نهارك طويل معي». أمسك شعرها الملوث بالدم ورماها إلى الخارج أمام الباب. ووقفت له فاطمة وقالت: «البيت لها يا علوان، والحجّة عند أخوالها في النخاس. وأنت أخذت الخمسين فدان في المقابل». كانت فاطمة تعافر في ذراعي علوان وهي تسحب سميرة على السلّم، تخلّصها من يديه، تأخذها بالحضن وتدخل بها إلى غرفتها. وعلوان واقف في منتصف السلم، بشعر منكوش وعيون تبرق وأعصاب مشدودة، ينظر في ظهر سميرة ويرفع ذراعيه إلى آخرهما وبصره في السقف، يصفق كأنه يستجدي انتباه من فوق، يشبّ على أصابع قدميه ويصرخ: «أنا ماذا عملت يا رب! ليقع الخراء في حظي.

يا رب! عبدك خلص. يا من بليت نوح ولوط ونجّيت نجّني من القوم الظالمين».

كانت سميرة تحبس الدموع طوال الضرب. وما إن دخلت الغرفة حتى قالت لفاطمة التي تسندها لتقعدها على طرف الفراش: «أنا لست زعلانة وعهد الله. وأمامك، أنا لم أبك أو أزعل. شهادة عدل أطلبها منكِ». كانت فاطمة تداوي الجرح، وتطلب السكون من انفعالات تعيق يديها عن حصار النزيف. ولكن سميرة تستكمل وهي في تملُّصات لا إرادية: «وعهد الله لم أرغب في البيت عن طمع يا فاطمة». طبطبت فاطمة على الكتف. قالت: «علوان غطى الحشيش على كانونه. وبيت أبي وأمي في أمان بين يدك أكثر من يده. لنا فيه أثر موتى، ولك فيه كل الموتى يا سميرة». كانت سميرة تسكن أخيراً. تبتسم براحة من وجدَ فاهمَهُ. تتناول اليدَ المداوية وتقبِّل ظاهرها في امتنان. تتمدّد على جانبها وتثني ذراعها اليمنى أسفل رأسها. تنظر إلى السقف بعتابٍ يائس. تردّد في خفوت: «رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة». تتحسّس يدها جيب الجلباب قبل أن تدسّها فيه وتخرج منه قطعة حجر خشنة. تظلّ تفرك فيها بين يديها إلى أن تذهب في النوم وهي تهمس عدة مرات: «في الجنة».

*****

لمّا انزلقت خديجة الفيل ووقعت فوق البلاطات في بهو دارها، بينما يكبُّ الخدمُ من أسطال معبأة بماء وصابون، ويجرشون بقطع خشنة لنظافة الأرضية، كانت بطنها كرة منفوخة، ولم تنفشّ الكرة وحدها مع السقطة، بل جذبت رحم خديجة إلى الخارج، وتركت كسوراً متفرّقة في الجسد. وظلَّ محمد الفيل حائراً أمام امرأته وابنة عمّه التي لازمت السرير لشهور وهي مجبّرة بجرائد نخل تدعم الذراعين والساق، وبلصقات من صمغ سنط حول الضلوع. وبعد الالتئام، كانت خديجة ترفض السير على قدميها في الدار، وتدخل في نوبة هياج كامل أمام محاولات انتزاعها من الأرض أو عند إجبارها على الوقوف، ولا تهدأ إلا حينما يتركها محمد الفيل لتعود وتنام ثانية على الأرض. حينئذٍ، كانت تضغط أجزاء جسدها بقوة في الأرض كأنما تتأكد من قُرب، تحكّ بساعديها في التراب، تملِّس بكفّيها وتخربش بالأظافر، تقترب بشفتيها وتبوس البلاطات، وتهمس في حسٍّ واهن من بين أواخر الهلع وقرب انتهاء النوبة بكلمات عن خيانة ساقيها وتربّص الأرض بخطواتها، بينما عضلاتها المتشنّجة تنفكّ رويداً؛ فتتمدّد على ظهرها، مسترخية وتنظر إلى السقف، تلقف الأنفاسَ في عمق حتى تغمض عينيها وتروح في نوم عميق.

ولتنتقل من موضع إلى آخر؛ كانت تزحف على بطنها مثل حيّة، تجرّ جسدها مستخدمة الكوعين والأيدي مع دفعات من أقدام ترفِّص بينما صدرها مرتفع عن الأرض. وتوجّب على أقدام ابنتها سميرة وأقدام الخدم

الانتباه وتحاشي الاصطدام بسيدة الدار، حينما تنفلت زاحفة على البطن من غرفة النوم إلى طبلية الأكل أو لمعاينة غرفة الغلّة. وكثيرًا ما كانت الخضّة تخبط أهل البيت في البداية ولوهلة، وهم يلحظون بطرف عيونهم الكتلة غير المفهومة للجسم الزاحف والمُكوَّم في ناحية من نواحي البيت. وما تلبث الذاكرة أن تنتبه وتخرج من أسر الغرابة، ويتبع ذلك محاولات عرض المساعدة على سيدة البيت.

وعندما يئس محمد الفيل من محاولات التعديل؛ استأجر أربعة عمال سودانيين ضخام، يحملون فوق أكتافهم كرسيّاً له ظهر ومسندان من خشب جمّيز لنقل خديجة أينما أرادت في أرجاء البيت. كان الكرسي كبيراً وبلون أحمر فاتح، وبدعامات خشبية مستطيلة، تصل ما بين الأرجل ليرتكز بها على الأكتاف أثناء التنقل. ولزيادة في الأمان؛ ثبّت النجار مقبضاً حديديّاً في كلّ رِجل حتى يمسك منها العمال بالكرسي المرفوع، مع إضافة حزام جلدي بإبزيم؛ لربط النفر الجالس من خصره إلى ظهر الكرسي. وظلت خديجة ترفض أن تندلق أيّ مياه على أرضية البيت، وتأمر بالنظافة من خلال المقشّات فقط وعلى الناشف. وكان لزحفها فيما بدا أثرٌ على حدّة السمع؛ فهي تصرخ في عنف لاطمة الوجه ونادهة كل من في البيت إذا سمعت صوت انسياب الماء من كوز فوق أرضية الكنيف أو عند ارتطام الماء بباطن طشت معدني أثناء غسيل الأيدي. ورفضت ركوب الكرسي المتنقل فوق أعناق العمال؛ فقد كانت تجربة واحدة -من بعد محايلة وتهديد من جانب الزوج- لأرجحته أثناء التنقل مع ارتفاعه فوق الأكتاف؛ تُعمِّق الفزعَ بصورة أقصت عنها النوم لأسابيع بكوابيس سقوط مهلك. كما رفضت الجلوس مع البنت والزوج إلى مائدة الأكل، وفضّلت وضع طبلية بجوارهما لتبقى قاعدة على الأرض وتأكل. ولقضاء الحاجة؛ كانت

تزحف متخطّية العتبة إلى خارج الدار نحو المسطاح الخلفي وتقرفص، تتبرز وتمسح روحها بقطعة حجر أو كومة تبن. ولم يجد زوجها مفرّاً من عمل حفرة صغيرة في المسطاح، محاوطاً عليها بألواح خشبية لستر المرأة خلال تبرزها، بينما شدّد على الخدم لإزالة البقايا منها وتنظيفها كلّ نهار. وفي الصباح عند نزولها فوق الدرجات الحجرية التي تربط الطابق الأرضي بغرف النوم ومجلس الحريم في الطابق العلوي؛ كانت تجلس على أول درجة وتدلي قدميها على الدرجة التالية، تستند براحتيها وهي تزحزح مؤخّرتها ببطء حتى تنتقل إلى الدرجة التالية، وصولاً إلى آخر السلّم حيث تنكفئ على البطن وتبدأ في السعي. وخلال الوقت المُستغرَق لقطع أقل من عشرين درجة بتلك الطريقة، كان البيت على موعد مع مهرجانات صباحية تقام على طول السلم وعرضه، يقف فيه عمال الكرسي وحولهم خادمات البيت، بأيدٍ ملوّحة وصيحات حماسية، في محاولات تشجيع وإقناع خديجة فيما فشل فيه الفيل. وبين الرجاوات والرفض؛ كان العمال يقطعون الدرجات صعوداً ونزولاً عشرات المرّات مع تراقص الكرسي فوق الأكتاف، وفيما بين دفعات الخدم من أسفل، ورفض خديجة التي تتشنّج ملامحها، تطبق جفنيها وتزمّ الشفتين في الأعلى.

اهترأت ملابسها، وامتلأ ساعداها وركبتاها بجروح وتقرحات، وأصبحت رائحتها صعبة، وجلدها مغطّى دوماً بطبقة سوداء وأوساخ عالقة، ومتشقّقاً بالرغم من الخرق المبتلة بماء وصابون، التي تفرك بها جسدها قبل النوم وفوق السرير الذي -وكجزء من اجتهادات الإقناع وتسيير العالم- أحاط الفيل جانبيه بألواح خشبية مرتفعة؛ جعلته أشبه بصندوقٍ لكنما دون غطاء.

أحضر الفيل خيشاً وحبالاً لتلفّها حول جسمها في الصباح قبل

بداية الحركة، وتنزعها قبل النوم لتقليل آثار الزحف على الجلد، إلا أن الخيش كان يزيد من القروح. فأحضر حصيرة مشغولة من السعف، قطَّعها وعمل منها لفّات على مقاس الذراعين والساقين والبطن، وحرص في كلّ صباح على تمليس الجوانب الخارجية للحصير بزيت بذرة قطن بعد إحكام ربطه حول أعضاء خديجة؛ لتقليل الاحتكاك ولانسياب ناعم فوق بلاطات البيت.

كان الفيل أمام عنادها الحادّ والمستيقظ كإله، يجلس على الكرسي، ويأمر العمال برفعه والتنقل به هرولة في أنحاء المنزل، صعوداً به إلى الأعلى وهبوطاً من جديد إلى بهو البيت، في محاولة منه لبسط الأمان في نفس خديجة. ومع الوقت، أصبح الموضوع بالنسبة له وسيلة ترفيه وتسلية يمارسها في أوقات الروقان وهو مدرك أن رفض امرأته لن يتزحزح. وكثيراً ما كان ينادي على الرجال والكرسي في ساعة العصاري، وبعد محاولات صورية لإقناع خديجة، واهية وقصيرة ولا تأخذ زمناً مثل محاولاته الأولى. كان يركب بعدها على الكرسي ويقول: «طيّب تفرجي عليّ واحكمي. أنا في عمري لم أضرّ أي نفر يا بنت عمي! فهل أضرّكِ أنت!». تنفرج ابتسامته ويأمر العمال بالذهاب لمسافات أطول، ويأخذه انبساط بعيد عن دور المُقْنِع. يقول: «والله الواحد يحس أنه مثل الملوك وهو فوق الأعناق يا خديجة». ظلَّ يحتفظ بالعمال بلا فائدة، ويتعلّل بأمله في عدول امرأته عن رأيها في وقت ما. ثم احتفظ بهم لزمن آخر تحت قوله بحرمانيّة قطع الأرزاق، مستخدماً الكرسي في أوقات أثناء الذهاب إلى أملاكه ورعاية تجارته. وفي الأيام التي قضاها الكرسي والعمّال في البيت بلا لزوم أثناء مشاغل الفيل في الأرض والتجارة؛ كانت سميرة تحلّ محلّ أبيها، تجلس فوقه وتأخذ معها عرائس من قطن وتبن لتفسّحها.

والعمال يدورون بسميرة في البيت، ويروحون بها في جولات بين غيطان النخّاس ودروبها.

كان محمد الفيل وإلى أيام قليلة قبل موته، دؤوباً في السعي لسدّ أزمة الزوجة، ولمّا توصل إلى حلٍّ أخير؛ قام بإحضار المنجِّدين من النخاس ومن المناجاة والغزالة، ظلوا لأسابيع يحشون قطعاً ضخمة من الكتان بالقطن، يخيطونها ويغطّون بها أرضيات البيت، حتى أنهم صنعوا قطعة للكنيف بفراغ في المنتصف على مقاس طشت تجلس فيه خديجة وقت الاستحمام، ثم تُرفع المرتبة وتوضع تحت الشمس إلى موعد الاستحمام القادم.

وأخيراً وقفت المرأة من جديد، كانت تسير هي وأهل البيت كبطاريق متمايلة بأقدام منغرسة في ليونة القطن. ودوماً ما انقلب نهار سميرة وخدم البيت إلى ضحك متواصل، بينما يلقون بأجسادهم فوق المراتب المفروشة، ويتسابقون في القفز أو التدحرج من فوق درجات السلم المبطَّنة، ويفضُّون القطن من ثقوب المراتب المهترئة نتيجة مشي طول النهار، متقاذفين الندف البيضاء في سلسلة لألعاب طويلة، لا توقفها ملامات الفيل عند دخوله إلى البيت.

أمّا الكرسي، فقد ظلَّ لزمن يتنقل فوق الأكتاف بلا حاجة حقيقية وحتى بعد فرش البيت بالقطن، وإلى النهار الأخير في حياة محمد الفيل، الذي انطبع فيه الكرسي داخل ذاكرة سميرة بالخدوش في سطوحه الناجمة عن الاستعمال، وتغيير ألوان المقابض من الصدأ. كان الفيل رائحاً لإتمام بيعة زيت فرنساوي لتاجر في المركز، وسميرة تدور حوله وتتعلق بطرف العباءة مطالبة بالذهاب إلى المركز. كسر الفيل خاطرها؛ قال: «السفر فيه مشقة وللرجال فقط يا ضيّ العين». جلس على الكرسي

وتناول الحذاء من يد خديجة. كان يبتسم ويعد باصطحابها في مرة أخرى لفسحة وليس لتمضية الوقت في أشغال. وبينما يلبس الحذاء كان يتطلع إلى أرضية البيت بعين راضية على تدبيره، ويسترخي بعد انقضاء شهور من حمولة شوك. شاله العمال مغادرين به نحو المحطة، والبنت تتفلت نحوهم بمحاولات أخيرة؛ فتحوشها خديجة الواقفة تهتز وتتمايل فوق القطن، بينما تردّ على إشارات الزوج وهو يشيح بوداع أخير لأهله. كانت البنت تحسّ في صدرها بطقطقة شرر غاضب، لكن لم تمنعها عن ملاحظة الشقّ الطولي والمستجدّ في ظهر الكرسي، ولون الكرسي المتغيّر –فقط وفي ذلك الصباح– إلى حمرة داكنة. وبعد ساعة من خروجه، كانت سميرة تفرُّ في أنحاء البيت، تدسّ وجهها في القطن، تقفز وتشير إلى غراب أسود وغير مرئي للآخرين، يطاردها ويضرب عينها اليسرى بنقرات مؤلمة. وظلَّ الغراب وراء عين البنت حتى أتى خبر الفيل؛ حينما انكسرت إحدى دعامات الكرسي من فوق الأكتاف، وانفلت الفيل من فوق الرصيف أمام هدير القطار الداخل إلى المحطة.

*****

في طريق العودة إلى داره ومنذ القيام عن مصطبة فاطمة؛ لم تسكت عينا الحجر رغم محاولات النهنهة والحبس. كان في عالمٍ آخر، بعيد ولا يمت بصلة إلى ما حوله، عالم من صندوق حديدي محكم الإقفال حول رأسه؛ يضعه بمعزل حتى عن أطرافه. وفي داخل الصندوق، كانت الهمسات التي أطلقتها الساكتة في أذنيه وخلال جلوسه أمام المقام، تتردّد من جديد، مثل حيوانات مفزوعة أمام حريق مستعر في زريبة.

كان الحجر يتوقف لبرهة في وسط الخلاء، يخبط براحتيه فوق يافوخه كأنما يتخلص من ضربات حوافر مستغيثة وهو يئنّ في لوم مكتوم: «هذا همس ظالم. بالفعلة المتسببة ظالم. وبتأخير الهمس ظالم يا فاطمة!».

وفي أعقاب خبط قويّ فوق الدماغ؛ كان الصندوق ينفلق، سامحاً بوصول نور بسيط، والحجر يحضر بغتة وللحظات قليلة، يحسُّ خلالها بغرابته عن المشهد، وكأنما نزل إلى الدنيا في التو، ويرتبك أمام طول المسافة التي سلكها في خطوات أقل منذ ساعات أثناء الذهاب إلى فاطمة، يتملّكه ذهول يسمِّر الهواءَ ويزيح الموجودات من حوله، فكأنما دنياه خلاء أصفر بلا نهاية، وكأنما وحده الموجود فيه، وعيناه لا تقفان إلا على سكون وموت.

كان الحجر يتلفّت في الخلاء بعين استكشاف مضبّبة بالدمع ومذعورة؛ تائهاً ومفتقداً الحسّ بالاتجاهات، يشرئبّ بعنقه أمام كتل ضباب زاحفة من نواحي المناجاة، وخلفها تقف فُتاتُ مزروعاتٍ وأغصانٍ مُعلّقة لأشجار

شبحية، بينما يحاول اختراقها ببصره والتأكد من ثبات مصرف البلد أمامه؛ مستخدماً إياه كدليل على طريق العودة.

وعند حدود أرضه ومن بين غبش وسماء مختنقة، كانت تتضح له ملامح الدار، بقضبان متشابكة على النوافذ، وكتل بوص جافة وأكوام هرمية من أقراص جلّة بنيّة وداكنة مخزّنة فوق سطحه المحاط بأسوار طينية متآكلة، ومعشّقة في الفراغات بألواح صفيح صدئة. وفي مساحة الهواء وفيما فوق السطح، كان يتراءى له الشيخ رجب القاضي، محلّقاً بأجنحة ضخمة من ريش أبيض، تمتزج حوافها في ضباب مستشرٍ من حوله، وتبدو معه كنسيج واحد متسع وكأنها غلاف محيط بالأفق.

كان الشيخ يعدِّل من وضعية جسده في الهواء بحركة حادة، يرفُّ ويُقْبل على الحجر، قاطعاً المسافة بين أعلى الدار وموضع سيد في سرعة، قبل أن يثبت فوقه، وملامحه تشعّ بنفور وغضب، مضيّقاً عليه الرؤية بأجنحة تتخبّط، وتنزل لتحتكّ في أحيانٍ بأطرافها في وجه سيد، تماماً وكما فعل من قبل في ليلة دخول الحجر على فاطمة، بينما يحمل بين يديه رأس الأخرس، قاذفاً به في وجه الحجر مرّة تلو مرّة.

كان الحجر -ومن بين دموعه- يسيّج بالذراعين أمام رأسه، ويفرُّ ببصره من قذفات الشيخ، بينما بقي رجب يقذف رأس الأخرس، ثم يولَد آخر مماثل بين يديه من الهواء. كان الحجر يستعطف رجب بحسٍّ مبحوح ليتركه في حاله، تماماً كما فعل من قبل في ختام ليلة وعده.

ومن بين العذابات، كان الحجر يستدير على عقبيه، يائساً من جدوى استعطافه، متثبّتاً من موضع المصرف في ظهره، عائداً فوق خطّ قدومه، متجاوزاً مقام الغرقى، ومكملاً تجاه مقابر المناجاة.

كان يلهث وهو يفتش كممسوس عن شاهدٍ بعينه بين القبور، لقبر

منخفض بجدران طينية غير مستوية تشير إلى اللهوجة وسوء الصّنعة، بينما سطوح الجدران منقوشة بآثار لأصابع ضئيلة. كان يتربّع لصق الجدار الغربي للقبر، الذي ينام خلفه رأس الأخرس، صاحب عمره وخطيئة فهمه المخدوع. يرتكن برأسه إلى الجدار، ويشخص من بين القبور إلى الغرب، نحو القبة الطينية الحمراء لمقام الغرقى، يعود ويتقلّب بجبينه فوق الجدار الطيني، يكبش التراب ويهيله على فخذيه ثم يصفِّق فوقهما وهو يردّد: «يا فاطمة هذا همسٌ ظالم. ظالمٌ بالسقوط من قبته المستشرفة على العريان، لأن القبة عالية والعريان ثابت تحت، والهمس يتدحرج ويكسب حجم الدهس وسرعته. وظالم بجبروته في اختيار اللحظة، كسيلٍ انفرد بعودِ ذرة منسيّ من كفّ حصّاد».

كان الحجر في عِزّ الإدراك لملابسات الخطيئة واكتشاف العمى المهول الذي اكتنفه طوال سنوات وقبل حديثه منذ ساعة مع الساكتة، يملِّس ويطبطب على الجدران، وفي مرّاتٍ أخرى يصفق فوقها بقوة وينده بحسٍّ رائح، ويستشعر بدخانٍ لاستجداء محترق ينفرط من صدره ولا أمل لديه في إجابة. كانت دنياه المحجوزة خلف غمامة كبيرة تسيل بذكريات متقطعة، ومن بينها يبدو انبعاثٌ لطفولته، وهو يحشر أطراف جلبابه في دِكّة السروال، يمسك بيد الأخرس ويركض أمامه في محفوظ النواحي أو في سعي اكتشافات الدروب والغيطان. والأخرس يتعثر أكثر من مرة، ويكاد أن يقع خلف خطوات رفيقه الواسعة والسريعة، ينادي عليه ويسأل التمهل؛ فيلتفت إليه الحجر ويهدّئ الإيقاع.

فمنذ أن عرفا الوقوف على الأقدام والتلفّظ ببضع كلمات؛ كان الأخرس ظِلّ الحجر في طرقات المناجاة، ولم يفترق الاثنان إلا في اللحظة التي هبط فيها الحجر إلى ماء الحوض خلال افتتاحية ليلة وعده،

مخلِّفاً وراءه صاحبَه مشدوهاً يعاين حقيقة الوصول، وقلبه يخفق بما فوق ضيق الجسم.

وحتى عندما هبط إلى دروب المناجاة الشيخ كريم: عروة المأذونين وآخر المَجازات، خلال عصر نهار خريفيّ، محمّلاً بمهمة العثور على اثنين من المأذونين لهما علامة اليُتم الطازج؛ كان والدا سيّد وعبده قد توفِّيا في ذلك الشهر نفسه تحت أسباب مختلفة، وخلّف كل منهما ولداً وحيداً وسط كومة بنات.

كان الشيخ كريم يطلّ من فوق حافة المصرف، بعمامة بيضاء فوق وجه سَمِح مُبتسم، بتقاطيع منمنمة، وبشالٍ أخضر على الكتف وحول رقبة رقيقة بادية العروق، يميل ليسحب الولدين المختبئين في الشفّة الداخلية عن بقية الأولاد في لعبة غمّيضة، متشابكي الأيدي ومتلاصقين فوق مساحة صغيرة لصخرة جافة، بينما يبتسمان بخبث طفولي، ويتهامسان بتوقع دوخة بقية العيال في أثناء البحث عليهما.

وطال البحث في ذلك اليوم، وامتدّ من العيال إلى الأهل الذين نقّبوا خروم المناجاة حتى آخر الليل؛ حينما حملهما الشيخ بين ساعديه وصدره، وحلّق طائراً في عمق الصحراء نحو واحة القطيفة، بأجنحة بيضاء تخفق في الهواء بلطمات طنانة؛ ظلت أصواتها حاضرة في الذاكرة ما بقي لهما من عمر. والولدان يشهدان المناجاة من أعلى، يعاندان ضربات الرياح المعاكسة في العيون، والأخرس يصرخ مشيراً إلى الغيطان والبيوت ومواضع العيال وكأنه في حلم.

كانت أجنحة الشيخ تبرز من ظهره، صافية وضخمة كثورين يتقابلان أمام نقطة سقاية، تتمايل بخفّة مع الهواء، بينما يقف في حذاء أسود لامع وجلباب زيتي. والأخرس يحدّق ويدور ملتفّاً حول الشيخ، يقف وراءه

ويملّس بالأصابع ويضغط فوق الأجنحة، يعاين بأنفاس مبهورة وكأنه حصان في أعقاب ركض طويل. بينما الحجر مأخوذ بما لا يعرف، خائف ومتقهقر، حتى كاد أن يسقط في المصرف لولا لحاق الشيخ به.

كان الشيخ يدعوهما لتجربة طيران وللذهاب إلى واحة القطيفة التي يجتمع فيها الذاكرون، يبتسم وينفي الملائكية عن ذاته، ويؤكد للأخرس أنها كرامة من ذي اللطائف يمنحها لمن شاء من خلقه. كان الأخرس يسرع ويدسّ ظهره في صدر الشيخ، يمسك بساعد الرجل ويمرِّره من أسفل إبطيه، محيطاً به صدره ومبدياً الاستعداد واللهفة للتجربة، يطلب من الشيخ الدوران حول المناجاة مرة بعد مرة؛ كان يسبق الحجر لأول وآخر مرة. بينما ظلت وساوس الحجر بالسقوط مانعة لمتعة العلو. كان الحجر يضغط جفنيه ويرتجف أمام هبّات الرياح، يتشبّث بساعد الشيخ ويغرز فيه أصابعه، بينما الأخرس يصرخ في حماس: «بـ بـ بيت القـ القط كـ كر كرأس مسـ مسـ مسمار». يشكّل من سبابته وإبهامه حلقة أمام عينه، ويعاين من خلالها أحجام الدور والغيطان. كان يخبط رفيقه بالكوع «شـ شف يا يا سـ سيـ د السـ سلانه، مـ من فـ فوق كـ كأنها حيـ حيّة». وصيحات الرفيق تغوي الحجر بنظرة، يفتح جفنيه ببطء وحذر، وما يلبث أن يلتفت بعنقه بعد دوار وهلع؛ دافِساً وجهه في صدر الشيخ.

ولسنوات، ظلت تجربة الطيران الوحيدة تلك، تهبُّ على الحجر مع إحساس بضيق ونفور متزايد (حتى وفيما قبل ليلة وعده). كان الحجر يفسّره بأنه نتيجة للخجل من جُبنٍ لم يعتده في روحه، ولغيرة من أسبقية رفيق لم يتعوّد تقدّمه عليه. وبالرغم من مداومته على كبح عدوانيته عن المساس بالأخرس طوال طريق الطفولة (حتى وكأنها في مخزن تم تفريغه لآخر قطرة في نهار الخنق)، وهي العدوانية التي اشتهر بها بين

الأقران في المناجاة، وجعلت من باب زينب باستمرار قبلة شكوى لآباء وأمهات يسحبون عيالاً مدمّين ويستعرضون الإصابات تحت عيون زينب المُحرجة، وجعلت من بيتهم مساحة لجلسات صلح وترضية لا تنتهي بزجر أو أخذٍ بالراحة وتفهيم، إلا أنه خلال الأيام الأولى في أعقاب الطيران، وقبل حلول الليلة الأولى من الخدمة، كان يردّ بشراسة على نعت الأخرس له بالجُبن حينما أغلق عينيه عن مشاهدة البلد؛ فيهزأ من اندساس عبده في حضن الشيخ، ويقلّد خطوات امرأة لعوب مهرولة في لهفة نحو كائن غير مرئيّ وهي تفتح ذراعيها في توقٍ وهيام، وبسخرية، يعيد تمثيل لحظة تطويق عبده لنفسه بساعد الرجل وهو يملّس فوق ثدييه ويكزّ على الشفة بالأسنان العلوية، بينما يُبرز مؤخرته، يتلاعب بها ويحكّها في الهواء.

كان الأخرس يغضب من إشارته، يتحوّل وجهه لحبّة طماطم وهو يدفع أكتاف سيد، ينفعل ويقول: «عـ عيب عـ علـ عليك». ثوان وما يلبث أن يهدأ مشيراً بسبابته إلى سيد، يكتم الضحك بكفّه في حين يرتج ويكمل: «حـ حتى المثـ المثل يـ يقول حطـ حطّه فـ في حـ حجر و ولا تـ تحطّه فـ في ذ ذكر».

لكنما وبعد وفاة الأخرس بسنوات؛ كان الحجر يمسك اللحظة التي ينبعث منها النفور، ويشعر بإحساس ذنبٍ لطلب حماية وأمان في صدر رجل آخر غير أبيه، وينكِته انعدام تلك اللحظة مع عزام طوال سنوات معاشرته، وغياب فرصة لجوء إليه.

كان سيد يرى أخطاء عزام في حقّه وكأنما معلّقة على حبل معقود من طرفيه في عنق كلٍّ منهما وهما يقفان أحدهما قبال الآخر. كانت كلّ الأخطاء مكوّمة أمام وجه الصغير سيد، يرى نفسه مسؤولاً عنها مع كلّ عقاب، لكن، ومع مرور الزمان؛ كان الولد يكبر ويتخطى أبيه، فيشاهد

كومة الخطايا وهي تنزلق فوق الحبل يوماً وراء يوم، وشبراً خلف شبر، هابطة نحو الطرف الآخر من الحبل، المربوط في عنق عزام، متكوّمة أمام الوجه المقابل، ومشوّشة على ملامح الأب، لكن، وأمام تلك الصورة الشائهة والمفضوحة بضعف عزام، كان العطف يباغت، والحبل الواصل ما بينهما يحزّ في عنق سيد حزّاً بحنين يستدعي حطّاب البنوّة، الذي يتسلّل خلف سيّد، مباغتاً ركبتيه بضربة فأس عتيّة تقصم ساقيه؛ فيسقط سيد، ومعه تهبط الأخطاء متدحرجة على الحبل في سرعة، ومتكوّمة من جديد أمام وجهه.

وحتى في غياب حطاب البنوة، كان الحجر نفسه يتقلب بشكٍّ في ذكرياته وصواب ردود فعله؛ واسِماً نفسه بالخطيئة وبانحياز التفسيرات، ومسلّطاً عليها لوماً متزايداً يوماً إثر يوم. كان يحسّ بثقل الذنب، ورأسه يدقدق زوايا التفاصيل القديمة بشاكوش الزمن، ويبرد أسطحها بمبرد حنين مستعار من معاينته لعلاقات المودة بين آباء وأبناء آخرين، يُعشّق بعضَها في بعض؛ مُعطياً صورة مخالفة وبعيدة عن الأصل، فيرى لعنته الكبرى في قتل صورة أبيه داخل عقله بتوهّمه غيرة الرجل منه وتعامله على ذلك الأساس، بل وقبل مشاركته في مقتل أبيه الكامل في نزيف يوم النخّاس، من خلال حركات طفولية للزهو بما يملك، كخلعه الجلباب في الغيط أو أمام أهل البيت، دافعاً الرجل نحو موته لمّا أراد أن يثبت رجولة مساوية للولد. كانت عينا سيد تتقلّبان في السماء، راجيتين إزاحة أثقال متزايدة تُشَكِّل هرماً مقلوباً يضرب ببوز مسنون في قلب سيد، وفي قاعدته دائماً مشهد عزام النازف. حتى أنه لمّا يرى سرب طيور أو غمامة مارّة، أو شكلاً لحروف على الجدران، أو يصادف كلمات هذيان من غريب، كان يلتمس فيها علاماتٍ ومعانيَ تشير إلى مظلومية ماضيه، ويستعير بها

الاطمئنان ليظلِّل عليه، ويحسّ من خلالها أن التفاصيل المعشّقة تنفكّ؛ ترتدّ سهامُ فِكره المصوّبة تجاه روحه ويرى عري الفعل. لكن وفي أقل من ساعة، ما تلبث العاطفة أن تعمل كمطرقة وكمبرد للتفاصيل من جديد، حاشرةً إياه في جوف الذنب؛ وعيناه ترجعان للتفتيش عن مسيس راحة في علامات حاضِرِه.

وكثيراً، في ليالي معاشرته لعزيزة وبعد إتيانه، كانت تمدّ يدها المتخبِّطة في محاولة الإمساك بكفّه من بين ظلام الحجرة، في حين تفتح ساقيها وتنقلب على ظهرها فوق السرير، سائلة إيّاه أن يعطيها سائله لتكبّه في داخلها لسدّ الرغبة في إنجاب عيّل. لكن الحجر كان يبتعد بيده عن مجالها، ينتر يدها بقسوة وينهض بسرعة عن السرير، ماسحاً يده وذكره في خِرقة بعناية خائفٍ من هروب قطرة إلى بطن عزيزة. وعزيزة تغضب، تُعدّد وتلوم سبب الوحدة، تندب حظوظها في جُمل محفوظة ومكررة وهي تخبط بالكفوف فوق المرتبة، لكنما بوعيٍ وحذر، وبعيداً عن التعرّض لعلاقة الرجل بالركبتين.

كان الحجر ينفعل أمام طول ملامة وإلحاح، يشخط في عداوات كثيرة مختبئة في أركان الغرفة المظلمة: «قلت فوق المئة مرة لا لزوم لعيال يا عزيزة. أنا مرضي بحالي والدنيا ضيقة على اثنين. فما بالك بعيال!». يروح في خطوات ضاغطة ويستهلك غضبه في إشعال المصباح، قبل أن يعود ليستلقي جوارها ويبدأ في محاولات مصالحة وتليين بعدما مضى بما في رأسه. يدفس رأسه في صدرها ويفرك «أنا كفاية عليك. أنا عيّل. بدماغ أصغر من أي عيل». يرتج وهو يقهقه في غاية نقل عدوى إلى وجه متجهّم. يعضعض في كتفها بشفتيه ويقرص فخذها. وفي عقله يسرح التفكير في ولد من صلبه، والولد يكبر كاشفاً -بقصدٍ أو دون قصد- عن عيوب في

الأب، عيوب لن يلاحظها سيد أو سيتغافل عنها لولا مجيء الولد، لكن مشابهة الولد أو -حتى- مخالفته للبذرة، تزيل الساتر عن تلك العيوب بمقارنات واستنباطات، وكأنما الولد يأخذها ويضعها تحت الشمس في غيط مكشوف أمام الخلق. وسيّد لا يقدر على احتمال الكشف الدائم، الكشف غير القابل للنسيان ولا التغافل ولا المداراة، كشف يتحرك على قدمين، مانحاً المزيد من عري الأب في العيون، فالولد ليس سرَّ أبيه، الولد عريُ أبيه يا حجر. كان سيّد يتخيّل نفسه وهي محبوسة في رأس الولد، والولد ينسِّل الحذاء فوق دماغ الأب بغيظ على مدار سنوات، معاقباً إيّاه على أخطاء لا يملك سيّد أن يردّ عليها في دماغ مُقفَل. وحين يمر العمر ويموت الأب؛ يُحسِن الولدُ الظنَّ بالعيوب لينال ثواباً على قفا أبٍ ميّت، وفي أحيان، لن يقدر الولد حتى على حسن الظنّ ذلك.

كان سيّد يسترجع لحظات الاقتراب من الأرض بعد دقائق من طيران فوق الصحراء بصحبة الأخرس والشيخ. ومن أعلى، بدت الواحة للأخرس كهلال أخضر منطبع فوق رمل أصفر، قوسه للخارج، وقعره ممتلئ بمياه يحدّها في الطرف الآخر جبل أسود، كبير ومنغلقٌ على حافتي الهلال. أما سيّد، فكان يشعر بروحه تنفلت خلفه منسحبة منه، مع كل درجة نزول يشهق معها بصوت مرتفع يصل إلى مسامع رفيقيه. ولم يتوقف رجفان أطرافه إلا بعد وقت من تمام الهبوط؛ حتى أنه وما إن لامست قدماه أرضَ الواحة وأفلته الشيخ من ذراعه حتى سقط من طوله، وقعد يتصدّى لصعوبة التحكّم في عضلاته خلال محاولات التربّع لمواراة رعشات ساقيه عن عيون الشيخ؛ فيلجأ إلى استخدام يديه في ثني الساق وضمّهما إلى حوضه، بينما يكبس بالكفوف على قصبتي الساق، متخلّياً عن بدايات الاستكشاف للأخرس، الذي راح يركض في أركان الواحة منذ نزوله، يشاهد، ويرجع

ليصف بكلمات مبتورة من لهاث، ويشدّ سيّد ليروح ويرى معه، وسيّد يستردّ ذراعه من الأخرس ليعود ويطوّق ساقيه، ويطلب منه وقتاً للراحة. كان الشيخ يبتسم، يتطلّع في القاعد، ويقول في لوم مازح: «وماذا ستفعل يا مأذون إن صرت مَجازاً في يوم!».

كان جبين سيّد يتقلب بذكرياته في تلك اللحظة فوق قبر الأخرس، يحتكّ بالجدار ويتذوّق ذرّات الطين على شفتيه، جسده يرتجّ ويتشنّج من جديد، وكما فعل منذ ساعة بين طبطبات فاطمة حينما كان يردّ على المواساة من بين دمعه: «أنا غير زعلان يا فاطمة. أنا عارف أن الحجر للأرض. الحجر ثقيل يا فاطمة. وليس مقسوماً له طيران. حجر! وماذا تعملين بحجر غير أن تدوسيه أو ترميه في وجه عدوّ».

كانت الواحة غارقة في النبات والشجر، وفي بطنها يجري حوض الماء، في غاية الاتساع عند المنتصف ويضيق من طرفيه، وبقعر قريب ومن مرجان أحمر، ولا تتبيّن العين الضفة الأخرى الخارجة عن نطاق الواحة، والمردومة تحت عتمة كالحة.

وظلَّ الولدان يتنقلان ويستكشفان أنحاء واحة القطيفة، يتمدّدان على البطون فوق أحجار مستوية عند شفة الحوض، وينهلان بالأيدي غرفات من ماء صافٍ، ويقطفان من ثمار شجرة تستقرّ أمام الحوض في منتصف الطرف المقعّر من الواحة. كانت الشجرة ضخمة، بمساحة جذع تقرب ربع قيراط، وبارتفاع شاهق يمكن أن يصل إلى مئة ذراع، عارية وتخلو من الأغصان في أعلاها الذي يبدو كرمح كبير، مدبّب وموحش، بينما تزدحم بأغصان قريبة من الأرض. كانت أوراق الأغصان تتشابك بمهرجان من ألوان خضراء ووردية وبنفسجية، وخلال الأغصان وفي امتداد كرنفالي للأوراق، ينمو مئة نوع من فاكهة معلومة وغير معلومة للولدين.

وانضمّ الولدان إلى مأذوني القطيفة، في أعوام من خدمة أحد عشر مَجازاً يحملون علوم الدنيا ويزحزحون ضغائنها ما استطاعوا بإذن ربّهم، مُلطِّفين من أثر النوائب والأوجاع. وأبلغهما الشيخ كريم بمعنى الإذن، وتكليف المأذونين، والالتحاق بخدمة المجازات. أوضح لهما طريقة الوصول إلى الواحة وموعده. قال إنّ الواحة لا يصلها قاصد، ووصولها مقصور على مجاز أو نائل إذن، وأن المجازات يقعدون عادة في ليلة الجمعة تحت شجرة المئة صنف، وفي أحيانٍ تكون الجلسة خلال ليالي المناسبات والذكريات الطيبة، وفيها يتنادم المجازات ويتبادلون الحكايات والمشاهد حول الأيام السبعة، يتسامرون بعد ساعات طويلة من وحدة واغتراب أثناء تأدية واجب التخفيف، يقعدون في نصف دائرة ويستمرّون في مدح ذي اللطائف إلى قرب النور، ينزعون عن أرواحهم علق الدنيا الملتصق بها ممّا عاينت خلال المهمّات ومما أزاحت من أحزان، ويزيلون إجهاد الأجنحة المسافرة بدفقات من ماء النبع.

وطلب الشيخ منهما الخروج إلى الصحراء في كل ليلة جمعة، بعد صلاة العشاء مباشرة، والسير فيها لدقائق دون التفكير في وجهة. كان يشير إلى أغنام متوحشة تُحلِّق في نواحي الواحة، وقال إنها توحّشت من ندرة العِشرة، وأنها تُقبِل من الصحراء مجتمعة في الواحة للظل والماء، وأن المأذونين يجهّزون منها ومن طيور الواحة وفاكهتها مأدبة المجازات، من بعد العشاء وقبل قعود المجازات في منتصف ليل الجمعة. شبك الشيخ أصابعه أمام بطنه، سحب نفَساً عميقاً وأكمل: «ولا قلق، فلن يفتقد أحدٌ غيابَكما في تلك الليلة، فالمجازات يغطّون ظهوركم».

وقبل العودة إلى المناجاة، كان الأخرس يشير بذراعه إلى الجهة الأخرى من الحوض مستفسراً؛ بصّ الشيخ إلى الظلام في موضع الإشارة

مع ابتسامة متخفّية، التفت إلى الحجر متفحّصاً كأنما هو السائل، أجاب بعد برهة: «فيما بعد».

وتذكّر سيد أن زينب طوال تلك السنوات لم تفتقده أبداً، وكذلك لم يسأل أهل بيت الأخرس عن غيابه ولو مرّة. كانا يعودان قرب الفجر إلى المناجاة، مُهملين الطرقات الرئيسية ومتسلّلين من خلال الغيطان إلى البيوت. وربما اصطدما بنفر من أهل البلد في العتمة، وربما سأله المصادِفُ في خبث عن وجهته أو مكان قضائه لليلة؛ فلا يلقي الحجر بالًا لحكاياتهم التي تلوك أسباب سهراته وكأنه كوز ذرة. كان مسلّحاً بإحساس علوّ الخدمة واصطفائه لخواصّ الصحبة، متمتّعاً بطلاوة زاهية للسرّ.

وفي بيته، كان يرى النوم ضارباً في الدار كأنما يعبر على أهل الكهف. ومهما صاحبه من ضجّة في دخوله خلال الأحيان التي يجد فيها باب الدار مغلقاً كما لم يتركه من خلفه، ويضطرّ إلى تسلّق الجدران حاشراً قدميه في ثقوب وفوق نتوءاته حتى يصل إلى السطح، وينزل من خلال السلم النقّالي إلى باحة الدار؛ لم يصحُ واحد فيهم ولا لمرّة، ولم يتقلّب ويغيّر حتى من موضع نومته. ولم تنكسر تغطية المجازات لغيابهم إلا في الليلة التي راح فيها كلّ من في الواحة في نومٍ عميق وبلا سبب، بعدما هبّت رائحة غريبة وحامية في الواحة، وصحا المجازات والمأذونون في اليوم التالي مفزوعين تحت شمس ناقرة من وسط السماء.

كانت الغرابة تنزاح عن الولدين في ليلة إثر ليلة من الخدمة؛ ويجدان العون والإرشاد من قدامى المأذونين، تنكشّف لهما الغوامض تدريجياً بحكايات هامسة ومسرّبة بين المأذونين في أثناء الخدمة. عرفا عن مهمّات المجازات التي تُحدث التوازن وتخفّف الآلام عن الخلق، وعن أخوية

القطيفة الممتدة كحبل طويل ومعقود، واستمعا إلى روايات عن شمس المجازات التي تتبدّل في شروق وغروب؛ حين ينزاح أقدم المجازات عن الخدمة، مخلّفاً مكانَه لمجازٍ جديدٍ ينضم إلى ذيل المجازات فيما يسمى بالحُلُول. وعرف الولدان أن الشيخ رجب القاضي هو أقدم المجازات الحاضرين، وأن الشيخ كريم الحفني هو أحدثهم. وحتى رئاسة المجازات خاضعة للتبدّل، فانزياح مَجازٍ من المقدمة في لحظة الحُلول يعني أن ينتقل الرئيس عن موضعه؛ تاركاً إياه للمجاز المجاور. ولم يشهد المأذونون الحاضرون أيّاً من تلك اللحظات، كانوا يهمسون بإجابات مقتضبة ومسروقة عن أسئلة عبده بأن آخر حلول ربما جرى منذ مئتي سنة أو أكثر حينما حلّ الشيخ كريم، لكنهم يعرفونها من حكايات قديمة متناقلة بالهمس بين المأذونين، بدت كخرافات بتعدّد تفصيلاتها وأوجه حكيها، ويحمل لها تأكيداً خفيّاً وواهياً؛ ترتيبٌ ثابت لجلوس المجازات في ليلة الجمعة على شكل قوس، أمام ماء الحوض، وأسفل شجرة المئة صنف، حيث يحتلّ الشيخ رجب أقصى اليمين، والشيخ كريم أقصى اليسار، وفي المنتصف يقعد المجاز الرئيس، الشيخ خضر.

لكن أيّ واحد لم يعطِ إجابة شافية عن سؤالين؛ كان الأول من عبده ومتعلّقاً بما في الضفة الأخرى من النبع، المظلمة دوماً بما يمنع أيّ رؤية، والتي همس له بعض المأذونين بأن لها أصواتاً غريبة كعويل وضحك تتسرّب في بعض ليالي الخدمة؛ فيعلو فوقها صوت المجازات بالغناء والمديح. والثاني، كان سؤال الحجر الوحيد والمتكرِّر من بين تحرّكه كنحلة مخلصة في أثناء ليالي الخدمة، وهو السؤال الذي لم تكُ له إجابة شافية بين المأذونين، حتى أنه توجّه به بعد فترة إلى الشيخ كريم وسأله: «هل كل خدماتنا بدنية يا مولانا؟ ولا مجال لمحاسبة النفس أو تهذيب

سلوك!». كان الشيخ يربّت على كتفه ويجيب: «رافق الصافي تُغسل وحدها روحك».

ولم يكن دخول الولدين إلى عالم المجازات بأجنحة الشيخ هو السبب الوحيد لقربه من قلب الولدين ولجوئهما إليه وقت الحاجة، ولكن لطف الشيخ في المعاملة مع المأذونين، واحتوائه لأخطاء وزلّات الخدمة -بعكس آخرين مثل الشيخ رجب-، والحرص في السؤال عنهم وتفقّد الأحوال، وكلامه بما يُفهم؛ كان ساقاً ثانية تخطو بها المحبّة في القلب.

وفي فترة انقطاع عبده عن الخدمة؛ ظلَّ الشيخ دائم السؤال عن أحواله دون النبش عن السبب، بأدب يظهر احترام الخصوصية ودون ضجّة، يهمس في أذن سيد باستفسار عن صحة الولد، ويعقبه بدعوات العافية والصلاح. وحتى لمّا أتى الحجر مستنجداً على استحياء في أثناء ليلة خدمة، سائلاً العون أمام حالة رفيقٍ مستعصية؛ سحبه الشيخ في هدوء من قوس المجازات إلى طرف الواحة، وقعد أسفل شجرة جمّيز قرب حدود الرمل. ناول الحجرَ من ثمار ساقطة، وأخذ هو واحدة وراح يلوك فيها، بينما يتبسّط بهزار خفيف مع وقفة سيد المتخشبة، قبل أن يعتدل في جلسته وينصت لوصف الحالة.

كان الحجر يصف امتناع الأخرس عن الكلام، ومحاولات أهله والأقرباء، والشيخ يطرق برأسه، يسند كوعيه إلى فخذيه ويغطّي وجهه بالكفّين، يتأرجح رأسه في بطء ويهمس بصوت مكتوم كأنما يحدث روحه: «ما لك فهو لك وإن فشلت يداك الصغيرتان في استيعابه. وما ليس لك فليس لك، حتى وإن كان قلبك الذي تجلّى عليك عصيانُه. ولكنك، رزقت حبَّ ما ليس لك؛ فطغى ما ليس لك على ما لك، حتى فقدت يداك القدرة على التصديق؛ فأصبح ما لك ليس لك، وما ليس لك، سرابك البعيد».

تنهّد الشيخ. كوّر كفيه أمام فمه. قرأ بهمهمات ونفخ فيهما. أمسك بيدي الحجر وضغط. قال: «مُرَّ عليه غداً. اقبضْ واجذبه بيديك. سوف يلين ويطاوع».

كانت التغيّرات التي تطرأ على الولدين بعد الانضمام إلى الخدمة لافتة؛ فبينما تخلّص سيّد من غضبه المتوقد وطواعية من الأسلحة (ودون تدخّل من زينب) التي كان يتفنّن في عملها من نبابيت خشبية مرشوقة في أطرافها بمسامير حادة وبارزة، ومن سلاسل معدنية تلتفّ في حلقاتها أسلاك ناتئة، ومن مُدْيات يتحصّل على نصالها من نحاسيات مصهورة وهو يحشرها بعناية في مقابض خشبية تأخذ جلّ وقته خلال التشكيل والنحت والشحذ، ثم الإخفاء عن عيون زينب، كانت كلمات عبده -في المقابل- تقلّ في تدريج يتعاكس مع سهولة غضبه واستفزازه، حتى انقطعت تماماً في ذات صباح. وظلَّ عبده ممتلئاً بالغضب في بدايات إضرابه عن الكلام، رافضاً لمحاولات التواصل، منغلقاً على روحه؛ ومختفياً طوال النهار عن ألعاب العيال وعن أهل بيته، حروناً أمام علاجات أمّه، ولم تُجدِ معه الأشربة ولا المناقيع التي سقتها له أم عبده بالغصب. طافت به المرأة على أولياء وقبور ومداوين، والولد الذي نالته على كبر بعد حبل طويل من البنات لا ينطق. كان يقذف بالوصفات في وجه المداوين، ويكسر ما تطوله يداه في المقامات. قبضت على يده وسحبته خلفها إلى جزّار في سوق المناجاة. كان الجزّار يقف أمام ثلاث عِصِيّ خشبية غليظة، قواعدها محشورة في الأرض، ورؤوسها متقاطعة ومربوطة بعضها إلى البعض الآخر، ومعلّق على الرؤوس حبل في آخره خطاف يحمل ذبيحة طازجة تتمايل بين العصي، بينما تتنقل حولهم أغنام تلوك من أكوام حشائش. أخرج الجزار أسلحته البيضاء من كزلك وبنصر وساطور، شاهراً إياها واحداً بعد واحد

أمام عيون عبده، وهي تلمع عاكسة أشعة الشمس. تناول الكزلك، وأخرج حجر السّن من طبق ماء، وحطّه فوق وضم خشبي من جذع شجرة سنط. مرّر الكزلك ذهاباً وإياباً على السطح الناعم للحجر عدّة مرّات، بينما يرشّ قطرات من طبق الماء فوق الحجر أثناء الشحذ. التفّ الرجل من خلف الوضم وتناول خروفاً من قرنيه، أنامه على جانبه الأيمن فوق الأرض. ركب الخروفَ وثبَّت سيقانه من خلال الضغط عليها بركبتيه. كبَّر وبسمل في مواجهة الخروف، وأمسك الحلقوم بيسراه بينما يقطع الودجين بالكزلك. كان الخروف يرفّس ونافورة الدم ترتفع من العنق. نهض الجزار وجرّ الأخرس من يد أمه، أنامه على جانبه قبال الخروف، لاعب الكزلك في الهواء أمامه ثم مرّر الطرف البارد على عنق الولد بحركة سريعة، ويده الأخرى تأخذ من دم الخروف المنساب على الأرض وتُغرق به وجه الولد. وبالرغم من فزع الأخرس ومحاولته التملّص من ركبتَي الجزّار، إلا أنه لم ينطق أمام تلك الطريقة المشهورة لمداواة الخرس.

وفي الليلة الأولى من عودته إلى واحة القطيفة بعد انقطاع، كان عبده صامتاً وبنظرات حادة كأنه على أعتاب عركة. يتلكّأ في الخدمة، ويترك مسائل الإمساك بالغنم والذبح والطهي لأقرانه. يمسك بسطل الماء ويفلته في داخل الحوض، يروح ويختفي في طرف الواحة، قبل أن يعود قرب ختام الليلة ويقف قبال الشيخ كريم تماماً في وسط الحلقة، ويرفع صوته قاطعاً غناء المجازات: «لـ لمّا حـ حط الجـ الجزار السـ سكـ سكينة فـ فوق رقـ رقبتي، خـ خط خطر فـ في في بالي سـ سيـ سيد سيدنا إسـ إسمـ إسماعيل، وحـ حا حادثة الـ الذ الذبح وال والفـ والفدية. و و وقـ وقلـ وقلت جـ جائـ جائز احـ احتا احتاجوا تخـ تخويفه، لـ لمـ لمداواته مـ من الـ الخـ الخـ الخرس! و وقـ وقلت يـ يـ يجـو يجوز والله أعـ أعلم أ أن الـ

الر الرجل كـ كان سـ سـ ساكت، لـ لأ لأنه كـ كان يـ يفـ يفكر فـ في في لغـ لغة جـ جـ جد جديدة للـ للكلام، كـ كما قـ قال لـ لنا شـ شيـ شيخ الـ الجا الجامع أ أن إ إ إسـ ماعيل أو أو أول من تـ تكلم الـ العـ العربية. و وقـ وقلت إن سـ سـ سكوته عـ عمـ عمل له ما ما عا عازه، و وتكلم بـ بلغـ بلغة ثـ ثانـ ثانية غـ غيـ غير لـ لغـة لغة النـ الناس، لـ لكن مـ ما سـ سمـ سمعنا أنـ أنـ أنهم سـ سمـ سمـ سمّوه عبـ إ إسـ إسما إسماعيل الأخرس».

كان الحجر يهزّ رأسه بأسى أمام قبر الأخرس، يروح ببصره من جديد إلى قبّة فاطمة، ويتذكر ارتباك الشيخ كريم أمام تلك الكلمات، والذي انقلب إلى ابتسامة متفهّمة ونظرة تفكير، بينما أطلّ السخط من وجوه مجازات، وأطرق أخرون برؤوسهم هاربين.

ألصق الحجر شفتيه بجدار المقبرة. همس: «حين يتوقف الغلبان عن الكلام بإرادته يسمّونه الأخرس، أما حين يتوقف أصحاب المقام فهم سكوتٌ يا صاحبي».

كان عبده مصرّاً على السكوت، ومحاولات الحجر للفهم تبوء بفشل. وحتى لمّا عاد ليتكلم بكلمات قليلة، مقصورة على الحجر، لم يصل سيد إلى مكمن العلة إلا في خلال ليلة عودة عبده إلى الخدمة. كان الحجر تلك الليلة يُصفِّر أمام عشّة صاحبه عقب صلاة العشاء، ويتوارى خلف نخلة من نخلات القط. ولمّا خرج عبده؛ قبض الحجر على يديه وسحبه إلى الصحراء كما أوصاه الشيخ كريم. كان الأخرس ليّناً ومنقاداً. وخلال مشيهما فوق الرمل همس في ضيق من تلقاء نفسه: «يـ يا يا سـ سـ سيد حسـ حسِّي مقرف. لـ لا ينـ ينفـ ينفع فـ فـ في غناء. حـ حـ حمار ينهق. كان فـ في ود ود ودّي الغناء بـ بـ بصوت حـ حـ حلو، كالـ كالـ كالمجا ز زات لمـ لما تقعد فـ فـ في آخر السـ السـ السهرة وتـ تقول وتطرب. هـ هـ هو

بـ بعيد عن ربنا؟ كلـ كلما سـ سـ سمعتهم يتفـ يتفـ يتفـ يتفتت قلـ لـ قلبي بالحلاوة، و و وفـ وفتـ وفتيته يد يد يدخل بعدها فـ في في نار الـ الكُر الكر الكُرْه بما لم تطـ تطـ تطله يدي. يا يا يا أخي! والله، لـ لا طلبـ بـ طلبت مـ مـ من من الدنيا الـ الـ المـ المـ المال ولـ ولـ لا النسب، ولـ ولـ ولا حـ حـ حتـ حتى حـ حـ حياة أطول لـ لـ لأبي. عوزتي من الد الدنيا حـ حـ حلاوة حسـ حسـ حسّي، والد دن والدنيا عليَّ ضـ ضـ ضـ ضنينة».

وحتى بعد الانتظام في الخدمة، ظلَّ عبده محاطاً بالمشكلات أينما تنقّل. ولا ينسى الحجر حينما غضب الشيخ رجب وطرد عبده في منتصف ليلة احتفالية؛ عقب سؤال الأخرس عن معراج النبي. كانت حلقة المجازات معقودة، والشيخ خضر يتكلم عن ذكرى الإسراء وهبة الطيران، والالتصاق بأفعال الطائر الأعظم. بينما عبده يتوقف عن الخدمة ويسترق السمع، يذهب بخطوات متعجّلة وعصبية إلى الحلقة، ثم يرفع صوته ويقطع الحديث الدائر. كان يقول: «إن إن إن النـ نـ النبي، أسـ أسـ أُسري به، وصـ وصلّى إمـ إمـ إماماً بالـ بالـ بالـ بالأن بالأنبياء، وتـ وتـ تعـ تعرّف بهم، ثـ ثـ ثم عـ عـ عرج إلـ إلى السـ السماء بعدها، وقـ و و وقا وقابل نفس الـ الـ الأنـ الأنبـ الأنبياء مـ ممـ مرة أخـ أخـ أُخرى، فـ فـ فـ فـ فإذا به، يسـ سـ سـ يسأل جبـ جبريلَ عن أسـ أسـ أسمائهم ثـ ثـ ثا ثانية، و و وهو ملتقٍ بهم فـ في في نفس ذ ذ ذات الـ الليلة!». كان الصمت يقع على المجازات، والشيخ رجب ينتزع نفسه بعد برهة، يقف في مقابل وجه عبده ويهدر فيه: «إذ نحن نطير يا مأذون يا منقوص النعمة، فهل أقل منها سيدك النبي!». أداره الشيخ بعنف، وظلَّ وراءه بدفعاتٍ في ظهره حتى خارج الواحة.

وصحيح أن دموع عبده تفجّرت أمام الطرد، لكنما بدافع من رواسب

سابقة وغير محتملة. وأصرّ الحجر على ملازمة صديقه في طريق العودة المبكرة، بالرغم من كلمات عبده عن وجوب بقائه في الواحة وإخراج نفسه من دائرة مشاكله.

كان الصغيران يضحكان بعد خطوات من الخروج وطوال الطريق إلى المناجاة؛ يتذكران العروق النافرة في جبهة الشيخ، والأخرس يكرّر جملة الشيخ ويقلّده في إعادات ساخرة: «يا يا يا مـ مأ مأ مأذون يا يا منـ منـ منقوص النـ النـ النعمة»، بأصوات متنوّعة؛ بين مفخّمة ورفيعة وحادّة.

وفي الظلام، انقطع الأخرس فجأة عن الضحك، كأنما نار وقع عليها سطلُ ماء. كان في صوته حزن يعرفه سيد بينما يقول: «الشـ الشـ الشيخ ر رجب لم يـ يز يزعل من كـ كـ كلامـ كلامي عـ عن المـ المعراج، هـ هو زعـ زعـ زعلان من من تسـ تسـ تسميتي له مـ مـ مجـ مجاز بالـ بالأقدمية. أ أخـ أخلاقه بعيدة يا يا سـ سـ سيد عـ عن الـ الـ البقية، عـ عـ على طول الـ الـ الخطّ كـ كـ كاره و و وغضـ غضـ وغضبان. و وأ أنا فـ في الـ الـ الأول قـ قلـ قلت للـ للـ للمأذونين أنـ أنـ أني مسـ مستغرب، فـ فـ فرجب بـ بـ بعيد عن عن طـ طـ طبع الـ الـ المـ المـ المجازات، و وأ وأنه مـ مـ مـ مجاز بـ بـ بالـ بالأقدمية. والـ والـ والمـأ المأذونون ها هـ هاتك يا ضحك، لمـ لممـ لما قـ قـ قلت لهم، إن إن مو مو مؤهـ مؤهلات ر رجب هـ هي الـ الصـ صحيان بـ بـ بدري، و و ويجيء أول و واحد و ويـ يـ يقعد فـ في صـ صف المـ المجازات، و و و ولما يـ يصـ يصل الـ الـ المـ المجا زات، و و ويلـ يلقوه، يـ يـ يقولوا خـ خـ خلاص، خـ خلـ خلك معنا، و و وكـا كأنهم فـ في غيـ غيـ غيط قطن، و ويسـ يستحرمون عودة الـ الـ الأ الأنفار ا الز ز الزائدة عن الحاجة. و و وظظـ وظل الـ الـ المأ المأذون هـ هـ هشام الـ الـ الله يسا سا يسامحه، يـ يـ يـ يكرر قـ قـ قولي و و ويضحك، كـ كـ كلـ كلما

شافني، و و و كا كان ا الشـ شـ الشيخ يـ يـ يمر فـ فـ في مرة و و سـ سمعه».

سكت عبده لبرهة. أكمل: «لـ لـ لـ لكن لمـ لمـ لما فكـ فكـ فكرت بالراحة، قـ قلت والـ والـ والله الر ر الرجل مـ مـ معه حـ حق. تـ تـ تصوّر يا يا يا سيد أ أن أن تـ تـ تعيش فـ في في نعـ نعـ نعمة لـ لـ لقرون، و وتصحو فـ فـ في يوم و و تـ تـ تلـ تلقاها مـ ممـ مهددة بـ بـ بز بزوال. لـ لـ لـ لو صـ صـ صح كـ كـ كلام الـ الـ المأ المأذونين، فـ فالشـ فالشيخ ر ر رجب مـ مـ متوتر، مـ من من انـ انـ انتـ انتظار الضـ الضربة عـ على القفا فـ في في أ أي لـ لـ لحظة، و و و ترك نـ نـ نعمة عـ عـ عاش حـ حـ حلا حلاوتها لقرون».

غطس حزن عبده في الضحك من جديد. قال: «أضـ أضحكك! هـ هـ هشام هـ هـ ها هذا مجـ مجنون بـ بـ بلا عقل والله. تـ تـ تصـ وّر، لمـ لمـ لمّا أ أخـ أخذتني أمـ أمي إ إلى مـ مـ مقام النـ نـ نـ النخّاس، كـ كـ كان هـ هـ هشام هـ هنـ هناك، يـ يـ ينام علـ على على بطنه فـ في وسط الـ الـ الخلق النـ نـ النائمة، يـ يـ يشـ يشارك فـ في في الد دو الدوسة قد قد قدام سـ سـ سا ساحة المقام. بـ بـ بين مـ مريدين مـ متـ متلا صقين، يثـ يثـ يثنون أذ أذرعهم تـ تحـ تحت الـ الـ الجباه، و و يـ يقولون «الـ الله حي»، بـ بحـ بحرقة و ومن غير تـ تـ توقف. فـ فـ في الـ الأ الأول، جـ جـ جرى خـ خو خواص الشـ الشـ الشيخ المنزلاوي، بـ بـ بأ بأقدام حا حافية على ظـو ظـو ظهور النـ نائمين. و و وسـ سمعت الولد يـ يـ يتـ يتأوه، و و وصو صوته عـ عـ علا، لمـ لمّا مـ مـ مشوا فـ فو فوق ظهره. فـ فبصّ له و و و واحد نائم، جـ جـ جواره، و و وقال: تتـ تتـ تتوجع مـ مـ من ر ر رجل حافـ حافية! هـ هـ هتعمل ايه لمـ لمـ لما يـ يـ يمر الشـ الشيخ بـ بـ حـ حوافر الـ الـ حـ الحصان؟ والـ والـ والولد سـ سـ سأله: هـ هـ هي فـ فـ فيها حـ حـ حصان؟ و و ودخل الشـ الشيخ المنزلاوي، يـ يـ يـ يتمخطر فـ فـ فو فوق

حـ حـ حصان أ أسود. و و والولد ر رافع رأ رأسه، ويـ يبص عـ على الشـ الشـ الشيخ. و وصوته جـ جـ جاب آ آ آخر البلد و و هـ هو يـ يـ يقول: نـ نـ نهار أسود، فـ فـ فيها حـ حـ حصان صـ صـ صـ صحيح. و و النـ النائم جـ جـ جاره يـ يـ يرفع يده، و و ويـ ويكبس ر ر رأس هـ هـ هشام بالـ بالعافية فـ فـ في الأرض. كـ كـ كان الشـ الشـ الشيخ الـ الـ المنزلاوي، بـ بـ بلحية بـ بـ بيضاء، و و ويـ يلبس عمـ عمامة كـ كـ كبيرة مـ مـ من مـ مو موسلين أخضر. و و وحـ حصانه أحجم فـ فـ في الـ الأول عـ عـ عن المشي فـ فو فو فوق ا الظهور. حـ حتـ حتى سـ سـ سحبه الخواص مـ مـ من الأمام، و و ودفعوه مـ مـ من الـ الـ الخلف. فـ فـ فـ فمشى مـ مـ مـ مشية الرهوان عـ عـ على الـ الخلق النـ النائمة. و و وسـ سمعنا طقـ طقـ طقـ طقة الـ الـ العظام تحـ تحت حو حو حوافره. و و وأول مـ ما د د د دهس الحصان النـ النـ النائم جـ جـ جاره، و و وهـ هشام يـ يـ يرفع ر ر رأسه ويبص، نـ ناوله جـ جاره عـ عـ على قفاه، لـ لـ لتعود جبـ جبـ جبهته على الأرض، و و وهو يـ يـ يقول لـ لـ لهشام من من بـ بـ بين تـ تـ تأ تأوهاته: الـ المـ المتلفت لـ لا يصل يـ يـ يا ولد. لـ لـ لكن هـ هـ هشام قـ قـ قام، منطور، و و ورأسه تـ تـ تخبط فـ فـ في فـ فـ فك الـ الحصان. قـ قـ قعد يـ يصرخ: لـ لـ لا مو متـ متلفت و و ولا يحـ يحزنـ ون يا يا عم. ر ر رفع ر رأسه إ إلى الـ الـ الراكب، و و وقـ وقال يـ ير يرجوه و وكـ كأنه فـ فـ في عياط: أ أ أنا عـ عـ على لحم بـ بـ بطني مـ من أمس يـ يا عـ عم الشـ الشيخ، و و وحصانك شـ شكـ شكله بـ بـ بكامل عـ عا عافيته ما ما ما شاء الله، و و وشبـ شبعان، و و وسـ سيخرم معدتي الـ الـ الفـ الفاضية كـ كـ كسهم يـ يـ يمر فـ فـ في هواء. عم الشـ الشـ الشيخ! أسـ أسـ أستأذنك، أ أ أروح أ أكـ أكل لـ لقمة وأ أرجع أ أ أنام بـ بـ بعدها قـ قدامه. كـ كا كان الشـ الشيخ المـ مـ المنزلاوي يـ يـ يضحك

حـ حـ حتى سـ سـ سقطت مـ من من عـ على ر ر رأسه العِمّة، و و وضـ ضحك النـ النائمون حـ حـ حتى و وقفوا، و و والنـ الناس الـ الـ الواقفة تتـ تتفرج نـ نا نامت عـ على الـ الأرض مـ من ا الضحك، و و والد دوسة انـ انـ انقلبت مسـ مسخرة».

سكت عبده، والحجر يسمع تردّد أنفاسه المختلطة بدوسة الأقدام على الرمل وبنعيق لبومة بعيدة. تنهد. قال: «الكل نائم على بطنه وفي انتظار حوافر الحصان؛ مستسلم بالأمل وللأمل، مجازات ومأذونون، نخّاس ومناجاة، أمي وأمك. نستحمل وجع عُمر، على أمل في لحظة إثبات. وكأننا نعرف أن الحقيقة غير موجودة، سحابة وهم، ونحن نخلقها في العيون ونهلل لها، ونضحك على ألم روحنا بعلامات الحدوة على الظهر. حتى الشيخ كريم، ليس كريماً إلا بطزاجة النعمة. النعمة تُغيّر في الواحد يا سيد. والبعيد عن يديك هو الناهش. حتى في المجازات والأنبياء. سيدنا موسى ترك آياتِه وسرح وراء ما في يد الخضر. العوزة عِلّة، والخرس دواء».

كان الحجر يتمسّح بخدّه في جدار القبر، ويشوف في شقوقه وبين تعرجات السطح الطيني: غضبَ الشيخ، ومزاح الصبيّين خلال طريق العودة، وكلام الأخرس عن قرصة النعمة. وعلى شفتيه خطت ابتسامة واهنة، بينما تهبط على رأسه أحداث ليلة وعده محلّقة كطائر بمخالب، يغرسها في القلب وينتزعه، ثم يمضي به مبتعداً، تاركاً إياه بصدر أجوف طوال سنوات عمره التالية.

وفي تلك الليلة؛ كان الحجر يتنقل في خفّة من مساحة تجهيز الطعام التي يتكالب حولها المأذونون على بعد أمتار من شجرة المئة صنف، حاملاً صوانيَ وأباريقَ ممتلئة إلى وسط دائرة المجازات، بينما يستمع

-خلال إمداداته- إلى شذرات من حكايات الأيام السبعة، وإلى ما أزاله المجازات من كروب وهموم.

حكى الشيخ محمود الضوي عن مريض على أبواب الموت وهو عائل وحيد لأسرته، وقال الشيخ إنه انسلت من سطح الدار، وجلس إلى جوار المريض طوال الليل بعد يأس أهله من الحالة وذهابهم في النوم، وقعد يمرّض فيه، يضغط على الرأس المحموم ويمتصّ منه الوجع؛ إلى أن قام الرجل مُعافى مع دخول الصبح. وما إن انتهى الشيخ من كلامه حتى نظر الشيخ رجب تجاه الشيخ كريم. كان على شفتيه ابتسامة هازئة وهو يخلط طبق الأرز بقطع بطاطس مطبوخة ويهرسها بقعر الملعقة قبل أن يلحسه بلسانه. سأله: «وأنت يا شباب المجازات، من الحزينة التي داويت قلبها من حرقة الحب في هذا الأسبوع؟». كان كريم يبتسم في خجل، يرفع كفّه أمام نور الموقد ليبدو في حافتها تهتّك وآثار أسنان. وحكى عن كلب بساقٍ مكسورة تكالبت عليه كلاب الحي في كلّ مورد حتى احترق من الجوع والعطش. وقال الشيخ إنه أزاح الكلاب المتجمّعة عن المكسور بصعوبة حتى نهشه واحدٌ مسعور، قبل أن يجبِّر ساقَ الكلب ويمتصَّ الألم. كان المجاز الرئيس الشيخ خضر يبتسم ويومئ باستحسان وتعاطف، يتناول كفَّ كريم بين يديه، يدعكها حتى راحت آثار العضّة، بينما بقي رجب يهزّ رأسه في استخفاف. كان الحجر كثيراً ما سمع رجب حين يصفُ الشيخ كريم ببيطار المجازات وهو يقول في ضيق: «فليجعل حنّية القلب لمن به عقل، كل مرة نسمع عن حمار وبقرة وحمام، هذا جهد مهدور. ولو فتح عليه ربّنا يترك البهائم ويمسك في كل ملتاعة من حب. أين هو من المرضى والجوعى يا شيخ محمود!». وما إن انتهى كريم من كلامٍ مقتضب عن بقية مهمات الأسبوع حتى ترك الشيخ رجب طبقه على

الأرض ووقف فجأة ودون داعٍ، كان في عينيه زهو يكبسه بابتسامة تواضع خائنة، يفرد قامته بينما يصوّب نظره إلى كريم ويقول: «امرأة عجوز خارجة من السوق وبيضاتها التي تسترزق منها فسدت من الحر. كانت جوعانة وتبكي وهي بلا عائل ولا أحد يسأل. ومضطرة إلى انتظار بيض فراخها حتى تقدر أن تأكل». توقف رجب لبرهة، أدار عينيه في المجلس، رفع سبابته وهزّها ببطء «طرت وأحضرت لها اللحم والدقيق والأرز. أخذتها من يديها وقعدت أطبخ أمام الفرن. قلت والله لن آتي بطعام جاهز، سأعمله بيدي. أكلتْ حتى شبعت. وروّحت فرحانة وهي تحمل بقية الأكل ولله الحمد».

فرغ المجازات من الطعام وشكّلوا قوس المدائح، كلّ واحد في مجلسه المحفوظ. وارتفعت الربابة والطبلة محلقتين في الهواء بالعزف. كان الحجر يطلّ على نظرة الحزن المشوبة بجوعٍ في عين الأخرس، وما لبثت روحه أن تأرجحت على الأنغام، ضائعة في لذّة محرقة، وهو منقطع الحواس ويتنقّل بين أحد عشر مجازاً، تنبت في ظهورهم أجنحة بيضاء عملاقة. كان الحجر في جلبابٍ أبيض وطاقيّة، جسمه يتمايل ورأسه يتطوّح بخفّة الذِّكر، يمسك بدورق ويغرف فيه من ماء الحوض أمام المجلس ويدور؛ يصبُّ على أقدام المجازات، يفركها بيديه ويدلِّك، يترك الدورق على حافة الحوض، يعود ويقف مع بعض الخدم خلف ظهور المجازات؛ يحصر بين كفَّيه الأجنحة، ويربّت بالتصفيق منقّلاً كفَّيه على أجزائها؛ ليزيل غبار المسافة وإنهاك السفر، بينما يتشمّم روائح من مسكٍ وعود إثر كلّ صفقة.

وفي أوج النشوة وعلى غير الموعد، انقطع الغناء وهبطت الربابة والطبلة بنعومة فوق العشب؛ حينما رفع الشيخ محمود ذراعه اليمنى فوق

رأسه بالكفّ المفرود أمام وجه الحجر. كان الشيخ محمود جالساً على يسار رئيس المجازات الشيخ خضر، والحجر واقف خلفه ويتناول جناحيه بالتمسيد. ساد صمت لا يجرحه إلا خرير الماء في الحوض، وحفيف خطوات المتنقلين في الخدمة. نهض المجاز الرئيس من مجلسه في وسط القوس بينما جناحاه ما زالا بين كفَّي مأذون، كان -خلال وقفته- يتلفّت برأسه إلى اليمين وإلى اليسار في بطء؛ والجالسون يردّون عليه بإيماءات خفيفة من رؤوسهم. قطع خطوات نحو اليمين باتجاه الشيخ رجب، وقف قباله، وصفق بيديه عدة مرات فوق رأس الجالس. عاد وتربّع ثانية على الأرض وعيناه ثابتتان على رجب في بداية القوس، ومعه التفت الجالسون إلى موضع بصره. كانوا يمسحون بباطن الأيدي على أعينهم اليمنى فتنطمس وينسحب منها النور. اشرأبّ الرئيس بعنقه، علا صوته بسلسلة من آهات تشقّ الصمت، ثم راح يصدح بعدها[1]:

ولمَّا تراضَعْنا بِمَهْدِ وَلائِها ... سَقَتْنا حُمَيَّا الحُبِّ فيهِ مراضعُ
وألقى علينا القربُ منها مَحَبَّةً ... فهلْ أنتَ يا عهد التَّراضعِ راجعُ
وإنِّي مُذْ شاهَدْتُ فيّ جَمالها ... بِلَوْعَةِ أشْواقِ المَحَبَّةِ وَالِعُ
وكلُّ مَقامٍ في هواها سلَكتُهُ ... وما قطَعَتني فيه عنها القَواطِعُ
أُراني بوادي الحب أرعى جمالها ... ألا في سبيل الحبّ ما أنا صانعُ
صبرتُ على أهواله صبرَ شاكرٍ ... وما أنا في شيء سوى البعد جازعُ

وارتفعت معه الربابة والطبلة عن الأرض، محلّقة مع تصفيق المجازات وبعض المأذونين من حوله. كان الرئيس يلتفت إلى يمينه ويطيل النظر في رجب بين الغناء، ويردّد مرّة تلو مرّة: «وما أنا في شيء سوى البعد جازعُ»،

(1) الأبيات لعمر بن الفارض.

يتنقّل فيها بين اللوعة والحسرة والوداع. والمجاز الأول مضطرب، يطأطئ رأسه ويتجنّب عين الرئيس الثابتة.

وتسمّر المأذونون بالمفاجأة واحداً تلو الآخر، انقطعت حركاتهم بالتدريج الحاصل من الشكّ النامي، وهم يتنقّلون بالعيون المستغربة بين الرئيس ورجب، لا يصدّقون معاينتهم للحظة حلول، وهي لحظة لا قبل ولا بعد، إذ ينفتح بحر العطاء ويحلّ مأذون محل المجاز. كانت قد ولجت مسامعهم كمثال لطول مسافة رياضة النفوس، وبحرصٍ ينتفي معه التّحرُّق لها، التحرّق الذي يعطِّل ويرمي بصاحبه في بحر حسد فيصبح أول الغارقين. كانوا كثيراً ما حكوا عنها واستخدموها لقتل أيّ بادرة للزهو حينما تتسرّب إلى أرواحهم مقارنات مع المحيط الأقل همّة، وهي لحظة يكفيهم شرف حضورها؛ إذ لا يشهدها إلا جيل من بين عدّة.

كانت الرؤوس تسترجع بصعوبة -تحت ثقل المفاجأة- مشاهدَ مرويّةً وتطابقها على الحدث. ولمّا زال لجام الدهشة؛ بدا في العيون توتّر مخلوط بالتساؤل عن الحالّ، والعيون تهمل المجازات -بلا قصد- وتتنقل بين المأذونين لاستنباط علامة. أدرك المأذونون أن المحْلول هو الشيخ رجب. وضرب القلوبَ شكَّةُ رجاءٍ مُنزّهة عن طمع؛ فأحاطتها العقول بجدران غليظة من القنوط وبُعد الاحتمالات.

كان الحجر قد عاد ليتطوّح مع الغناء؛ وكأنه الوحيد الخارج عن الإدراك، شعر بصفاء عاتٍ لصوت الرئيس، أقوى من كلّ مرة، يدغدغ أعضاءه حتى تتفتّت، فيتناولها الهواء لتطير كذرّات مبتعدة، تاركة روحه -فقط- منتصبة في ألفة الذِّكر.

نهض رجب متثاقلاً بالهمّ والمماطلة، عيناه مخطوفتان وتتقلّبان في السماء بعدم تصديق. كان يخطو نحو الواقفين خلف الظهور، بينما

يتزحزح بقية المجازات الجالسين إلى اليمين تباعاً، مخلّفين موضعاً فارغاً على اليسار؛ فهدر الحشدُ بتهليل يرجُّ العالمَ من حول الحجر، يختلط فيه الصراخ بالدموع بالآهات، ورجب يتناول ذراع الحجر الذي أفاق وهو لا يعرف. خطا به رجب إلى حافة الحوض بمشية ثقيلة ورأسٍ مطأطئ، فرد ذراعه مشيراً إلى الجهة المقابلة من الحوض، بينما كفّه الأخرى تتشبّث بكتف سيّد. كان المأذونون يردّدون: «الله حي»، بانتظام، وبحرقة بلوغ يقين، والحجر مبهوت، ينظر إلى الذراع الممتدة بالإشارة وإلى رجب، يتلفّت في الوجوه المحيطة، يبحث عن علامة للفهم، يستوعب ببطء؛ يبكي ويهتزّ.

وظلّت الأصابع تكلبش في كتف الحجر بقوّة، تهرسها، وجفون رجب تنطبق. والحجر ثابت كاسمه، تنتقل عيناه بارتباك وحيرة بين المجلس وكفّ رجب وأصابعه الضاغطة على منكبه بقوة كأسياخ حديدٍ حامٍ. خفّ الغناء حتى انقطع من جديد، والعيون تحدّق في الاثنين بدهشة حتى وقف الشيخ محمود الضوي؛ الذي أصبح مجازاً رئيساً بانتقاله إلى منتصف القوس، والساطع الأكبر في حركة شمس مجازات؛ يطلع فيها فجر الحجر، ويغيب شعاع رجب. خطا الرئيس ووضع يده فوق كتف رجب الذي التفت مذعوراً ودمعت عيناه في غُلب، همس: «وما أنا في شيء سوى البعد جازع يا شيخ محمود». تمتم الرئيس في حين يربّت: «وما أنت ببعيد يا رجب. أنت أسبقنا في الوصول». أخلى رجب الكتفَ، استدار مبتعداً برأس منكّس وظهر منكسر.

وقف الشيخ محمود يتفحّص في وجه الحجر. قال: «هل فهمت يا سيد؟». أومأ سيد في بطء وبتردّد، وأشار الشيخ إلى الطرف الآخر من الحوض كأنه لم يلحظ الإيماءة. «مع طلوع الصبح تحلُّ وتكون مَجازاً.

لكن عليك أن تعبر الحوض إلى الطرف الآخر. وهناك وفي منتصف الجبل الأسود سوف تلقى مدخلاً تمرّ من خلاله إلى درب الغبار. واحذر هناك ما يعطّل؛ لأنه يجب عليك أن تصل إلى نهاية الجبل قبل دخول الصبح، وهناك ستجد القطيفة، وبعد ذلك تلتقي بالشيخ رجب ويناولك الجناحين». ابتسم الرجل، أكمل وفي صوته حنان: «ولا ترتعب حينما تنطفئ عينك اليمنى بعد أخذ الأجنحة. سنعيدها لك مبصرة في الجمعة القادمة بمشيئة الله. وصحيح أن تحذر ما يُعطّل، لكن أيضاً لا تكن إلا روحك ولا تخشَ من روحك شيئاً». وضع الشيخ يده اليمنى على جبهة سيد، غمغم بآيات وأدعية. قال بلهجة ناصح: «وإذ أخذت الأجنحة فبها اهبط ولا تعلو؛ لأن كل رأس أقرع، وكل لحية مجزوزة، وفي الأيادي خموش، لكنما على الأحقاء مُسوح». واستدار الحجر مخلّفاً المجاز الساطع، وسمع كلمات الشيخ محمود لآخر مرة وهي تتمنى له السلامة بينما يمضي مُشوّشاً نحو الحوض.

كان الحجر يصل إلى شفة الحوض، يتذكر شيئاً فيرتبك، ويتلفّت برأسه إلى قوس المجازات، قبل أن يترك الخفّ، ويخلع الطاقية والجلباب على مهل، ينزل في الماء بحركات بطيئة وجامدة لعاجز، وساقه الوسطى تتأرجح من أسفل اللباس مع اهتزازات الجسم؛ فيحاول أن يقبض عليه ويحصره بين الفخذين. وبينما يهبط، حانت منه التفاتة جديدة إلى المجلس، ورأى صاحبه الأخرس واجماً كأن عينيه بلا حياة، وتوهّم الحجر استراق المجلس النظرات إلى ما بين ساقيه؛ فانتابه إحساس قديم بالخزي، لكنه ما لبث أن استدار، وضرب ذراعيه سابحاً خلال الماء نحو الضفة الأخرى.

عامَ الحجر لفترة قبل أن يرتطم ذراعُه بالحافة الأخرى للحوض؛

فاستند بكفَّيه على الحافة وخرج من الماء بقفزة سريعة. كان الظلام كثيفاً من حوله؛ وهو يسير في تمهّل وعيناه تتأقلمان رويداً؛ حتى تبيَّن مدخل الدرب ومنه يتطاير غبار غزير يمنع رؤية ما بعده.

مشى تجاهه بخطوات حذرة مستكشفة، كانت أذنه خلالها تَحدُّ فيسمع ارتطام قطرات الماء الساقطة عن جسمه في الأرض، مختلطة بصوت قدميه وهما تطأان حصىً وأحجاراً مدبّبة، إلى أن أضاءت مئات من الشموع في وجهه فجأة وأغشت بصره. فتح جفنيه بصعوبة على لمسات متعدّدة فوق ظهره وكتفيه، وأحسّ بأيادٍ تعبث فيما بين ساقيه، تنسلت إلى السروال وتدلّك بنعومة. ورأى نساءً عاريات بأجساد مكتملة وبجلد كشمع أبيض، يحلّقن حوله ويمسسن وينادين بعذوبة. كانت عين الحجر ثابتة على المدخل، يدندن في جهير: «وما أنا في شيء سوى البعد جازع». وكأنما يجهّز حنجرته لطلاوة قادمة، ويضع المكافأة القريبة نصب عينيه كحافز على السرعة والأداء.

كان يزيح الأيدي ما استطاع عن جسده، بينما أمامه وعلى عتبة المدخل، كان يرى امرأة عارية تفرد ذراعيها، ممسكة بجانبي المدخل وتسدّه عليه. أشاح عنها بصره لكنه استكمل المسير. كانت الأيدي حوله تنشغل عن ذكرِه، متخلّية عن الليونة ومتناولة ذقنه، رافعة إياه بعنف وقوة إلى أعلى؛ لتلتقي عيناه بالمرأة الواقفة على المدخل من جديد. ورأى الحجر قسمات وجهها تتغيّر بسرعة؛ عيونها تضيق والشفاه تغلظ، أنفها يفطس وتبرز الوجنتان، بينما جسدها ينتفخ ويمتلئ بشحوم، والجلد يتلوّن بسُمرةٍ محبّبة لروحه؛ كان يرى أمّه زينب تتشكّل في المرأة. وتسمّرت عيناه بالدهشة ولم يعد يشعر بالأصابع حول ذقنه. انحنت المرأة واستندت على الأرض بكفّيها، رافعة ساقيها إلى الأعلى وهي تثني الركبتين في مواجهته.

كان الحجر ينظر إلى ركبتي زينب التي طالما وقع بوجهه فوقهما. وظلت المرأة واقفة على الأرض بيديها وتلعب بالركبتين قباله؛ فتنفردان وتنثنيان بعلاقات متباينة تبرز أشكالاً عديدة للرضفة أمام الحجر المأخوذ. اعتدلت المرأة على قدميها وهي تنظر إليه وتفتح ذراعيها بنداء وقسمات أمومية رفرف معها قلب سيد. كان يلحّ على الحجر خاطر غريب، وطرأ له في تلك اللحظة أن زينب كانت تعطي الأمومة بجرعات محسوبة وفي أوقات رسمية، وتشدّدت في ذلك أكثر لمّا مات عزام. بل إنها أوقفت تلك الجرعات تماماً لمّا ظهرت على الولد دلائل الرجولة، وكأن المخزون قد نفد في تلك الساعة، وفتحت له ذراعيها طالبة بالأخذ كردٍّ للجميل. كان سيّد يتخيّلها في كفّة ميزان مقابلة له، وازنة وترفع الكفّة التي يقف فوقها سيد، حامية من وبش القاع. لكنما ومع مرور الأيام، كان يجد روحه رافعة لكفّتها بالتدريج، ولم يعرف ما إذا كان ذلك لخِفَّة أصابتها بخيانة الزمن، أو لأنه قد أصبح ثقيلاً وقادراً على الحمل.

أنزلت المرأةُ الذراعين، ورأى الحجر بؤبؤ العين يتحوّل للونٍ عسلي، ويُخَطُّ ما يشبه الوشم لسيف بلون أزرق فوق جبهة بيضاء واسعة، والأنف ينحف ويطول بأرنبة مُستدقّة، والجلد يتغيّر إلى بياضٍ نقيّ حول جسمٍ تنسحب منه أخطاء شحومه ليصير فتنةً موزونة. وأمامه تشكّلت درّية جبل؛ أحنّ القلوب عليه، ويمكن أن قلبها في الحنان كان يسبق قلب زينب. وانقلبت المرأة واقفة على يديها، برزت ركبتاها ككرتي لهب؛ والحجر يتذكر منامه في حجرها بعد أن تطعم وتهدهد، عندما كان عزّام يجرّه معه إلى العمل في الغزالة في موسم القطن، ودرّية تنتزع الولد المتعَب من الغيط ومن يد عزام، تقسم وتسحبه إلى دارها، ويقعد عندها بالأسابيع كأنه في بيته وأكثر. كانت زينب تروح وتجيء على عشش جبل لأخذ الولد،

وفي كل مرّة تخبِّئه درّية عن زينب، وتسألها أن تتركه ليومين زيادة، وزينب تطلب من عزام إحضار الولد، وعزام متقاعس، وكأنه مبسوط بالتخلص من فم مفتوح، ومن رؤية منافس موجع يضرب عيبه بسكين. كان عزام يروح به إلى الغزالة من وراء زينب، يمرّ على بيت درية ويسلّم، مانحاً إياها فرصة لطلب استضافة الولد. نام الولد في حجرها أكثر مما نام في حجر زينب، حتى أتى يوم موت عزام، لمّا أخذ سيد حمولتَه من رجولة البيت كاملة، وصار غيابه في حجر درّية عيباً.

كان أنفه يستعيد رائحة طيّبة ومُطمئنة لركبتيها، عندما كانت تنهر عزّام بصوت قويّ وقادر على ضرباته للولد في الغيط؛ وعزام يسقط منه تمحُّكُه المعتاد عندما يقابل ملامةَ أحد، ويطيّب خاطرها بما يسعفه اللسان من كلمات، يقف كأنه مبتلٌّ ويرسم الانكسار وقلّة الحيلة على وجهه، ويتذلل أمام جمال لا يسمح له بالردّ، وكأنه لا يحتمل عواقب غضب درّية وخصامها.

كانت المرأة الواقفة على المدخل قد رجعت لتقف على القدمين من جديد، ولمّا تشكلت في هيئة أخرى وانقلبت واقفة على يديها؛ أحسّ الحجر بالذعر لتصلّب كائنه بين ساقيه، وببطنه التي تنسحب منها روحه. كان يحسّ بموجات الخطر تركب، ورأسه ينتفض محاولاً أن يطفو فوقها. وبقوة مُجاهِد قريب الوصول؛ غضّ البصر عن امرأة حوراء بأنفٍ دقيق وشفتين ورديتين، فوق وجه مستدير وصغير، منثور حوله شعر أسود غزير يسرح ليتكوّم على الأرض أسفل رأس المرأة المتدلّي من عنق شفاف وطويل تحت جسدٍ نحيف يحمل أقل تضاريس الأنوثة مع فخذين ضامرين. كان الحجر يفلت من الأيدي ويهرول نحو المدخل، يزيح عنه فاطمة القط؛ فتسقط على الأرض، وقدماه تطأان العتبة إلى درب الغبار.

وفي الدرب، كان الغبار أقلّ حول الحجر، وهو يعبر فوق أرض صخرية صلبة وناتئة، وفوقه سماء مظلمة كأنها بغير وجود، وعلى الجانبين أشجار كثيفة وعملاقة لا يتبيّن أعلاها ولا ما خلفها.

وتوالت عليه مشاهد وشخوص كمصائد جاذبة بطعومٍ مختلفة، تنفتح أمامه سكك وممرّات متشعّبة في قلب الجبل؛ من تلال مخنوقة بالذهب، وصبايا آسرة، سيوف قاصمة ودوّارة بلا تفرقة في لحم وصخور ومعدن، وممالك بلا حدود وبعروش الأبّهة وألسن متدلّية من وثارها، مُرغِّبة ومنادية عليه. كان تصميم الحجر غالباً بالتجاهل قبال المعطيات، لكن مشهدي البدء والختام كانا الأصعب، واستهلكا منه وقتاً على خلاف نصيحة شيخه.

كان أول ما لاقاه في الدرب هو أباه، يمسك بكرباج ويكشِّر، يسدّ عليه الدرب ويسبّه. والحجر يتملّص منه، وعزام يتتبّعه ويسوطه على ظهره عدّة مرات؛ يتألّم الحجر ويحبس مكملاً مسيره، لكن عزام هرول واستبقه، وقف قباله، ودسَّ في يديه الكرباج بخشونة. رأى الحجر جسدَ أبيه يكشّ ويتحوّل إلى طفلٍ صغير، يستدير معطياً إيّاه ظهره ويصرخ: «خذ حقك». وظلَّ الحجر في حيرة، قبل أن يرمي الكرباج ويبتعد بقفزات واسعة. أمّا قرب نهاية الدرب وبينما يعاين ضوءاً ضئيلاً ومطلّاً من مدخل مرئيّ، كان الحجر يرى شيخاً تتضوّع من وجهه سماحة ومن لفتاته رقّة، يسير على صراط وفي أسفله ألسنةٌ من نار ملتهبة، وفي آخر الصراط حدائق وشلّالات وطيور. كان الشيخ يتأرجح وقلب الحجر يرفّ، وبمزيج من محبّة للقسمات الطيبة ومن تراخٍ ناتج من معاينة الضوء والإحساس بقرب الوصول؛ تمهّل الحجر، وقف ليطمئنّ على بلوغ الرجل إلى حافة النعيم. وقبل خطوات من الوصول؛ كان الاطمئنان يتسرّب إلى القلبين، قلب السائر وقلب الناظر، لكن الرجل تعثّر فجأة

قبل التمام بخطوة، ورأى الحجر النار وهي تأكل الرجل مع صرخة عالية ومهولة تمزّق روحه. وجفّ ريق الحجر وهو يَذْكُر ويتمتم بأدعية، وأحسّ بالألم يضرب قدميه. أخذ روحه من الوجع على الساقط واتسعت خطواته باتجاه النور الظاهر. كان الضوء يخفت فجأة، ويتشتّت إلى أضواء عديدة منبعثة من تيهٍ متشابك، والحجر ملازم لاستقامة الطريق. يكبر الضوء ويزداد في عينيه؛ فينسى ما كان من عمره، ويحسّ بالنشاط لحلاوة البلوغ وبفرحة مستشرف. يرى نفسه مُحلّقاً فوق سواد الجبل بعد ساعات، في دوران نشوان، بأجنحة مجاز تلمع تحت أضواء الصباح الأولى، وتصكُّ في سَمْعِه بلقاء أحلام طنّانة.

ولمّا اتضح المخرج تماماً، كانت تبزغ في الدرب أشواكٌ مسنونة، تنقر في باطن قدميه، ورأى نيراناً تقترب من وجهه وتكاد أن تمسّه ثم تنزوي مبتعدة، وبقيت بين قرب وابتعاد بينما تنحني عليه الأشجار من جانبي الدرب وتهوي مسرعة ناحية رأسه قبل أن تنتصب واقفة وساكنة من جديد. كان يركض ويلهث، يغنّي ليبعد العقلَ عن أوهام العينين، لكنه، حين يرى اقتراب الخطر من روحه، كان الغناء يصبح مهتزّاً ومبتوراً من رعب.

«وما أنا في شيء سوى البعد...»

وخطت قدماه فوق العتبة. دخل إلى غرفة واسعة بأرضية من ألواح خشبية وفي منتصفها طاولة خشب مطليّة بلونٍ أخضر قديم، وفوقها قنديلٌ مضيء من زجاج زيتيّ اللون. وفي الجدار المقابل باب خشبٍ كبير مُدعّم في حوافه بحدائد ومُغلق بترباس ضخم. كان الحجر يسحب نفَساً طويلاً ويرتخي، وأرضية الغرفة تطقطق بخفّة مريحة لروحه إثر همهمات قدميه. وقبل أن يقلّب عينيه في الطاولة وفي أرجاء الغرفة بحثاً عن القطيفة؛ أتاه الصوت: «ليست حيث تفكر».

التفت إلى يمينه حيث يقف الشيخ رجب، تلعثم: «المفروض ألا تدخل إلى الغرفة يا شيخ رجب!».

حدجه رجب وحولهما صمت. كان الحجر يحسّ بانقباض أمام وجه رجب الذي لا يشبه رجب الذي يعرفه أو رجب الذي تركه منذ ساعات في الواحة.

ابتسم رجب بخبث: «ومن فرض؟».

«المفروض أن أجد القطيفة وأخرج من الباب لأتناول منك الجناحين».

بدا على رجب التفكير. قال: «تأخذها إن جاوبت على الأسئلة». انقلبت عيناه إلى أسى «هل تعرف لماذا يسمّون القبر جبّانة يا حجر؟».

ظلَّ سيد ساكتاً، وأكمل رجب كأنه لا ينتظر إجابة: «هل هي من الجُبْن الذي نأكله؟ واردٌ. لأن الجُبن يُلَفُّ في شاش شبيه بالكفن ويُكْبَس فوقه بقالب مثل الرّدم فوق الميت، والواحد فينا يتصفّى من سوائله في القبر، يَتخَمَّر وينْشُفُ مثل تخثر الجُبن عند استخدام المنفحة! لكن أنا أقول لا، ليست تلك هي الإجابة يا سيد. طيّب، هل هي من الجُبن الذي هو عكس الشجاعة، لأن الناس تخاف الموت؟ لا أيضاً. هل وصلتْ دماغك إلى حلّ؟ عموماً لا تفكر، فهي بعيدة عن عقلك».

أشار الشيخ بكفّه نحو سيد في دعوة للاقتراب. ارتفع صوته مع ابتسامة زهو: «لكن تعال وخُذْ العلم من يد شيخك يا ولد. جبّانة يا سيّد تحتوي على ثلاثة حروف: جيم، باء، ونون. لو قطّعتها وأعدت ترتيبها ستفهم. فهي «جُبّ» يعني حفرة، و«جِن» يعني الستر والخفاء، و«بِن» يعني انقطِع. فجبّانة هي الحفرة التي تُخفي عندما يُنقطع عن الخلق. وماذا يمكن أن تخفي؟ جسداً فقط، لا يا سيد لا تصدّق، فهي صيغة مبالغة، أي تعطي كامل الإخفاء».

كان الأسى يزيد في عيون رجب وهو يكمل: «وماذا يحتاج الواحد غير الإخفاء التام في مثل هذا السن».

كان الأسى يغادر بسرعة، ويحلُّ جنون في عين رجب: «والغريب يا أخي أنهم يضعون حجراً فوق الجبانة للإشارة على المتوفي، حتى وإن كانت أداة قتله من حجر. صدفة غريبة!».

أكمل في نشاط: «سؤال آخر. هل فكرت قبلاً لماذا نقول فاضت روحه؟ ها. الروح تفيض عن الجسم، تكبر عليه فتطلع منه يا سيد. تفيض بالحزن، بالوجع، بالأيام، بالزمن، ويمكن باستلاب النعم، المهم أنها تفيض وليس لها متسع في الجسم الضيق. تأكل من الحزن، تتغذى عليه وتكبر، هواها عليه. طبعاً يحصل في أحيان أن تدخل السعادة في غشومة على القلب الحزين مثل ضربة لهب على قطعة ثلج. وخذ في بالك، هذا أيضاً فيه ألم. أينما كانت عذوبة؛ فالمُزاحِم عذاب، وفي تناسب. والمضحك أكثر يا أخي هو كلمة «قيد الحياة»، كأن الحياة رباط على رقبة بهيمة، يكتّف الروح في الجسم ويسوق. آه يا سيد، الحياة قيد، والموت إفاضة!».

كان الحجر بعيداً عن الانتباه إلى كلمات رجب، يضربه القلق، ويسأل من جديد عن القطيفة.

بدا التفكير في عين رجب. أجاب: «هذا إذا عبرت».

«لكني عبرت يا عم الشيخ!».

«عبرتَ ولم تعبر».

توتّرت مفاصل الحجر، كان في حيرة «لا أفهم!».

ضحك رجب طويلاً. خبط براحة يده فوق يافوخه عدة مرات بينما يتأرجح رأسه وجسمه يتمايل. صاح من بين الضحك: «أولم يلتفت عمودك إلى فاطمة!».

كانت الأرض تدور بالحجر ويحسّ بوهنٍ في ساقيه. يريد أن يتربّع على الأرض مثلما فعل في أول نهار له في واحة القطيفة.

«أنت تحب بنت القط. تذوب في مطارح خطوتها وهي تعبر المناجاة. ليس الصبر فقط على المكاره، الصبر على ما تحب هو العبور يا سيد ولكنك لم تستطع».

دمعتْ عينا الحجر؛ كان يتوه في خذلان، ثم بدا أنه وجد ضالّته «المجاز الساطع قال كن نفسك ولا تخش شيئاً!».

استعطف وهو يكمل: «تلك هي نفسي يا عم رجب». كانت الدموع تغلب.

أخرج رجب قطعة القطيفة من جيبه، لوّح بها في وجه الحجر ثم أعادها إلى موضعها.

«وهل كنت نفسك وأنت تحصر ما بين ساقيك وتخشى من عيون إخوانك! وهل كنت نفسك وأنت عيّل تحاول جزّ مقدمة ذكرك للتخلّص من عذاب عزام! وزينب تُخبّئ عنك سكاكين البيت حتى بعد موت عزام، لمّا كنت تجرّب كل نصل على ذراعيك وجسمك وأنت تتوهم التأكد من حدّة صنعتك، أو تضحك على روحك بمقولات عن رجولة صاحب الندبات وحديث «ما في جسدي موضع شبر»، بينما مكمن عطشك في رؤية دمك واستكمال أوقات الألم. وهل كنت نفسك حتى وأنت تتمسّح في الأخرس، وتعمل صاحباً لتروح أمام بيته كل يوم، وعينك على بيت القط، وبالك في فاطمة!».

أكمل رجب وهو يشير إلى مخرج الدرب: «هل شاهدت الذي سقط قبل خطوة من نهاية الصراط؟ كنا نريك روحك يا حجر».

كان الحجر يتكلم من بين دموع: «ولكني تجاوزت أشياء صعبة هناك.

ولكني خدمت بالعيون. والله لم أحلم بالحلول يا شيخ رجب ولم يرد لي على خاطر».

ابتسم رجب، ضيّق عينيه وتفرّس في وجه الحجر. همس: «أنا أعرف روحك أكثر مما تعرف أنت. هل تصدّق؟ لكن صدِّق واسمع واعرف عن نفسك مني. أنت تخدع روحك، تلعب عليها. دوماً تريد ومن عينيك يُطلُّ الأمل. وصحيح أنه أمل وُلد ليموت عند أول طلوع، لكنه ظاهر، حزين ومرئي رغم الكتمان. أنت صياد خائب، فريسة لفرائسك، لك الرؤية، وليس مقدوراً لك ملامسة. في دمك تجري صفات شوق إلى الوصول، بالرغم من أن نفس الدم، لا يحمل صفات تُقدِّره على الوصول. يظل عليك السعي، وليس لك التذوق».

مطّ شفتيه «وعموماً، فإن ما أفعله الآن هو لذّتك الأصيلة التي تواريها عن عينيك، يمكن عن كسوف ويمكن فعلاً عن جهل. يا حجر! أنا أمنع عنك انقطاع حبل الألم الذي تدمن عليه».

بدا عدم فهم على سيّد، تجمّدت حركاته، أطرق رأسه بينما تجتاحه رجفة دؤوبة. كان في أذنيه صفير حادّ وهو يكوّر قبضته أمام فمه ويتنفس بكهكهة مسموعة، في حين مشت على وجه رجب ابتسامة أسيانة «تحب نلعب أكثر، والخسران يوحوح ويدبدب في الأرض؟ فمثلاً، هل كنت تحب بنت القط لو كانت بنت كلب؟ أم هو طبعك في طلب الصعب سهل الخسارة، ثم التمتّع برصّ الخيبات في الهواء الحالك قبل النوم مع قليل من الدمع والغليان بالحظ. طيب خذ الثانية، هل تلصّصك على حكايات الأيام السبعة بدافع انبهار وتغذية حسن الظن بالرحمن على مراعاة الوجع، أم هي اللذة بقياس عذاباتك على متاعب الخلق ومشاهدة نفسك على جبل وجع أكبر وبغير مجازات تهتم وأنت صابر وتقول لنفسك أنا جمل

الحمول. وحتى أنك لا تأخذ بالك من نفسك وأنت تبتعد عن المجلس كلما بدأت حكاية تشتم فيها رائحة عذاب لا يمكن أن تخفف من مقداره في عقلك لتضعه في المقارنة. دعك من هذا كله. أنا عارف أنه لم يكن في بالك حلول، لكن لماذا ترغب الآن في جناح مجاز وتتشبث؟ هل تودّ العمل فعلاً كأداة تخفيف! أو حتى تتوق للطيران فوق المناجاة وناسها، أم هي حاجة لا تعرفها عن نفسك في مصّ الوجع كل ساعة ومعاشرته، انكباب بالكلّية فيه، إفناء العمر في جانب يلهّيك عن الدنيا وتركن إليه، وعينك ثابتة على آخر الدورة مع كلّ خفقة جناح، وتعرف أن اللحظة آتية، وتطيّب خاطرك بزيف ما تمنحه للناس وبحجة المقدور، فالحزن عادة، وتنتظر وقت القلْع وأنت بلا واحد وتقول النصيب».

كان رجب يتفحّص ثانية في الوجه، يضغط على الحروف ويستكمل: «هل نقضي الليلة في اللعب؟ صدّقني، أنا أعرفك وأعمل معك المعروف. كما أني ابن التجربة، وأقول إن كونك مجازاً يعني أن تعيش كحشو، عبء على الجملة، سهل أن يحلَّ أيّ لفظ محلّك ولو كان وارداً بالصدفة على الرأس، ومن دونك حتى يصل المعنى وأنت زينة زيادة. الحياة واسعة وتسير بسرعة برق، والمجازية خدامة للفتات المتخلف».

كان سيد خارج الإدراك، بعيداً عن كلمات رجب، يسقط في براثن تيّارٍ عنيف يتلاعب، يُخبّطه بالشطوط ويعيده ثانية إلى المنتصف، تَغيبُ عنه أعضاؤه ويتذلّل لنجدة: «أرجوك يا عم رجب، هذا خذلان لا طاقة لي به، أقترب من الجنة وأشمّ ريحها ثم أروح، أبوس يدك يا عم رجب».

قال رجب كأنما يطيّب خاطر: «نصيبك يا سيد أن تتناول الجناحين من رجب، ورجب يفضّل أن يموت بهما على أن يسلّمهما يا بني».

سرح رجب ببصره «أنا أعرف أن شخصاً ما سيأخذ جناحيّ، لا حيلة

للمنع. الغريب يا سيّد أني أحس براحة حينما يأخذهما الغريب وليس واحد أعرفه. فلو تركتهم كلقيّة في الطريق وتناولهما عابر، فلن أحسّ بنفس الحريق. تقريباً يقع الحسد على من نعرف».

ضيّق عينيه وعلى ملامحه مرارة تَذكُّر، أكمل: «سبعون عاماً أعيش كقشرة برتقالة يا سيد، تحمي ما وراءها وتنتظر التقشير في أي لحظة لتروح في وسط القمامة. قالها لي عمّك نجيب الذي حلَّ مكانه حبيبك الشيخ كريم. كنا نُجلُّه ونسمّيه مُجير الطير لتعلّقه بإزاحة آلامها. وكنت ملتصقاً به وأحبّه لعشرة طويلة، وليس فقط لأن وجوده يقيني من الوقوف على شفا الحفرة أو لأنه كان العروة التي أدخلتني إلى عالم المأذونين في يوم ما. كان بينه وبيني ودادٌ صافٍ، وليس خارجيّ الوداد الذي تفرضه ظروف قعدة أو اجتماع مع ناس في مسألة. ولمّا أتباسط معه في هزار عديم الحياء وأقول له يا مُجير الطير حمامتي بلا عشّ، كان يبتسم في لوم، يخبط على كتفي ويقول يا ولد! أنا قشرة البرتقال التي تمنع عنك الأكل. قشّروه في لحظة وجعلوني قشرة برتقال مكانه. سبعين سنة بلا متعة يا نجيب! وبعذاب انتظار اللحظة المُرّة في أيّ لحظة، كمريض يتظاهر بالصحة في وسط كاملي العافية. عُمر!».

هزَّ رجب رأسه وأفاق من شروده. همس: «هل تعرف أن كلمة «أنسل» تعني انفصل عن غيره، وتعني أنجب ولداً، وتعني سقوط الريش من الطائر. غريبة هي اللغة؛ وكأن الولد منفصل عن مصدره، وكأن الوالد قد سقط ريشه وتنسّل بعد الإنجاب، ولم يعد له قدرة على الطيران مثلما كان بلا عيال ومسؤولية. شفت، كلمة واحدة بعالم، وبلا حدّ. لكن أنا لم أنجب يا سيد، وليست لي ركيزة، شيّعتُ العمرَ معهم، ومع ذلك يَسقطُ ريشي!».

عاد إلى صوته المرحُ، قال: «آخر سؤال يا حجر، وإن جاوبتَ خذ القطيفة».

كان الحجر ينتبه، يحاول أن يستطلع صدق رجب.

أكمل رجب وهو يهزّ رأسه بإيماءات خفيفة لمُعلِّمٍ سابقٍ في المعرفة: «لمَ يسمون خولي الأنفار هكذا؟».

كان يحدّق في سيد بخبث ويكمل: «خولي من خول، رجل معيوب، لأننا مثلاً نقول عزام صار خولاً للقط، أي صار تحته. قلة أدب يا أخي!».

كان رجب يكمل بشراسة: «سأحكي لك حكاية يا سيد عن رجل لم يعرف كيف يستوفي واجبات الرجولة وحقّ أهل بيته، وقعد يجرب كل دواء. وفي يوم جاؤوا به إلى أهله يبكون وذكورته تنزف. قعد على مصطبة أمام باب البيت المفتوح، والرائح والغادي يتفرج. أنت تعرف الحكاية، صح؟ لكن ما لا تعرفه يا حجر أن عمك الشيخ رجب كان واقفاً على الباب ينظر، وكنت سأمدّ يدي وأدخل وأكبس على الجرح ليروح. ولكني قعدت أنظر، وأنظر، أعجبتني الحالة. وبصراحة مسألة أن مجازاً يلعب في قضيب رجل كانت ستصبح نادرة، ويصبح عمّك الشيخ رجب أضحوكة في الواحة. المهم، كان جاركم أحمد عبد النبي في نفس الوقت عنده إسهال، ورحت عالجته ليقوم ويلحق بالفضيحة. حالة بسيطة، وكان الرجل سيتناول مطحون أوراق جمّيز ويشفى. لكني أسرعت إليه. وليس هو وحده. كنت أعالج كل جيرانكم يومها يا سيد ليخرجوا إلى الفضيحة».

كان الحجر يعرف لماذا كان يبدو وجه رجب مألوفاً له بعد تلك السنوات، يستيقظ المشهد في عقله؛ فيحضر وجه رجب في وسط المتطلعين على فضيحة عزام، ويحتل مركز رؤيته كوردة بازغة في منتصف حشائش خضراء، لاهية عن باقي الوجوه. كان رجب يلتفت إلى الباب

وكأنه يهمّ أن يغادر الغرفة بينما يدندن باستهزاء: «جميلة ركبك يا فاطمة. وحلوة أفخاذك يا بنت القط».

قفز عليه الحجر وأمسك ظهره. كان تعبه ينزاح عنه بغضب يتّقد في العروق. صرخ: «هات القطيفة والجناحين. أنا لست لعبة في الأيدي». كان رجب يلتفت إليه، يضحك ويردد في تنغيم: «لا قطيفة لابن الخولي». أحاط سيد العنق بكفوفه، كانت طاقة احتماله تروح، بينما أصابعه تتصلّب، تضغط فوق الرقبة وتخنق الشيخ. ورجب بلا مقاومة، تلتصق ذراعاه بجذعه وابتسامته حاضرة. برز جناحاه ورفرفا بضربات سريعة، وما لبثا أن هدأا بالتدريج حتى سكنا. كان ينطفئ ولسانه يتدلّى بينما يسقط في بئر نهائي.

كان الحجر يقلّب في جيوب رجب، يدسُّ يدَه ويتناول قطعة القطيفة. يخرج من الباب كالمستيقظ من نوم مفزع؛ متبلّد ولا يعي، وعقله بعيد عنه بالساعات الكثيفة. وأحس بأنه يشاهد العالم من خلف لوح زجاج مليء بشوائب.

*****

الفصل الثالث

وما أنا في شيءٍ سوى البُعد

مشت صابحة في خطّها اليومي باتجاه التفريعة القبلية، طالعةً من بين عشش ومساكن جبل على حافة المصرف، ومكملة في ممرٍّ ترابي ممهّد وضيّق يشقّ مزروعات أهل الغزالة في الجهة الغربية. كانت تمسك بيمينها زلعة فخارية، وبيسراها تسند طشتاً معدنياً فوق رأسها مملوءاً بأطباق وملابس متّسخة، تشمّر أكمام الجلباب إلى أعلى الكوعين؛ فتبدو رقة الحفرة المرفقية بجلد برونزي يشفّ بأوردة خضراء أعلى ساعد مخروط ودقيق، بينما سقط الكمّ الأيسر حتى حافة الإبط؛ مُبدياً العضد باللحم اللدن والمرسوم كقوس من تحت جلد ناعم. وزحزح الطشت طرحة رأسها السوداء إلى الخلف؛ فبرزت شعرات نحاسية حرونة فوق الجبين.

مضت عيناها الخضراوان تدوران بتوتّر وخفّة في الأفق. وظهرت ابتسامة سريعة ومكتومة عندما لاح لها إبراهيم جبل متربّعاً تحت شجرة البرتقال وفي يده قطعة قصب يخطّ بها فوق الأرض.

كان الطريق خاوياً، وانتبهت عيونه السوداء الواسعة لمقدمها ناحيته؛ نهض ملهوفاً بقامة طويلة وصدر عريض ويداه تنفضان عن جلبابه تراباً وأعشاباً جافّة. تلفّت حوله في حقول ذرة تتناثر على حوافها أشجار موالح قليلة، قطع الخطوات تجاهها وهو يبتسم بشفاهٍ ممتلئة من تحت شارب أسود ناعم. همس: «أنا هنا كل يوم مهما غضبتِ. أنا طالب رضاك». التفتت إليه وفي عينيها نظرة لوم يشوبها دلال خفيف، وأحسّت بخوفٍ من أوصال تنفكّ في ساقيها؛ فأشاحت بوجهها عن القسمات الحلوة

لوجهٍ لوّحته الشمس، بحواجب سوداء وكثّة، وفكٍّ عريض بذقن مربّع في منتصفها غمّازة وأنفه المستطيل. كان إبراهيم يحاذي خطوتها المتمهّلة، يقترب بوجهه ويهمس: «لم يمنعني طول الأسبوع إلا الشديد. درّية أختي كانت تعبانة، ودخنا بها في علاجات. بالله عليك تسألي عنها». تسلّل إلى أنفها رائحة رجولية لعرق نفّاذ وهي تردّد في خفوت: «ألف سلامة. واجب زيارتها». كانت يدها تمتدّ بلا إرادة رافعة الزلعة إلى مستوى صدره، تملّس بالأصابع على شعيرات غزيرة ومنفلتة من شقّ الجلباب وهي تهمس: «أفوتك في عافية». هرب وجهها في الغيطان، وأسرعت متخطّية له بينما تعود بيدها إلى خصرها وتشدّ الجلباب إلى أعلى في حركة تبدو وكأنها لتحرير الساق بغرض توسيع الخطوة، لكنها كشفت أمامه عن ربلة ساق حريرية مُعذِّبة. كان إبراهيم يحسّ بسخونة تنزل من عينيه إلى صدره وتعبث في البطن بسكاكين. وقف يتطلّع إلى رجرجة الساقين والمؤخرة، وعلا صوته بحرقة غير مُستوعَبة في وسط الغيطان: «والله عنب وأنا جوعان». ابتسمت دون أن تلتفت مكملة سيرها إلى الشرق.

قبل ذلك، لم يظهر إبراهيم جبل طوال أسبوع تحت شجرة البرتقال، منذ أن مدّ يده وعصر كفّها بين أصابعه وهو يقترح مساعدة في حمل الطشت إلى الموردة؛ نهرته صابحة ووصفته بقلّة الحياء وانعدام الرباية، وهي تترك الزلعة على الأرض وصوتها يعلو، تشيح بيديها في انفعال يحمل رعشات خوف أكثر من غضب. وفي اليوم التالي، شعرت صابحة براحة وبثقل ينزاح من الصدر حين لم تصادفه أثناء عبورها بين الغيطان، لكن الراحة اختلطت بقلق في اليوم الثالث، وأحسّت بنقصانٍ ما في اليوم الرابع، وبجفافٍ منتشر في الجسم، مع برودة مُنادية تصطكّ بين الساقين، وكأن لها ساقاً محطوطة في الغزالة بينما الأخرى باقية في المناجاة. كان

غيابه يحدث ثقباً يتّسع، وأرجأته إلى العادة والأُنس الذي ينثره بظرافة في طريقها. لكنها ضبطت نفسها تستدعي في رأسها جلسته وكلماته أثناء أعمالها اليومية بعيداً عن شجرة البرتقال، وبينما تستعدّ للنوم بلا شريك فوق حشيّة مخرّقة، تناولتها من بيت علي أبو لبدة عند دخولهم إلى الغزالة.

كان زوجها قد سار بما عليه من خيش وسعف في الخلاء، قاطعاً الرمال نحو الغزالة باتجاه الشمال الشرقي عوضاً عن السير مباشرة إلى الشمال في خط مستقيم. أخبرته بالإنهاك الذي يضرب العيال ويضرب عديلة مع الخطوات المنغرسة في الرمل وتحت الشمس؛ فلجأ إلى الراحة والجلوس فوق الرمال عدة مرات خلال أوقات قصيرة، وقابل مطالب اختصار السكة بزجر عنيف لأي كلمة تخرج من العيال وتبدي التعب، زجر يتقطع منه وينهيه بوصلة من دموع ونواح وهو يجلس فوق رمل الخلاء؛ فيخيف بكاؤه العيال أكثر من صوته المرتفع، وتتجدد في نفوسهم صدمة الساعات السابقة موقفة عندها أي كلام.

كان فوزي يريد الوصول إلى حافة البحر الكبير عند أطراف أرض القط الشرقية، ثم يسير بمحاذاته بعيداً عن العيون إلى أن يدخل الغزالة ملتفّاً بالليل، وحتى حدّها البحري حيث بيت علي أبو لبدة؛ دون أن يضطر لعبور الغزالة بهيئة مهانٍ وذليل.

واستقبلهم عليّ بشكل جيد بالرغم من أخبار البدل التي سبقت إلى الغزالة؛ وامتنع أهلها منذ فترة عن دخول المناجاة أو استقبال الناس والبهائم منها. ولعشرة قديمة ومحبّة يحملها علي أبو لبدة لزوجها؛ أخذه بالحضن، وأتى بجلابيب وملابس للعيال من بيته. أعطاهم عشّة تأويهم بين مساكن أولاد جبل في جنوب غرب الغزالة على حافة المصرف. تعهّد الرجل بالحماية وبإطعام الأفواه، وابتسم بتواضع أمام الدعوات المخلصة

له بالستر والرزق من نساء البيت. ربّت على كتف فوزي الذي انهار ببكاء من وجد السند وهو يدفس وجهه في كتف عليّ ويشكو ما حصل بزفرات مظلوم. أعطى عليّ الأكلَ وحاجات تستر البيت، وطمأنه بأن مكانه في العمل محفوظ بعد التعافي. وأمام المودّة الظاهرة؛ تذكّرت صابحة حكايات فوزي عن عليّ أيام خروجه للعمل في الغزالة، واستبشرت بقشّة تسند سقطة المصيبة.

لطالما أحبَّ فوزي عليّاً وأولاد لبدة الذين فتحوا له باباً للرزق في الوقت الذي أغلقته المناجاة. وفي مواسم خدمة النخل؛ كان فوزي يخرج من الدار بفرحة خالصة، ويقفز في الطريق كأنما طفل، يحمل مطلاع النخل وملابسه في صُرّة، ويمضي نحو الغزالة وهو فرحان برزقٍ يأتي من حضن النخلات. كان يعود بعد أسابيع إلى العشّة ويحكي لعديلة وللعيال عن كرم الحاج علي ومعاملة أهله الطيبة؛ إذ تحرص نساء بيته على إعداد العشاء بأيديهن للعمال وإرساله إلى عشش المبيت التي جهّزها لهم عليّ من أسوار بوص دائرية مغطاة بأغصان يابسة. يعدد النخلات الملساء التي ركبها بمهارة أمام عيون رجال خائفة من الطلوع، وثبات قلبه أمام ثعابين تختبئ داخل رؤوس النخل. يقف ويمثل أمامهم سقوط أحد الرجال من فوق نخلة وانخلاع كتفه حينما رأى حيّة بين السعف وانفزع؛ فنادى الحاج علي وقال: «لا يقدر عليها غيرك يا فوزي». كان فوزي يملّس بيديه على خوص العشة ويقول: «ملست على الجذع وقلت يا ساتر. رفعت الكفّين وقرأت الفاتحة. وركبت قبل أن ترتدّ أبصارهم بعون الله. ولمّا رأتني الحية نامت مستكينة؛ كأني والرأس واحد والله». يظل لسانه يتناول الحكاية أمام أهله لعدة أيام، وجسده يتشكّل بالحركات، وهو يغيّر من وصف حالة علي أبو لبدة ويبدّل من الكلام على لسانه؛ فيقول: «ناداني الحاج علي

والدمعة تكاد تفر منه على الرجل الواقع، وقال لي ما العمل يا أبو محمد. فقلتُ: أنا لها يا حاج. وطبطب الحاج على كتفي وقال: أنا أعرف، ومن لها غير أبو محمد؛ فسجدتُ عند الجذع وطلعت كالريح». كان كربُ صابحة ينفكّ لأيام، تسمع منتبهة، وتسأل عن عدد النخلات التي طلعها وعن أكله ونومته، وتهمس لنفسها: «من لحكايات الغريب غير أهله!». تحظى بأنفاس الرجل بين صدرها في الليل، وفوزي يغفل عن نخلته تحت تأثير نخلات الغزالة التي تشبع بها جسده، وفترةِ غيابه عن البيت، وفرحتِه بيده التي تُحصِّل الرزق. يدسّ قطع فضة في كفّ عديلة. ومن انبساطه يأخذ الولد محمد في حجره، يشرح ويعلّمه أصول تقليم السعف الجاف من حول الساق، وينبِّه إلى قطع القاعدة من أسفل إلى أعلى بحيث يكون سطح القطع منحدراً إلى الخارج كي لا تتجمّع مياه الأمطار داخل الكرنافة فيما بعد، وعلى خلاف التكريب الذي نقطع فيه الكرب أفقيّاً بمحاذاة سطح الأرض. يشرح له طريقة التلقيح باختبار الإغريض المذكر الذي اكتمل نموّه ولم ينشقّ، وذلك من خلال الضغط عليه؛ فإذا أصدر صوتاً وجفّ غلافه، يُنزع عنه الغلاف ويقطع طوليّاً ويُترك ليجفّ لمدّة ثلاثة أيام في مكان ظليل وبعيداً عن تيارات الهواء مع التقليب اليومي، قبل أن يتفتّح المَتْكُ وتُنثر حبوب الفحل فوق إناث النخلات. كان يعيد ويزيد في تعليم الولد، بينما غمامة فرح تمسك لسان صابحة المخمورة بلحظات من اعتدال، لكن عديلة تعلّق وهي تصفق بالكفوف وتنظر في حيرة إلى الولد محمد القاعد في حجر فوزي، تقول بمزاح لائم ويداها تتبعثر في الجهات: «يا ابني ارسُ على بر. نوبة تشرح له طريقة العمل على رؤوس النخل، ونوبة تضربه لو اقترب من نخلة. أتعبت الولد وأتعبتنا». وفي مواسم الجني؛ كان يجلب قفص تمر للعيال وهو راجع من الغزالة

مع عرائس ومجسَّمات لحيوانات معمولة من الخوص المحشو بقطن أو بخرقٍ بالية، يطلب منهم الدعاء للحاج عليّ ولأهله، والدعاء ببلوغ موسم الخدمة الجديد.

وعند دخولهم إلى الغزالة بعد صلاة العشاء؛ كان الناس يفرّون من حول فوزي وأهله، وشوّح الخفر لفوزي وأمروه بالانتظار بعيداً عن مدخل البيت عندما سأل عن الحاج علي. واستمرّ التجنّب لعدة أيام كأنهم مجذومون بالرغم من مودّة علي أبو لبدة واستقباله، قبل أن يتجرّأ عيال الغزالة على الاقتراب من عيالها؛ ليسألوهم في شكٍّ وخوف عن حال المناجاة أثناء البدل، وصحّة كلام أهل الغزالة عن المناجاة.

لقد عصف البدل بصابحة قبل أن يزلزل المناجاة. كانت المناجاة قد حَرُمَت على فوزي منذ طرده من العمل في غيط القط، وأصبح قاعداً بلا صوت أمام العشّة، جامداً ومنقطعاً، لا ينام ولا يتحرّك إلا حينما تهزّه ساعات من بكاء مصحوب بتذكّر لروحه وهو يجري من أيدي العمال والعيال في الغيط بعد ملامسات الخولي لجسده والتصاقه به طوال النهار. يغيب في الليل إلى حضن النخلة ويعود لينام، ويصحو إلى القعود أمام العشّة طوال النهار. ولم تفهم صابحة وعديلة إلا بنثار كلام محكي في السوق وأمام السلان، كلام خجلان من نساءٍ يواسينَ نساءً في غُلب. وأخرجت عديلة ما تملكه في تيس وعنزة، أشارت عليه بطلب الرزق في الخلاء بعيداً عن الناس. كانت أولوية البيت هي إخراج الرجل من حالته وإعادته إلى الدنيا. لكن بعد أيام من سروحه، كان فوزي يعود مجرجراً خلفه بضعة أغنام، رابطاً قوائمها الأمامية بحبال وهي تنطّ وراءه على القوائم الخلفية. كانت صابحة تتناول الماشية من فوزي بعد عودته من الصحراء في كلّ ليلة وتسأل في دهشة عن صاحبها، ويردّ كأنه يذكِّر: «رزق ربنا خارج المناجاة

أكثر مما هو داخلها». تذهب هي إلى السوق وتبيع بأقل سعر، تعود هانئة ومرضية. وامتلأت بيوت البلد ببهائم فوزي، لم يخلُ بيت من شاة أو ماعز من ماشية فوزي، ووصل الصيت إلى خارج حدود المناجاة؛ فأتى التجار من قرى غريبة في طلب نصيب من الماشية. وحتى عندما حاول البعض التضييق عليهم واتهام فوزي بسرقة الغنم، محاولين طردها من السوق، لم تصمد تلك المحاولات أمام كلمات المنتفعين التي تنهال مطالبة بترك الغلبانة لتأكل العيش وتستتر هي وعيالها.

وفي يومٍ لا يغيب عن بالها بجميع تفاصيله؛ صحت متكسّرة من النوم إثر حلم ظلّت مشاهده أمامها طوال النهار ولأيام تالية، كانت فيه تتحوّل إلى نخلة عملاقة، تمتد من رأسها حبال طويلة وغليظة، تطير الحبال وتركض خلف الناس في دروب وبيوت البلد، تلتفّ حول رقاب الرجال وتجذبهم بقوة إلى الأعلى حتى تنقصف رؤوسهم وتسقط، ثم تنبت من رقابهم رؤوسٌ جديدة لبهائم، تتأرجح أجسادها في الهواء وهي معلّقة في الحبال، وأقدامها تفرفر للحظات قبل أن تثبت متشنّجة.

كانت تصحو وتجهّز إفطاراً، تقعد وتأكل مع العيال وعديلة، تركت فوزي الرائح في نوم، وأشارت إلى ماجور فخاري بجوار الفرن، قالت للبنت أميرة: «جهّزي للخبيز حتى أرجع. وأنزلي حزمة قشّ من السطح ولقِّمي الفرن بعد سحف الرماد ومسح البلاطة». كانت صابحة في الليلة السابقة قد طحنت القمح بالرحى وغربلت الدقيق بالمنخل الحرير وفصلته عن النخّالة، عجنت الدقيق في الماجور مع ملح وماء، ثم خمّرته، وتركت النخالة في إناء آخر لتفرشها على المقارص. وعند الباب، تناولت الأغنام المربوطة أمام طُباعة العليق، التي ملأها فوزي بعد عودته من الصحراء بالأمس، سحبت الأغنام وهمّت إلى السوق.

كانت يومذاك تقف تحت شمس حامية، والباعة يزنقون عليها في المساحة ويجبرونها على الوقوف في آخر سوق البهائم بلا قطعة خيش فوق الرأس. وهي تمسك بأطراف الحبال المربوطة حول قوائم الغنم، تنادي وحولها يتجمّع الخلق. وبدأت فصول الكرب؛ حينما انقلب سعد الصاوي على يديه وركبتيه، واندسّ بين الغنم يمأمئ ويزاحم برأسه حول سطل الماء، بعد مضيّ دقائق من معاينته لعنزة في يد صابحة، وبعد أن جفّ ريقها في الردّ على مساوماته وتعييبه البضاعة؛ فضجرتْ وأعلنت أنها لن تبيع له. رفسته صابحة في بطنه وهو منكفئ بين الغنم على الأرض بينما تشهق وتصرخ: «عملك أسود يا ابن الصاوي! غُر من هنا». ازدادت مأمأة سعد والناس يتفرّجون ويضحكون في الأول على المنظر، وبعد ذلك يعيبون على الرجل تلاعبه بالستّ ويطالبونه بالكفّ عن التهريج والقيام. لكنما انقلب حال السوق في لحظات حينما توالى انكفاء الرجال على أربع مختلطاً بأصوات مواءٍ وخوارٍ ونهيق ونباح. كانت النساء واقفات في السوق يبسملن ويستعذن، وحولهنّ تتناثر أفعال حيوانات سارحة. وما لبث الرجال أن تداخل بعضهم في بعض؛ ركض النابح خلف المائيْ، وعضّ العاوي أكتافَ الناهق. كان الرجال يفركون ويتخلّصون من الثياب، يتفرّقون عراةً في دروب المناجاة سعياً على الأيدي والأقدام. وهجم الشيخ عمر أبو حلاوة على قفص طيور ونهشها حيّة بأسنانه أمام صرخات امرأة قاعدة وراء القفص، قبل أن يهمَّ نحوه سالم البرج من أول السوق وهو يزمجر؛ فيقفز الشيخ عمر إلى ماء السلان. رأت صابحة أذني الشيخ وهما تستطيلان، تقفان ككوزَيْ ذرة وتتوتران في الجهات مع نباح سالم، والشيخ يركض على كلّ أطرافه بسرعة وخفّة لا تتناسبان مع سنّه وثقل الجسم، وخلفه قفزات لا آدمية من سالم. كانت قدرات الرجال المتحوّلين

تأخذ العيون بسرعة عن فعل البدل ذاته. وجرّت صابحة الغنم خارجة من السوق في صعوبة باتجاه البيت وهي تهشّ رجالاً مزمجرين ومتجمّعين حول الأغنام بيديها.

كانت مشوّشة بعقل معلّق في كلّاب حديد، تحاول استنباط الرموز من حلم الليلة الفائتة، وتربط الأمور بنخلة الخلاء وغضب ربّنا على ما يفعله الرجل مع الجماد. والصاوي يتبعها على أربع في وسط الغنم التي تسحبها، يُمأمئ وهي تتوقف بين حين وآخر لتنهر وتخبط على ظهره، تصرخ بوجه أصفر: «اتركنا في حالنا الله يهديك». لكنه بقي وراءها ولا ينفع معه زجر ولا ضرب. وعلى مقربة من الدار، كانت تصرخ على فوزي وعلى العيال في لوعة؛ هرع إليها الولد والبنت وخلفهما عديلة وفي ذيلهم فوزي بآثار النوم. ظلت تحكي بأنفاس متقطّعة، وتعيد في وصف ما حصل، تأخذ الولد والبنت بعيداً عن سعد خوفاً من عدوى أو مرض، ترجعهم إلى البيت مع عديلة. تقف على العتبة، تنظر إلى فوزي بلوم مغتاظ في أثناء الكلام، وتطلب من الله السماح، تنفعل وتقطع الصلح القائم؛ تدقّ بالكفوف على الجذع الملعون أمام البيت وتقول: «اقطع وجه الفقر حرام عليك».

كان فوزي يشتم الصاوي، يقترب بحرص ويدفعه بقدمه من وسط الغنم؛ فيمأمئ سعد في ألم، يشيح برأسه ويفرّ إلى الخلاء لدقائق وبعدها يعود ملتحماً بالغنم. أبقى فوزي الغنم خارج البيت. وبعد قليل أخرج طباعة العليق أمام الدار. أغلق الباب وظلَّ لا يقدر على الخروج، تصله أصوات الماشية من الخارج؛ فيطلع وخلفه العيال إلى السطح، ويشاهد من فوق السور القبلي ظهر الصاوي يتحرك أمام الباب ووجهه المندسّ في الطُباعة. وفي الليل؛ أشارت عليه عديلة بسقاية الرجل الذي علا

صوته. فتح الباب على قدر مخرج لذراعه، مدّ يده بالكوز خلال الباب الموارب وصبَّ الماء في سطل الشرب، قذف العليق على الأرض بين الغنم، ثم رجع بسرعة إلى الدار وهو يسمع رواية صابحة التي تعيدها مرّة بعد مرّة من بين صلوات واستغفار تتوقع خلاله نهاية البلد. انقضت ليلتهم وهم متربّعون في ظهر الباب، بين محاولات استدلال ودعوات نجاة من عديلة وهي تُتمتم بين حين وآخر بـ «سلِّم يا رب سلِّم»، مع نظرات تحميل ذنب نافذة من عيون صابحة، بينما العيال ممدّدون فوق الأرض ورؤوسهم مغمضة على الأفخاذ. كانت عديلة تسأله من جديد عن مصدر الغنم، وتقول إنها لقية صحراء واللقية ملعونة. تحكي ثانية عن حادثة الرجل الذي عثر في الشارع على دجاجة وأخذها إلى البيت، ولمّا وصل إلى الباب، رأى رجلها طالت وراءه مثل حبل بلا نهاية، وممتدة حتى المكان الذي أخذها منه. وتكلمت معه وقالت أرجعني من مطرح ما جئت واستدلّ عليه بساقي، أعادها، لكنه بعدها مات عندما رجع إلى باب بيته.

كان فوزي يطلع ثانية إلى السطح ويقضي الليل في النظر تجاه المناجاة المظلمة، وفي داخله رغبة غير قادرة على التحوّل إلى حركة لدخول البلد ومعاينة الوضع بنفسه. وصحيح أن لديه شماتة لكنما غير قادرة على ملء النفس المخرومة بخوفٍ من الغد. أطلّ على جذع نخلته ورفع عينيه إلى السعفات المتدلية فوق رأسه والتي توحدت مع الليل وبدت بلا لون في كثافة الظلام. مدّ ذراعه إلى أقصاها محاولاً بلوغ الجذع بلا فائدة، وأحسّ بحاجة إلى لمسةٍ واحتضان ضاغط يقفل خروم الخوف التي تنفلت منها روحه. قرفص وأسند كوعيه على الفخذين. ركن بظهره إلى سور السطح وتطلّع إلى المكان المفترض لنخل الخلاء. كان يعرف سرّ الغرابة ولا

يتجاسر على الخروج إلى حضن نخلته أمام المجهول الضارب. كان يفهم تلميحات صابحة ونظراتها المؤنّبة بينما تصف بداية اللعنة في السوق. لكنه يعرف أن النخلة بعيدة عن وجع صابحة في تلك المرّة، وكاد أن يصرخ متّهماً صابحة -من بين إشاراتها الجارحة- بالتسبب فيما حدث، لأن الخروج من الخلاء وهجر النخلة كان أصل المشكلة وليس العكس.

دفس وجهه بين كفيه وهو يستعيد سروحه بالعنزة والتيس خارج الخلاء وخلال صحراء شاسعة، والنهار الذي أخذته فيه ساقاه إلى الجنوب الغربي لمسافة أكثر من معرفته. كان يرى جبلاً أسود لم يعرف عن وجوده من قبل، تنتشر فيه ممرّات رمادية مثل أخاديد على وجه له زمن، وبين صخوره، رأى امرأتين ترعيان قطيعاً من ماعز أبيض وتتغطيان بسواد وكأنهما قطعة من الجبل نفسه. كانت الماعز كنقاط مضيئة تتنقل. وفي البعيد بامتداد الغرب، شاهد جبالاً أخرى لكنما رمادية، وتنساب في أسفلها تلال جرانيت وكأنها سنادات. كانت أشجار طلح تتناثر بين الصخور وفوق قمم الجبال، وفي مناطق امتزجت رمالها بالحصى والأحجار المصقولة كأنها جواهر لامعة تحت الشمس. ولمّا حاول الاقتراب من سفح الجبل الأسود ومناداة المرأتين، كانتا تبخّرتا في شقوق مغارات بهيمة، لكنه رأى غزالاً يمرّ أمامه في لمح البصر ويقفز بين الصخور، سابحاً ومتعلّقاً في الهواء لبرهة حتى تحسب أنه ليس براجعٍ إلى الأرض، وكأنه مربوط من خصره بحبل رافع وغير مرئيّ. وأحسّ فوزي بتوهة رغم امتلائه بحلاوة المكان. كانت استكانة اللحظة تدفعه إلى المضيّ قُدماً والالتفاف حول الجبل، نهماً ومستطلعاً لمزيد من جمال جديد على عيون ابن الخُضرة، وفي روحه خيط لنرجسية مستكشف يزاحم آلامَ روحه المطرودة من المناجاة ويقود ساقيه. ووراء الجبل، كان يرى خياماً قريبة وعششاً

معمولة من أسوار دائرية من زرب البوص، وأمامها وقف البدو يطحنون أوراق التمر الهندي ويطعمون الإبل التي تحمل على جانبيها قِرَبَ ماء من جلد ماعز منتفخ. والنباتات الشوكية تبرق تحت الشمس وترهق العين بانعكاسات. كان الماء قد نفد، وأحسّ فوزي بحاجة إلى الشرب؛ واقترب من الخيام، سلّم على البدو وأخبرهم عن مكان قدومه، وناولوه الماء مع حليب نوق وقد طفا الزبد على وجه الإناء. كان يشرب ويبتعد ليستريح تحت الجهة الغربية من الجبل المُظلّل على مجلسه في تلك الساعة. وراح في نوم لم ينتبه منه إلا والشمس مسلّطة في وجهه. كانت المنطقة أمامه بلا خيام ولا أثر للبدو. وفزع فوزي، والتفت يبحث عن العنزة والتيس حتى عثر عليهما بين صخور الجبل التحتية. التفّ حول الجبل قاصداً العودة. كان يكِدُّ نحو الشمال الشرقي قبل دخول الليل، وأحسّ بالجهات متبعثرة، حتى بدا أمامه ذلك الشيخ على حين غرّة. كان طاعناً في السن ومتربّعاً فوق سطحٍ مستوٍ بين تبّتَين رمليّتين، يحدّق في الشمس ويشير إلى ناحيتها بطرف السبابة، ثم يسحب السبابة تجاه الشرق بينما يرسم قوساً في الهواء، يطلّ لبرهة في الشرق قبل أن يخطّ بالأصابع على الرمل أشكالاً لدوائر متشابكة ومحتوية لبعضها ثم يبسط كفّه ويمسح تلك الأشكال. كان يرتدي جلباباً من كشمير أزرق، ويمسك بسبحة ضخمة حباتها من خشبٍ عتيق في يده الأخرى، له لحية شيباء كثيفة ومتدلّية إلى آخر الصدر. أحسّ فوزي بثقل الجسم على ساقيه وخاف من منظر المنفرد في الخواء، حسبه من أهل الجن ومضى مسرعاً، لكن الرجل أشار إليه وناداه ليقترب؛ فازداد ذعر فوزي من حواديت مسترجعة في دماغه عن الظهور والاختفاء ومنفردي الطريق، مفضّلاً تجاهل النداء والابتعاد بالغنم. لكن الرجل قام، دسّ قدميه في خفٍّ بنّيّ مركون بجانبه ومشى ناحية فوزي مغلقاً عليه

الطريق. وثبت الراعي في محلّه ولم يعرف أين يروح. أخذه الشيخ من يده وجلسا على الرمل. سأله الرجل عن اسمه وبلده وأجاب فوزي بحروف متقطعة ونظرات تهرب في الاتجاهات تستطلع أيّ نجدة. قال الشيخ: «وما أتى بك إلى هذه البقعة!».

كان فوزي يردّ: «رجلي» وهو يتمنّى قطعها قبل سروحه إلى هنا.

كانت قسمات الرجل طيّبة، صوته دافئ، وحاول الرجل طمأنة فوزي وقال باسماً: «وتسرح بعنزة وتيس فقط! لا ينفع».

كان فوزي يريد إنهاء المحادثة، قال: «الحمد لله على كل شيء».

قال الشيخ: «تبدو عليك طيبة وغلب. عمّك نجيب سوف يدلّك على مكان فيه قطعان وخيرات جزاء لطيبتك».

صمت لبرهة ثم أكمل: «لكن لي في المقابل خدمة عندك».

قال فوزي في طاعة واجل: «اؤمر».

نظر الشيخ في الشمس الغاربة، هزّ رأسه بالنفي وقال: «ليس اليوم، الليل قريب والمناجاة بعيدة».

حطّ يده في جيب الجلباب وأخرج قطعة من فضّة، دسّها في كفّ فوزي وأكمل: «تمرّ عليّ غداً بإذن ربك في نفس المكان عند صلاة الظهر وأقول لك. وكلما أتيت وجلست معي تأخذ قطعة فضة كهذه».

أخرج الشيخ ثماراً غريبة من جوال قماشي بجانبه.

«خذ، فأكيد أنت على لحم بطنك».

شدَّ الشيخ على يده مودّعاً وأكمل: «لا تأخذ شيئاً من البدو المغادرين مرة أخرى، واحمد الله على سلامتك بعد الرواح في النوم أمام عيونهم. حظك أنهم كانوا متعجلين».

ظلَّ فوزي يتردد على الشيخ لعدة أيام، يجلس ويحكي ويستأنس بالريق الحلو وأبوة غير مختبرة وإنما فقط مسموعة ومشاهَدة على الغير؛ وحتى أنه صار ينسى تناول قطعة الفضة وقت المغادرة، ويتوقف عن السؤال حول الوعد بالمكان المحمّل بالخيرات. حينئذٍ قال نجيب باسماً: «الحمد لله؛ بيني وبينك ألفة الآن يا عمّ. هل تعرف يا فوزي من أين أتت كلمة 'ألفة'؟ ستقول لي أنها يمكن من ولّف على بعضه، ولكن ما أصل ولّف؟ ولّف قريبة من كلمة لفّ، تخيّل أننا نلف حول بعضينا كحبلين، نمتزج، وبعد فترة وبعد استخدام الحياة لنا سيكون صعباً أن تفرّق بين الحبلين بالنظر، بين الحبيبين بالنظر، سوف تراهما كحبيب واحد، كحبل واحد عليه آثار الزمن. وشف يا أخي، حتى لو حاولت أن تفصل الحبلين المجدولين بعد زمن ستحتاج إلى بأس، بل إنك يمكن أن تقطع الحبلين حتى تسحبهما بعيداً عن بعض».

سحب نجيب نفَساً عميقاً، تنهّد «قطع الألفة يقطع الأُلَّاف».

التفت وأطلّ إلى الغرب. همس في أسى: «كان بيني وبين ناس ألفة لزمن لا يعلمه إلا ربّك، ولكني مقطوع الآن. ليس بعداوة أو بشجار، بل بإهمال ونسيان. وكأن القطع شوَّهني، ولم يعد أحد ليتعرف عليّ».

نَفَضَ الشيخ الأسى وابتسم «كلمة 'شجار' هذه غريبة. المفترض أن 'شجر' قريبة من الثمر والخير وليس الخصام. لكن يبدو أن الخصام والبغض يقفان بين الناس مثل شجرة ضخمة وكثيفة الورق، تمنعهم عن رؤية بعض، يحتفظ دماغ كل واحد فيهم بما يكونه عن الآخر الغائب عن عينه ويكتفي به بدلاً من قصّ الأوراق الكثيفة. لذلك فإن كلمة 'مُخالَلَة' هي عكس الشّجار، وكأن الطرفين يتخللان الورق ويقتربان لرؤية بعض!».

صفّق الشيخ بكفّيه وقال في مرح: «شف يا عم فوزي، سأدلك على

مكان الخيرات، وسوف تمرّ عليّ هنا كل يوم وأنت رائح وراجع من هناك، ولو وجدت السرّ الإلهي نفذ؛ تغسِّلني وتصلي عليّ، وبعدها تقوم بالحفر وتدفنّي هنا. هل تعرف أصول الغُسل والتكفين؟ سأشرح لك على العموم».

راح المرح، أكمل الشيخ في رقة: «ليس لي أحد يواري سوءتي يا فوزي».

أطل الشيخ باستفهام كأنما ينتظر الردّ، وأبدى فوزي التأثر بينما يدعو للشيخ بالعافية. أشار الشيخ بذراعه إلى الجهة التي أتى منها فوزي عند أول لقاء وقال: «يوجد هناك جبل أسود، نفس الجبل الذي نمت في سفحه. صحيح هو كبير جدّاً، لكن إن التفت إلى جهة الشمال الغربي منه سوف تعثر على واحة مليئة بخير ربنا، قائمة بنفسها، غير متصلة ولا مفتقرة لغيرها».

كان فوزي يلتفت إلى موضع الإشارة بحيرة ويرد: «أنا جئت يومها من هناك وما شفت أي واحة!».

قبض الشيخ على حفنة رمل وقربها من شفتيه، قرأ عليها بهمسات ونثرها فوق رأس فوزي المتربّع قباله. قال: «الآن تعثر عليها كلما رحت هناك».

أكمل: «لكن لا تذهب الآن، ولا ترح أبداً يوم الجمعة. واحذر أن تبقى هناك عند حلول الليل، وإلا انحبست للصبح. وهناك ستجد جدول ماء ومن خلفه الجبل الأسود. إياك وعبور الجدول، ابتعد عن هذا الجبل، حتى وأنت تلتف من حوله، امش في دائرة واسعة ولا تقترب من صخوره ولا مغاراته. رُح بعد شروق الشمس وخذ من البهائم ما شئت. ولكن وأنت راجع احرص على ربط سيقان آخر القطيع بسعف نخل لينمحي أثرك وأثر ما تسحب من فوق الرمل. وارجع على نفس آثار أقدامك. لا تنسَ».

وفي الصباح التالي عبر فوزي إلى التبّة الرملية، سلّم وراح إلى الواحة. كان نجيب قاعداً يذكر على السبحة ويومئ برأسه باسماً كأنه يؤكد الاتجاه. عاد فوزي قبل المغيب بعنزة واحدة صغيرة، كانت علامات الإرهاق بادية عليه، وابتسم نجيب لمّا رآه في العودة وصاح: «في البداية يكون الإمساك بها صعباً، لكنك ستعرف الطريقة فيما بعد». ضحك وأكمل: «ظلت شغلتي أن أمسك بهم لعشرين سنة قبل أن أجلس وأبدأ في أكلهم».

وفي كل صباح؛ كان فوزي يمرّ ويسلّم، يقف أثناء العودة بما تناول من أغنام وقطف من فاكهة غريبة، يحلب عنزة للشيخ ويجلس ليأكل معه، يتأنّس له وبه قبل الارتداد إلى المناجاة. كانت الأمور منتظمة وسلسة، حتى المرة التي قدم فيها فوزي مرتعشاً في الليل إلى موضع نجيب. قال في اضطراب: «لن أدخل هناك يا عم نجيب مرة ثانية. لفّيت وراء الغنم طول النهار. حتى تعبت وقلت أرتاح. رحت في النوم. قمت في فزع والليل على الباب. وكان هناك أصوات خلق تتكلم وحِلَل تتخبط. سحبت الغنم وجريت من الواحة».

كان نجيب ينظر في لوم «الطمع وَحْش يأكل صاحبَه. يا أخي! كفاك غنمتين أو ثلاث في اليوم، ولا تفرهد روحك وراء الأكثر».

انقلب الرجل إلى العطف وهدّأ من خوف فوزي «على العموم أنا أنجدك حتى لو حصل وانحبست هناك بعد الغروب».

دسَّ يده في جيبه وناوله كيساً من قماش «إن رحت في ظرف وبقيت هناك إلى الليل خذ هذا الكيس واحرقه في الواحة. لكن انتبه لئلا يراك واحد من أهلها. هم يدخلون إلى هناك مع صلاة العشاء في ليلة الجمعة ولا يرحمون الغرباء».

كان فوزي ينظر إلى الكيس القماشي الشبيه بحجاب ويسأل: «ما فيه يا عم الشيخ؟».

أغمض نجيب عينيه، ابتسم بينما يومئ برأسه في تتابع «وصفة للنوم؛ جذور الفوة ودهن سلحفاة ودهن غراب وبذر كُرّات. ولو احتجت أن تشعلها فادهن أنفك بسمن أو زيت حتى لا تروح في نوم أنت الآخر، وإن لم تجد سمناً أو زيتاً فممكن ولا مؤاخذة أن تستخدم قطرات من بولك على الأنف إن انحصرت. هيا رح إلى بيتك وعاود إلى الواحة بعد غدٍ وأنت مطمئن. معك سلاح يا عم. ويا أخي تجنّب الجمعة وليلة الجمعة وعندك في الأسبوع خمسة أيام».

كان فوزي يتحرك بغنمه، لكنه وقف متردّداً قبل أن يلتفت ويسأل الرجل: «من أنت يا عم الشيخ؟».

«نجيب!».

قال فوزي: «أقصد أصلك؟ بلدك؟ قعدتك هنا؟ شغلتك؟».

أطرق نجيب برأسه ثم شرد في وجه فوزي وهو يردّ:

«شغلتي ساحب هموم وبلدي حيث أقعد».

كان آخر لقاء له مع الشيخ، وجده فوزي ميّتاً في النهار التالي، كما هو لكنّه متصلّب في جلسته وذقنه ساقطة على الصدر. غسّله فوزي ودفنه كما تعهد وحسب إرشادات الشيخ. وبعدها جاءت غلطته الكبيرة، حينما انحبس في ليلة داخل الواحة بعدما امتلأت بطنه بالثمار وراح في نوم ثقيل. وحين صحا؛ شاهد جلابيبَ بيضاء تتجوّل في كل صوب، وأجنحة عملاقة تهبط إلى الواحة ثم تقعد وتغني. كانت رجلاه مثبتة بمسامير في مكانه، لا يقدر على حركة. أحرق الكيس، وملأ أنفه بقطرات من بوله.

كان فوزي يخرج ليلتها مسرعاً وبلا غنم، تاركاً خلفه صيد اليوم مربوطاً في حبال مع مجازات نائمة، مهرولاً في الظلام إلى المناجاة، ولكنه نسي أن يربط أقدامه في السعف.

*****

في غرفة درّيّة جبل، وفوق أريكة خشبية من أبنوس بظهر مستطيل ومرتفع له تكوينات هندسية متناظرة من منحوتات لأوراق قلبية في الزوايا، وحفريات لنجمات إحدى عشرية مُضفّرة بشرائح من فضّة، ومُثبَّت على الأضلاع شَبَكات متناغمة من أسلاك نحاسية للتحديد، كانت درّية جالسة في خمول، تحسر عن ساقيها أطرافَ الجلباب الذي تكوّم فيما بين فخذيها، ومدلّية القدمين في داخل طشتٍ نحاسيّ تتربّع خلفه عزيزة على الأرض.

كان الكلام قد توقّف، والغرفة ساهية في برهة صمت، مشروخ بطرطشات لماءٍ ينساب من إبريق نحاسي في يد عزيزة، بينما تفرك أقدام درّية، ثمّ تضع الإبريق فوق الأرض وتفرش فوطة قطنية على حجرها، تأخذ في داخلها الأقدام، تزيح الطشت ناحية الجدار وتتزحزح إلى الموضع نفسه الذي نحّت عنه الطشت، تقترب من ساقي درّية وهي تحيط القدمين بالفوطة وتُنشِّف آثار المياه، ثم تستكمل التدليك والكبس في الأصابع والكاحل، وصعوداً على ربلتَي الساق.

اتّكأت درية على الذراع الخشبيّة المُطعّمة بقطع عاجية وصدف طيفي لامع. أكملتْ: «ناس المناجاة انبسطت في البدل يا عزيزة. لكن ولا واحد يقول ويُعلِن. عندهم اللذة حرج، وأكثر دعواهم في الستر بالفهم المغلوط. الستر في أمخاخهم ستر الجلابية. اسألِيني أنا، أنت كنت صغيرة».

ابتسمتْ درّية. سرحتْ عيناها في الشباك المفتوح، بينما تيار خفيف

ينساب إلى الغرفة المحمّلة بهدوء غيوم عصاري، ويهزُّ الستائرَ لترفرف بحنان.

«وقتها كنت أتسلل وأروح هناك، مع حريم من الغزالة، من وراء رجالنا، بعدما عرفنا أن العدوى تضرب الرجال وبعيدة علينا. (مطّت شفتيها) وحتى بعدها ولقلة البخت، عرفت أن العدوى محصورة في رجال المناجاة ولا تمسّ غيرهم».

بدا في حركات ذراعيها نشاط تحت تأثير ذكرى مليئة بحركة وهي تبتسم. «كنا نتفرج ونضحك. نساعد نسوان المناجاة في إمساك الرجال. لعبة صيد. والست تُحب أن تَصطاد في ساعات. وما أحلاها لمّا يكون الرجل بلا دماغ ومنساق. وفي أوقات ثانية كنا نلعب مع الحيوانات بطول وعرض البلد من غير كسوف».

كانت الابتسامة تتسع، وارت فمها براحة اليد في اصطناع وكأنما تحاول منع ما يقال لكن لسانها غلب. «وأعرف بالاسم ستّات من الغزالة، كانت تتعرّى وتختبئ بين غيطان الذرة، تنبح وتنهق وتموء وتصهل وإلى آخر ما شئت من أصوات، تمشي على أربع بظهر مقوّس ومؤخرة مصدَّرة، وتعمل نفسها من الحيوانات وتنتظر العطيّة».

خبطتْ برفق على خدّيها عدّة مرات وهي تكزُّ بالأسنان على الشفة السفلية. همست في لهجة من يوعز بسرّ: «طيّب هل بلغك أن واحدة من نسوان لبدة، ومن غير ذكر اسم، اجتمع عليها عشرة ذكور نابحة، وبقي واحد داخلها لمدّة وطوَّل، والوجع قهر الستر ساعتها، والستّ روحها راحت وهي تجري عريانة من المناجاة على الصحراء وتستنجد بلا دراية، وهو لاصق فيها، محشور ولا ينفكّ ولا بالطبل البلدي».

كانت تركبها ملامحُ الجدّ، تكوّر الأصابع وتشرح: «أصل الكلب له

منطقة في القضيب تنتفخ عند الجماع مثل البرتقالة؛ ينحصر بسببها ولا يخرج لغاية ما تفشّ بعد الإفراغ».

كانت عزيزة ترفع عينيها، تركِّز في تكوينات الأصابع الشارحة.

«وناهيكِ عن النسوان التي جرّبت متعة نوم همجيّ من حيوانات قادرة وغير متحرّجة، لكن في الأصل كلنا حيوانات ربنا ونمثّل العقل أمام غيرنا. حيوانات تعمل ألف حساب لحيوانات أخرى. لكن الراعي واحد، والعصا واحدة، والعليق واحد».

مصمصت بشفتيها. «صاحب الماخور اخترع العفّة، وأخذ فلوس الناس على أوقات كسرها عنده».

دخلتْ في ضحك يصطنع الخجل. «ما عدا من تبدلوا لكباش وتيوس».

كانت تشير بالسبّابة في نفي «لم تكن واحدة من النسوان تمأمئ في المناجاة وقتها؛ أصلاً طلب الكبش للنعجة قليل، والتيس رائحته زفت والنتن في جلده، ريحة بدنه قرف وبوله غليظ. لكنه مع هذا عفريت في السفاد لمّا يعوزه؛ يتسحب من الوراء، ويخبط المؤخرة لترتفع بمقدار هو وحده عارفه، ويركب في لمح البصر».

أسندت ذقنها على الأصابع، ارتفع بؤبؤ العين في محجره وكأنما تتذكر شيئاً. استدركت في لهجة مُنتصِر: «لكن والله حتى في البدل كانت النظافة حسنة جديدة على ناس من أهل البلد. عندك مثلاً شيخ الجامع، كانت امرأته في العادي تشتكي من رائحة بدنه ومن نطيط البراغيث من جسمه. لكنه تبدّل لثعلب، والثعلب نظيف، فكان يمسك في أسنانه بحتّة ليف وينزل إلى الترعة، يغطس بالراحة، والبراغيث تسيب الحتة المغمورة وتروح على الحتة الناشفة، بعدها يغطس برأسه وحنكه يرفع الليفة فوق الماء، والبراغيث تنط عليها، وساعتها يسيب

الليفة بسرعة ويخرج من غير براغيث لحضن الستّ. كان يقرفها لمّا يجوع ويهجم...».

توقفت عزيزة عن التدليك. قاطعتْ: «لكن ربّنا كرّم الإنسان وميّزه عن بقية الخلق يا ستّ درّية».

أسندت درية الكوع على الفخذ، انحنت، مالت جهة عزيزة وهي تحدّق في العينين. «الروح واحدة في كل الخلق لكن القِدرة تتغيّر. البدل كان الأصل. بصّي على العيال والفهم يصيبك. أجمل ما في العيل أنه حيوان بلا حرج؛ يشخّ في أيّ مكان، ويأخذ الأكل من أيّ مكان، على فطرة مخاليق ربنا. نازل طاهر من لفّة الورقة بختم الصانع. لدرجة أني ساعات أفكر فيمن عملوا تماثيل للحيوانات أو تماثيل نصفها بني آدم ونصفها حيوان، وجاء ناس من بعدهم وعبدوها، وأقول إنهم وصلوا لمنتهى الفهم، عرفوا أن جمالهم في الحيوانات الموجودة فيهم».

عادت تستند بظهرها إلى الأريكة. نقلت بصرها ناحية الباب المقفَل. «الناس يقولون درية عَمَلت وسَوّت في الغزالة ببول مسحور، لكن البول شدّ الغطاء فقط، فكّ الحبال عن الخلق وخلّاهم حيوانات مبسوطة، تفعل ولا حرج».

كانت تبتسم في تفكير، تروح لعتبات مكر، تطلّ على رأس عزيزة المنهمكة في التدليك. «أنتِ مثلًا، على راحتك، قاعدة وفارشة ومبسوطة، أكثر من أيّ وقت قضيتيه هنا في بيت علي. وهل كان في مقدورك أو في مقدور أي نفر أيامها الاقتراب من حجرة سيدك! كان على بابها الحرس بالكوم».

كانت عزيزة تضطرب، تتقلّب الألوان في وجهها، تشعر فجأة ببرودة لتيارات هواء داخلة من ثقوب دائرية في الجدار قرب الأرض بمحاذاة

جلستها. ودرية تفهم، تحاول تشتيت المشاعر المتضاربة بمواصلة الكلام. «طيب سأحكي لك حدوتة عن رجل اسمه المكّي، كان يحب جارية عنده وتزوجها. والست كان لها صُنان رائحته جبارة وتستعمل المرتَك، حجر لونه ذهبي يخفي الروائح. لكن بعد مدة فهمت الرجل، وعرفت أن الرائحة الوسخة تهيّج رجلها حتى الآخِر، وأنه تزوجها لأجل خاطر الصُّنان. فلمّا تطلب منه حاجة ولا يعملها تقف له في وسط البيت. تشلح وترقص وتقول سأحطّ المرتك وأشيل الرائحة. والرجل في الحال يعمل لها ما تطلبه ولو كان لبن العصفور».

بان تفكير أسيان، غاط بالملامح في حزن وسرحان.

«معه حق المكي، رائحة الناس مهمة للناس، حتى لو كانت وسخة».

فركت عينيها بالأصابع. استدركت وعيناها مغمضة: «البني آدم غلبان. يداري عن العيون طبعه لكن يخرجه في العتمة. يجاهد فيه ويحسبه ابتلاء. وطبعه عطشان وغالب عند أول سهوة. لكن حظ الحيوان إن عمره كله يمشي سهوة».

خلعتْ التفكير عن ملامحها، طاردته بابتسامة، تلاعبتْ بالحاجبين.

«لكن بمن يذكرك المكّي يا ست الصبايا؟».

كانت تؤرجح كفَّيها أمام صدرها كأنها تندب ثم تمطّ ذراعيها في الهواء بينما تبتسم في مكر. «المزاج أنواع يا أهل المزاج، واحد عشقه في الصنان والثاني حرّيف رُكب».

انطلقت تضحك في جلجلة على ارتباك عزيزة. «في نفسي أن تشوفي العناكب وتنبسطي. الذكر يغزل الخيوط تجاه الأنثى، والأنثى تغزل الخيوط تجاه الذكر، حتى تتلاقى البطن على البطن».

كانت تُقسِّم الجُمَل وتُنغِّم، تتراقص، تتمايل بأكتافها على إيقاع الكلمات، تُصفِّق بيديها مع آخر الجملة.

توقفت عن اللعب. همست: «في الغالب البني آدم لو شاف من يغزل ناحيته سيقف ويتكبّر وينتظر، مع أن الإنسان والحيوان في كل واحد فينا، لو تعاركا؛ كان سواد العيشة، ولو تفاهما؛ لمشت الأمور بسلاسة. وعلى العموم حدثت العادة، والستّ كما هي قادرة على إظهار الحيوان وإخراجه من الرجل وقتما تحب، فهي قادرة على كتم الحيوان وقتما تحبّ، كما فعلت حبيبة زوجك لمّا أنهت على البدل».

انتبهت عزيزة، كانت رخاوة ملامحها تنقلب إلى غيرة وعِناد.

«سيد لا يذوب إلا في مكان خطوتي ولا يتمنى إلا الرضا مني».

تفرَّست درية فيها. «وأنتِ ذوبانك في أي خطوة؟».

أومأت كمُطَّلعة على الخافي «أقول لك أنا. أنت ذوبانك في خطوة من مات وارتاح. صح يا عزيزة؟».

تنهدت «الله يرحمك يا عليّ».

سكتتْ لبرهة. مَشَتْ بإصبعيها السبابة والوسطى على الفخذ باتجاه رأس عزيزة كأنها خطوات تتنقل. أكملت: «كنت تتمتع يا عليّ برؤية غزْل العنكبوتة وأنت واقف في محلّك».

كانت الدموع تطفر من عين عزيزة. ودرية تُطرِق رأسَها في الحِجْر، سارحة في حالها ولا تلاحظ. كانت وكأنما تتحدث مع روحها.

«في لحظات أندم على موته، وأقول والله هو رجل كانت تتمناه أيّ واحدة. أنا تمنّيت قبلك وغزلت بالراحة. غَزْل لا تشوفه إلا عيني. غزل خجلان من الفروقات. أغزل وأنا عارفة أنه مقطوع في طول المسافة

بين زبالة المصرف وبين البحر. غَزْل تنفيس. لكن أرجع وأفتكر في منظر اصطياده لإبراهيم ولأصحابه من الصحراء، وربطهم بالحبال مثل حيوانات، وجرِّهم بطول الغزالة حتى البحر، وأنا وأبوه نجري وراءه، نستعطف الأيدي والأقدام. وعليّ راكب على فرس، بصره في السماء ولا يشوف غلبنا، قبل أن يرصّهم قدّام الناس في صفّ، ويضربهم بالرصاص في عزّ الظهر. وإبراهيم يا حبّة عيني لا يصدّق أنها ساعته، يُخرج آخر أمل ويولول ويستغيث بالخلق، يعفر وجهه تحت مداس علي. في ساعتها أنسى أي حلاوة في علي، ويكون في ودّي أنه يبعث وأقتله ألف مرة».

ركنت مؤخرة رأسها إلى الأريكة، كانت تُطل في السقف، تدير رأسها ببطء وتُقلِّب الفروة على الخشب؛ وتسمع طقطقة شعرات الرأس مع الانضغاط فوق الأسلاك.

«لو كان خليل أبو لبدة يعرف وهو يصل البلد بالسكة الحديد أني سأركبها في يوم وأرجع للقتل في نسله ما كان عملها».

أغمضت عينيها في قوة. «إبراهيم كان يستأهل القتل لأن روح بروح. لكن وجعي كله من سحله بطول البلد وهدومه تتمزّع وسط صريخنا. من منظرة علي الفارغة في عزّ بؤسنا وقلة الحظ. ويبقى الولد يا حبة عيني طول النهار عارف أنه رائح على الموت عوضاً عن قتله ساعة القبض عليه في الصحراء».

فتحت عينيها. عبّت نفساً عميقاً. «أقول كلنا حيوانات بصحيح، لكن الظلم يقوم لمّا يتصرف واحد في وسط الحيوانات كبني آدم، يصطاد البقية، يحلبها أو يأكل لحمها لأن معه الحبل والسكين».

خفضت رأسها، كانت تنظر من جديد إلى رفرفة الستارة. «من زمان كنا

نقول إن إبراهيم ابن موت؛ يعمل ما في باله ولا يهتم بأي حاجة. جوعان للدنيا. ناس كثيرة تولد لتروح بسرعة وتسد فم الموت!».

صمتت للحظات. كانت تحكّ جبهتها بالأصابع وتخرج من حكايتها «مثلًا، هل تعرفي أن العيال الثلاثة التي تقعد حبيبتك فاطمة في حضنهم في المقام كانوا أولاد موت!».

كانت عزيزة تنظر في تساؤل يزاحم الدموع. أكملت درية: «أصلاً أبوهم علوان كان سيقتلهم أيام البدل. لأن القطّة تجامع أكثر من ذكر، والسنّور الذكر يقتل الهريرات الصغيرة في وقت غياب الأم؛ لأنه غير متأكد من أن الكلّ أولاده».

كانت درية تفرش الأصابع فوق الفم، تعقد الحاجبين، تهز رأسها في خفة كتأكيدات من مُتذكِّر على صحة ربطه للذكريات. «والغريب أنه أمسك الولد وراح به على السلّان كما عملت بعدها سميرة. كان أصغر العيال، الشبيه بأمه سميرة. وكان علوان يقبض بأسنانه على هدوم الولد، ولحقت به النسوان قبل أن يرميه في الماء».

أفاقت ومالت ناحية عزيزة. كانت تنظر في حنان. تمدّ يدها وتمسح الدموع. «في أيام البدل أخذت سيد، حبسته في بيتنا من وراء الناس، وسيّبته لمّا قالوا فاطمة بدأت في العلاج. كنت أخاف عليه وهو على حال جمل بلا وعي. في الأول كنت أسرح وراءه في المناجاة النهار بطوله، أناوله الأكل والماء وأنظفه، أحطّ رأسه في حجري حتى ينام في الغيطان نواحي بيتهم، وبعدها أرجع للغزالة. لكن أخذته من وراء الغزالة ومن وراء زينب لمّا ظهرت جفرة النخل، حشرة تمسك في جلد الجمل ولا تسيبه إلا بعدما تجيب أجله، يعرفها البدو، هلك بسببها أكثر من واحد من المتبدلين لجمال في المناجاة».

نَقلتْ يدَها، ضغطت برفق على كتف عزيزة. «كنت في الليل أكمّم حنكه وأقفل عليه غرفة الخزين. وفي الصبح يطلع معي ويسرح في البيت، بعدما يخرج كل واحد لمصالحه. يلفّ ويدور وراء مني، يحكّ وبره في جلدي ويرغو لو بعدت، يأكل من كفّي ويشرب».

كانت عيون درّية حزينة، تفيض بأثر ذنب، تجول في خاطرها شوائبُ من ليلة بعيدة، ظلت تجثم على صدرها لسنوات وتصل إلى التشكيك في مقدرتها على تحمّل تبعات الأمومة، ويمكن كانت صاحبة دور في انزلاق كراهيتها نحو عليّ أبو لبدة فيما بعد، كراهية العاجز وهو مرغم على التدني بأفعاله أمام قلة حيلته، ومن ثم اكتشافه لسيئات روحه، والعناد في إلصاق تلك السيئات بسبب عجزه. غالبت أفكارَها بالدخول عنوة إلى مشاعر مضادة من الحنان ولو مسوقةً بالعقل. همست: «لو كان حُب ابن زينب في قلبي قبل البدل قيراط، فهو من وقتها أربعة وعشرين. سيد جمل بلا بدل، حمّال. حتى في غلطته كان كالجمل مع صاحبه لمّا يخلص صبره ويزعل من أذيّة. لكنه خدّام للمعاملة الحلوة. ساعات أقول إن ما تحكيه سببه أن الولد لا يريد الحياة مرة ثانية. دخول الرجال فينا هو ولوج للرحم مرة ثانية، وسيد يخاف أن تمسكيه في بطنك وتحملي فيه تسعة شهور، وينزل بعدها للحياة ويعيد تكرار دوره».

تنهّدتْ. نترت كومة الجلباب، دارت به ساقيها. «ولا واحد فينا وعاقل يرغب في الوقوف على باب العشم في الدنيا مرة ثانية».

كان يتبدّى في ملامحها رجاء تستغفر به عن فعلة قديمة، وتتلهف على استجابة من عزيزة تزيح عنها أثقالها. «خذي بالك منه يا عزيزة. راعيه ولا تفكري في قديم. وإن كان على الخلف فأنا قدّامك، بلا ولد ولا رجل في الليل».

بدا في وجه عزيزة عدم قناعة بينما تتنخّم وتحكّ الأنف في طرف الكم. قالت: «أنت بلا حاجة لسند. البلد كلها عند رجلك. لكن أنا لوحدي بلا ونس».

همست درية: «عبيطة يا عزيزة. لو أقدر كنت بدّلت مكاني مع مكانك».

كانت عزيزة تنفجر تحت ضغط حمولات الليلة. تشوِّح بيديها وتؤرجح جسدها في ندب. تصرخ: «مكاني أرض بور، ينقّلها ابن عزام تحت حمو الشمس، يكبس فوقها بصفيح، يغطيها لو مرت عليها سحابة، وحتى قبل بداية المطر، ولمّا ينام أو يطلع من البيت، لا يخلف لها إلا الهُس الكبير. وكأني في قبر لكنه واسع. تفضّلي في مكاني يا ست الغزالة!».

ضاقت عيون درية على غضب محبوس. انتفضت واقفة. أمسكت كفَّ عزيزة وشدّتها من الأرض في عنف. دفعتها في صدرها على الأريكة مكانها. أزاحت الجلباب بقوّة عن ركبتَي عزيزة حتى طارت أطرافه على وجه عزيزة للحظات. اعتدلتْ في وقفتها. تراجعت خطوة. أسندت الذقن على قبضة يدها بينما يدها الثانية تسند الكوع. كانت تدقّق في الركبتين. وعزيزة مأخوذة من الوضع. تصحو من الانفعال على القلق. مدَت يدها في محاولة إسدال الجلباب على ساقيها، لكن درية أوقفتها بنظرة قاطعة مع إشارة من الكفّ.

كان في صوت درية فحيح. «الكل يسيب سواد روحه عند درية ويرحل. أنت مثلاً، دموعك هنا من غير ساتر. يخرج الوجع وبعدها رواحك سلس على سريرك، بحمول أقل وبال أصفى. ولا على خاطرك أن درية عندها وجع كبقية الخلق، ودرية في نفسها أن تبكي وتصرخ وتمزّع هدومها كبقية الناس. أنا مكتوفة في كفن من ساعة ما رجعت الغزالة».

أشارتْ بالأصابع إلى السقف. «القاعد فوق تعبه يغلب المرمي تحت. أنا في سبق جري بلا آخِر. أشيل أهلي وأشيل هَمّ الحفاظ على الصورة في عين الغزالة. لا يصحّ أن يركبني رجل، ولا ينفع أن أمسك بولد. أبقى ماشية فوق حبل رفيع أمام العيون، وأقول يا ليت لو أقع وأتكسّر وأستريح لكن آخذ طبطبة واحدة من واحد. لكن أرجع وأقول لو وقعت؛ فأنا أحكم على نسل جبل كله بالموت».

كانت عيون درّية تتلألأ. نزلت على الأرض. اقتربت رويداً من ركبتي عزيزة. حكّت أنفها في الجلد. تشمّمت الركبتين في عمق. كانت عزيزة متصلّبة.

رفعتْ رأسها وبصّت بدموع. «في الليلة التي غرّقت فيها البنت حميدة كنت قبلها أشخّ وأفكّر في الخروج من البلد ومن غير رجعة. ولا أصدق أن الجثث حوالين الترعة من عملتي. ولمّا نطَّتِ البنت في البحر كنت أصرخ وقتها على مساعدة وأمدّ للبنت كفّي، لكن التيار أخذها وغاصت، والدنيا بقيت من غير صوت. ساعتها ما حسست بأي غرابة. وكأنها كانت تعبر جنبي وسلّمتْ وراحتْ في الظلام إلى بيتها. كنت طالعة إلى الجبل ليلتها وأفكّر أن البنت يمكن أن تكون فعلاً في بيتها. وأقول زمانها تطبخ للعيال وتدخل السرير مع الرجل. أرجع وأقول لا، أنا شفت غطستها في الماء. لكن اعتبرتها كأيّ غريب، يمرّ، ويسلّم، ويروح بعدها إلى حاله، يختفي عن العين طالما لم تحصل عِشرة. وصحوت في اليوم التالي وأنا ماكينة لمقابلة ناس خارجين من الدنيا، عتبة أخيرة. ناس منهم أشوفهم قبل المغادرة، وناس لا ألاحظ حتى زوالهم».

بسطت درية ذراعها على فخذ عزيزة. شمّرت كمّ الجلباب. أشارت إلى ندبة في الساعد، ثم نامت بخدّها على الركبة. كانت عيناها تسرحان

في الجدار المقابل، تتخيّل أشكالاً ووجوهاً مُؤانِسة ترسمها الخطوط والنقرات في ملاط الجدار.

«في مرة قلت أجرّب بنفسي ما عملته في الناس. كنتُ فاردة ظهري فوق السرير الواسع والدنيا كحل بلا صوت ولا نفس، كأنه قبر. وأنا أنفخ من شفتي التحتانية في أنفي، وأشم رائحة نَفَسي دافئة، أتخيّلها لبني آدم ينام جانبي ويؤانس لغاية الدخول إلى النوم. في ساعات ثانية كنت أفرك في فرز جسمي أو تحت إبطي وأتشمّم في روائح البني آدم. لكن ليلتها رحت بإصبعي إلى تحت وفركت. تناولت يمكن مسحة من بقية بولي، وملّست بها على طرف اللسان، ولم أدرِ بالدنيا إلا ولحمي بين الأسنان والدم نازل على ملاءة السرير».

بقيت مسترخية لبرهة قبل أن تنهض. كانت تمطّ ظهرها وتستعيد روحها. ذهبتْ إلى الشباك وأزاحت الستائر. أطلّت لدقائق على الجنائن حول البيت. كانت تتنفس. التفتت إلى عزيزة.

«أنت عينك فارغة وأصلك غلّاب. كنتِ جثة عند عليّ يا عزيزة. غرقانة بلا سؤال من واحد. تطفو لمّا يعلو صوت عليّ على حريمه في أي عركة. خناقه مع أهل بيته كان المهماز الضارب في جنبك للجري. لكن مع بلوغك الاستحالة؛ كان سُبابُه وعصبيته بابك للضحك وللنيْل في سرِّك من المحتوية، وقت لطلوع الشماتة بعد موت الأمل».

كان يخرج في نبرتها غضب مكتوم، وعزيزة تقف، تنكفئ وتتنقل على أربع، تروح وتلصق شفتيها في قدم درية؛ تختفي وتنطلق دموعها. كانت تُقبّل في امتنان يحاول أن يزيح التوتر، لكن المحاولة -وعلى العكس- سمحت لغضب درّية أن يطلع من ساتره.

زعقت درية: «كنتِ هناك في طوع لقمة العيش ومكان للنوم يا عزيزة!

أنت الآن صاحبة بيت، وصاحبة كلمة فيه. وحتى لو كان الحمار لا يعوز العيال، لكن الحمار ونس أنا منه محرومة. ونسي أخذه مني علي أبو لبدة، أجبرني على تركه. حتى وعليّ هناك، هو الغالب».

كانت درّية تصفق على فخذها في يأس وغيظ، وعزيزة تحت، تمطّ جسمها، تبسط بطنها فوق الأرض، تستكمل بقبلات رقيقة متتابعة على القدم، تحاوط عليها من أطراف الشفاه كنقر عصفور للحَبّ، بتمهّل وفي سكينة، تنتقل رويداً إلى جسم درّيّة حتى تهدأ.

*****

كانت غرفة الخزين غاطسة في ظلام. والزمن يتذبذب على درّية المتكئة إلى الجدار وهي تمدّد ساقيها وتسند رأس الحجر على الفخذ. كان الحجر يتكوّم على الأرضية الترابية بين زكائب وجرار وسيقان بوص متناثرة، مع روائح مختلطة تهيمن عليها رائحة مخلفات دواجن خلال وسطٍ رطب ومكتوم.

ربتت درّية فوق رأسه، تحسّست رموشه الطويلة والغزيرة فوق طبقات أجفانه، وتنقلت على عنقه الطويل وجلده النابت بوبر، امتدّت نحو ظهره البارز بنتوء هرمي، قبل أن تتناول راحته المتبدلة إلى وسادة عريضة من دهن تغلفها طبقة جلد سميكة مع شقّ غائر عند المنتصف.

وبالرغم من اعتيادها على رتابة عالمها (وهي الرتابة التي انكسرت خلال واقعة البدل وما ارتبط بها من أحداث) وسخطها على إيقاع الأوقات التي تمرّ بلا اختلاف ولا تمايز وكأن أيام العمر نُسخ متماثلة عن يوم واحد، إلا أن الساعات التي قضتها في الغرفة تلك الليلة قيد الانتظار لتنفيذ مخطط جموح، كانت تتأرجح بها في قسوة وبلا اعتدال بين البطء التام والسرعة المُقبضة. كانت وفي لحظات، تستعجل توغّل الليل ودخول الناس إلى النوم كي تنهض من حبستها وتطلع خارج الغرفة، وتحسّ بالوقت مثل سكّين ثَلِم على الرقبة، بينما وفي لحظات أخرى، كانت تعيد ترتيب مخطّطها في الخيال ومراجعة الخطوات؛ وتحس حينئذٍ بسرعة الوقت وانفلات الساعات، مع دقّات قلبها المندفعة بخوف وعرق

يتصبّب، ينزويان بها إلى التفكير في التراجع عما عزمت عليه، لولا اللهفة على تناول الفرصة وهبوب خيالات من أملٍ ضبابي.

كان الزمن على درّية بطيئاً في العادة، وأفعالها اليومية مثل تيّارٍ ضعيف يمرّ في فتحة ضئيلة بين صخور الوقت؛ تستهلك أغلبه في أعمال البيت وفي مساومات باعة وفي المسير وسط بيوت عفنة وعشش مرصوصة على حافة المصرف، في خطوة شائخة ومستسلمة لملل حاكم، غير مندمجة مع أحد، وحيدة في وسط جيرة وأقارب مُفترضين، تمرّ وتجلس ساعات معهم وهم يحتسون القهوة قدّام البيوت وفي شوارع ضيقة، قذرة ومغطاة بماء عطن أمام كوانين وأوعية صدئة، وهم يتعاطون حكايات قديمة عن الذكريات وحبال النسب الشريفة الممتدة إلى ركام غابرين، في محاولات تذكّر مختلَطة وبروايات متعددة، ويتعلّقون ببعضهم من خلال افتراضات البطون وسلسلة الأفخاذ كما فعل أجدادهم من قبل، تعلّق واه وممسوح الكرامة، موجود ليمنح المُعدم فيهم الفرصة لطلب ملوة قمح أو ربع كيلة من مُعدم آخر وهو يتمسّح بصلات الرحم، أو لإنهاء خلاف قذر حول كومة زبالة مرمية كغيرها أمام الأبواب. هكذا عرفتهم درّية؛ بعيدين في الاستخدام عن أجداد وأصحاب صولات قدامى، وهي تظن أن الفارق يكمن في ثقة القدامى التي لا تمسّها شائبة في صحّة المعرفة بحبال النسب وتجميعة البطون، واستخدامها لشدِّ أواصر القبيلة في وقت الجدّ كما في بسيط اليومي، حينما كانت الحياة منقسمة بين أولاد جبل والصحراء الواسعة ولا ثالث غريم. أمّا الحاليون، فقد كسّرهم الاختلاط والتعلّق بالأرض والحكومة، وأكمل عليهم خليل أبو لبدة، أكثر ما ضيّعه خليل عليهم هو القدرة على الثقة، كلّ شيء فيهم صار مهتزّاً، يكفي أن يتعرّف النفر فيهم بالكاد إلى ولده بعد ضربات النهار ومذلّة الكدّ، ويترك مسألة

النسب وتحرّي البطون لغيره من مالكي القدرة على نظافة الهِدمة ومكان النوم. كلّ شيء على حافة المصرف في عينيها عَفِن، والذكريات المحكية تذكير بالعفن، حتى الضحكات حول المواقد في الليل تخرج مثل فرض، بلا يقين في طرافة الدعابة، تخرج مثل حتمية التبرّز، نقطة في دورة مرسومة بلا مساحة للخروج عليها. وحتى إبراهيم، المدلوق من البطن نفسه، والوحيد الذي تثق تماماً في مَدّة الحبل بينها وبينه، شبّ وتعلّم الغياب، ولم تعد له بالأم التي يتلهّف على طعم طبيخها، وسرَحان أصابعها في خصلاته قبل النوم، وكأنما اكتفى بما أخذ منها وشبع. ولا واحد بقي على حجرها غير سيّد بن عزام، حتى بطوله وبعرضه، يغيب ويغيب ثم تندلق به الأسباب على فخذها.

تذكرت أول مرة لسيد في الغزالة، يومذاك كان يدهن ما بدا من جسمه بطبقة من طين أسود، يربط حبلاً حول خاصرته ويعلّق عليه عصا خشبية، يسرح بين بيوت جبل ويردّد سيرة بني هلال بالحرف كما تناولها من المنشد، يتمثّل شخص أبي زيد ويقف أمام درّية في الشارع الضيق ويدعوها الجازية، يتغزل فيها بكلمات بعيدة عن وعيه تبعث على ضحك صادق، يسألها عما سمعه حول نسب جبل إلى الحجاز، وتوطّنهم الصحراء من قبل مثل قبائل بني هلال. يومذاك كان عزام يلحق بسيد، يوسعه ضرباً ويغطس به في التفريعة القبلية لتزول آثار الطين. يتبدّى عزام في هيئة المتوجّس، يدمع في صدق وهو يردّد أن الولد حيلته من الدنيا والناس تستكثره عليه والعين مسّاكة. كان سيد سبباً لتعب الرجل، يرغب دوماً في لفت الانتباه وتناول بؤرة الاهتمام بنباهته المبكِّرة، بعكس عزام الذي يريد المشي في الحائط ويصعب عليها حاله، بالرغم من ملامتها له في عنفه مع الولد.

كان الفجر يأزف ودرّية تنهض في اضطراب وتأخذ طرف الحبل المنعقد حول رقبة الحجر، تطلع من البيت في حذر وتزيل الكمامة من حول فمه وهو يرغو في تتابع وبضجّة بارزة ترتعب على إثرها، تهشُّه وتنفلت به مسرعة صوب التفريعة القبلية، تتركه لبرهة يمطّ خلالها عنقه وينهل قبل أن تتناوله ثانية وتغور في الشرق.

ومثلما رتّبت؛ كانت تصل إلى جامع البلد في الشرق، قرب بيوت أبو لبدة، تتوارى وتنتظر الأذان ودخول الناس إلى الصلاة. وخلال الأسابيع المنصرمة؛ مشت درّية في الطريق نفسها والتوقيت ذاته عدة مرات، لكنما وحدها من دون سيد، وفي يديها قلل ماء مرغت شفاه سيد حولها عدّة مرات، وغمست ريقه في محتواها خلال تجارب أخرى، لكن تلك المحاولات لم تفلح في نيل مقصدها.

وبينما تختبئ خلف جذوع الأشجار وفوق أرض ليّنة عند النهر شرقي الجامع؛ كانت تشجع روحها على الاستمرار فيما نوت ببزوغ أمنيتها من الخيال، وترى علي أبو لبدة وهو يشرب من تحت ريق سيد، تأخذه العدوى مثل رجال المناجاة، ويتحوّل إلى جمل مسالم أو حتى كتكوت وهي راضية، تقع عنه الثياب والأبّهة والاعتبارات، ومن ثم، يرتمي بكامله في أحضانها ورعايتها، أو حتى تذوق قربه ولو على فترات متباعدة وخلسة وهو بغير إرادة. انسلتت إلى بيته أكثر من مرّة وصبّت من القلل التي تحمل ريق الحجر في كلّ زيرٍ ومورد شرب. انتظرت ولم يفِ عليّ. وما بقي لها إلا أن تأخذ الحجر في محاولة أخيرة إلى داخل البيت.

كانت تتأكد من دخول أفراد لبدة إلى الجامع. تشاهد عليّ وهو بين حلقة من رجاله، يسيرون في نظام وبتثاقل آثار النوم. تسرع بسيّد إلى الجهة المعاكسة، نحو بيت علي المتروك بلا حراسة. تدخل وتدور بسيّد في حذر

على الأزيار بين طابقي البيت، وتترك له فرصة تلويث الخزين ودهس الأطعمة في المطبخ. كانت المحاولة تستهلك وقتاً أكثر مما خططت له ومما اعتادت خلال المرات السابقة؛ وهي تجرجر سيّد وتحوش حول فمه براحتيها في أحيان.

كانت توشك على الانتهاء وهي تدسّ وجه الحجر في زير ملاصق للسلّم الخشبي في باحة البيت، مُستنفَرة، والاضطراب مع توقّع انتهاء الصلاة يشعلان الحواس. تفاجأت بخبط خفيف لآنية، وبصوت أقدام يطلع من الغرفة الغربية حيث خدم البيت؛ كانت تُفلِت حبل الحجر، تداري ملامحها بالطرحة وتهرول خارجة من الدار مثلما خطّطت في حالة ما تعثّرت بواحد من أهل البيت، تتمتم بـ «يا ربّ» في إيقاع متسارع مستغيث، وهي ترجو إفلات الحجر من الأزمة هو الآخر، مسكّنة لضميرها من وقت ما رسمت تلك الخطة البديلة، وهي تفترض أن أقصى ما يمكن أن يواجه الحجر هو ضربات من عصي تدفعه إلى المناجاة مرة أخرى.

كانت درّية تسمع رغاء الحجر يعلو وهو يروح خلفها لكنما بخطوات أثقل غير قادرة على اللحاق. وتسمع آهات دهشة من صوت طفوليّ تنبعث أمام الكائن النصف جمل والنصف إنسان، وخطوات صاخبة تحاول الإمساك بسيد وتناول الرسن. كانت درّية تتلفّت ولا تجد وراءها تابعاً؛ تلتقط النفس وتتوقف مرتبكة في الظلام، على مسافة من العتبة المنبعثة بنور شحيح. ودرّية مغطاة في سواد الثياب والليل، تشيح بذراعيها بإشارات عصبية مخنوقة وتحثّ الحجر على اللحاق بها بأصوات مبهمة. وترى جسماً لطفلة تتواثب وتحاصر مراوغات الجمل الحائر في زوايا الباحة. كانت تشاهد البنت في وضوح كلما اقترب الجمل وحاول عبور العتبة، ولا تلاحظ أحداً مع الصغيرة؛ تنوي أن تتشجّع للذهاب والأخذ بزمام

سيّد، بينما لهجة البنت تحمل ارتباكاً ومحايلة لأخذ إجابة، وكأنما ترغب في التودّد واللعب. كان سيد يتخطى العتبة، يتراجع بظهره إلى الخارج والبنت قباله، تمسك الرسن وتجذبه من جديد إلى البيت، وكلامها يصل بوضوح إلى درّية وهي تقول: «أنت اسمك ايه. أنا اسمي عزيزة. عزيزة بنت محمود القمّاح».

*****

في غرفة النوم وأمام مرآة مستطيلة معلّقة على الحائط قبال السرير، وقف علوان في الفراغ ما بين ظهر السرير والمرآة. كان يعاين هندمة ثيابه، يتأكد من جودة الكيّ وزوال الثنيات والتجعّد، يشد أكمام الجلباب الرمادي، ويضغط بأصابعه على خيوط نافرة في الحواف المطرزة لعباءة رمادية داكنة، يعدّل من وضعية شال صوفي من درجات اللون نفسها على الكتف، ثم يرجع بظهره خطوتين إلى الوراء لمعاينة كامل الجسم في المرآة. كانت المرآة مؤطّرة بأربعة صفوف من زخارف حديدية مذهبة ومتقشرة في بعضها، معمولة على شكل ورود متلاحمة، في كل وردة خمسة أشكال بيضاوية تمثّل بتلات تحيط بدائرة كبيرة تشبه التخت. وبينما غطت طبقة من غبار خفيف على الزخارف الحديدية، امتلأت النقط الغائرة في أشكال الورد ببقع سوداء لأوساخ متكومة.

همس علوان: «تمام». مضت عيناه ووقعت فوق بقعة شبه دائرية على الجدار قباله، بمحاذاة الضلع الأيمن للمرآة، ناتئة وخشنة، بلون أسود مغاير للأخضر المسيطر على بقية الجدران. التفت من جديد إلى المرآة، واقترب حتى كاد وجهه أن يلامس السطح المشوب بخدوش وأوساخ. دقّق في تجاعيد ومنحنيات تأكل في الجبهة، وكرمشات الجلد حول جفنيه. مسّد بالأصابع على الجبهة وحول الجفنين عدّة مرات، ثم عصر اللغد المتدلي في معاينة لحجمه، قبل أن يضغط بيده على أسفل الفكّ وكأنما يحاول دحر اللغد وإذابة الترهّل وهو يرفع ذقنه عالياً لشدّ الجلد على الدهون.

حافظ على ذقنه مرفوعاً بينما يضيِّق عينيه وينظر إلى القطع الحديث في أعلى صوان أذنه اليمنى. مدّ سبابته وملّس عليه في تقزّز وضيق، وصدّر جانب وجهه إلى المرآة وهو يأخذ ببؤبؤي العين إلى أقصى اليمين. كان القطع بحواف متعرّجة وفراغ جزء مبتور. ضغط صوان الأذن على جانب الرأس، وشدّ شعرات من أسفل الطربوش في محاولة للمداراة على الجزء المقطوع. كانت الشعيرات في جانب الرأس قصيرة وعلوان يجذبها بقوة إلى أسفل ويرفع الصوان بالإبهام إلى أعلى.

كان يتطلّع إلى وجهه في عدم رضا، يبدو عليه يأس وقلة الحيلة، وما لبث أن انتزع الشال من فوق كتفيه ورمى به على الأرض في حركة سريعة وهو ينتر أطراف العباءة بعنف، ثم يقبض ويشدّ حافتها المطرزة إلى أسفل ويُرخي عدّة مرات كأنه يريد قطعها. كان يزمّ شفتيه لبرهة، يتسمّر وهو يكرمش حواف العباءة بين قبضتيه، ويتطلّع إلى وجهه قبل أن يمدّ أصابعه ويدعك بقوّة في سطح المرآة المتسخ، يقترب أكثر بوجهه من سطح المرآة، ثم يلتفت إلى البقعة على الجدار، يبصّ في ضيق وينفخ. ملّس على وجهه براحتيه، ثم انحنى والتقط الشال وساواه على الكتف وساوى أطراف العباءة من جديد. ابتعد عن المرآة بمسافة متر ثم أطلّ فيها، رجع ثانية إلى الوراء عدّة خطوات حتى لامس ظهر السرير. وقف يتطلع إلى نفسه. أنزل شعرات على القطع لكنما برفق ومكتفياً بما أمكن، مسح على الجبهة بحافة السبابة وهمس ثانية: «تمام».

أطرق برأسه وأطلّ على قدميه وعلى الغبار حول حذاء بوكسكاف بجلد أسود ونعل كريب. نظر إلى مدخل الغرفة وندّه سميرة بصوت مرتفع وحادّ. خطا إلى مقعدين في الركن على يمين المرآة. نفض قماش المقعد بعدّة لطمات من يده وجلس عليه قبال الباب المفتوح. دخلت

سميرة إلى الغرفة بخطوات سريعة متمايلة، وخلفها الأولاد الثلاثة. أشار علوان إلى الحذاء وهو يمدّ ساقيه؛ وانحنت سميرة على صندوق خشبي ملاصق للجدار المنصوب فيه الدولاب وبجانب مدخل الغرفة، رفعت غطاء الصندوق وانهمكت في التفتيش فيه، ثم أنزلت الغطاء وراحت إلى رفوف سفلية في الدولاب، أكملت التفتيش فيها حتى عثرت على علبة ورنيش أسود، استدارت على الركبتين ومدّت ذراعها إلى أسفل السرير، وقامت عائدة بعلبة الورنيش مع فرشاة خشنة وقطعة قماش ملطخة بآثار من الورنيش الأسود. تربّعت على الأرض قبال علوان. تناولت الحذاء من قدميه ووضعته في حجرها وبدأت في تنظيفه. كان الولد أحمد واقفاً بجوار سميرة، بينما قفز واحد من الصغيرين إلى الكرسي المجاور لعلوان، وجلس الصغير الآخر على الأرض ملتصقاً بسميرة.

ابتسم علوان للصغير الجالس وقال بينما يومئ برأسه في رضا: «القط الصح ينط ويأخذ الكرسي الوحيد».

التفت إلى المتربّع في حضن سميرة: «وأنت كالغنمة في ذيل أمك مطرح ما تروح».

كان الولد يرفع جلبابه، يمدّ ذراعه من تحتها ويهرش بقوة في جانب مؤخرته، ثم يسحب يده ويمسح أنفه السائل بمخاط؛ بينما ينظر إليه علوان في قرف قبل أن يشيح بوجهه إلى الآخر القاعد على الكرسي.

مدّ علوان ذراعه إلى الولد الجالس وشاله من فوق الكرسي ليقعده في حجره. كانت البلادة تنجلي من وجه سميرة، يبدو في عينيها تأهّب، جذعها مشدود ويتقدّم كاستعداد لانقضاضة.

سأل علوان: «تمضغ في ماذا؟». ابتسم الولد، توقف عن تحريك لسانه داخل فمه، هرش الجبهة بحافة السبابة وهز رأسه بالنفي. أطبق

علوان بأصابعه على جانبي فكّ الولد وأدخل إصبعه في الفم، أخرج قطعة ناشفة من طمي مكوّر وقذف بها من الشبّاك على يمينه. قال في ودٍّ لائم: «ولا شيء يا قط!». التفت، أمسك ذراع الولد أحمد، أخذه ليُجلسه على الكرسي المجاور. «تعال أنت اقعد جنب أبيك. أنت خلاص تحلّ محلّي». كانت سميرة تُلبسه فردة حذاء بعدما انتهت من تنظيفها، تمدّ يدها وتهرش في أسفل ظهرها للحظات قبل أن تتناول الفردة ثانية. قال علوان: «خذي من طيزك وشمّي يا وسخة». التفت إلى الولد في حجره، سأله: «صلّيت الصبح؟». حكّ الولد حافة السبابة في الجبهة وأومأ برأسه، شدّ علوان يد الولد من فوق جبهته. قال: «لا تعمل هذه الحركة مرة ثانية». كان تدليله للولد يختفي، يُثبّت ذراع الولد إلى جنبه ويمنعها عن الحركة، ينظر إليه في غضب، وتتراءى له ذكرى بعيدة لمحمد القط وهو يحكّ بالأصابع في الجبهة خلال مواقف عديدة، لكنما ومن بين تلك المواقف، تنهض ذكرى غارسة لمحمد القط وهو يجلس مع العيال حول المائدة للعشاء في ليلة بعيدة، ويدعك في الجبهة بالأصابع. والغريب، أن حركة محمد القط تلك لم تُستأنَس في ذهن علوان إلا بعد الملاحظة على الولد الصغير، ولولاه لكانت طيّ النسيان بكل ما ارتبط فيها، ولاحتفظ به علوان تحت بند القضاء والقدر. أكمل علوان وهو يلتفت إلى أحمد: «طبعاً الشيخ أحمد أول واحد يصلّي فيكم». خفض بصره إلى الجالس جوار سميرة: «وأنت ابن فتلة مثل أهل أمك، لا يهمك صبح ولا ظهر ولا يحزنون».

كان علوان يتأمل العيال، يقف عند الولد الكبير ويحتار من انعدام أي صلة بينهما، بل وانعدام الشبه بسميرة أيضاً وكأنه لقية. أما التوأم، فكان يرى أحدهما نسخة من علوان بينما الآخر نسخة لسميرة. وبالرغم من إلصاق علوان لنسخة سميرة بالعيوب، وتأويله لكل حركة من حركات

الولد الصغير بالمكر والشر والغباء مع الإرجاع إلى سلسال الأم كأحد منافس كراهيته، إلا أنه وفي المقابل، لم يملك المحبة الأكبر لنسخته، بالرغم من الاحتفاء الظاهري بشبيه محمد القط في كل لقطة للولد.

كانت هيصته الفرحة بنسخة القط كثيراً ما تُقطع بنكز لإفاقة على تلاعبات قديمة، مرت عليه وتعاد في الولد، مُلامِسةً لمناطق حساسة ومطوية في نفسه، كاشفة الستار عن بدايات مساوئ متضخمة مع مرور الزمن وفي تلك اللحظات خلال تصرفات علوان نفسه. ومع حفاظه على التجاهل لامتدادات عيوب الولد، والمعلنة عن روحها بقوة في جسد علوان، إلا أن إدراكه كان يعمل ويستخدم تلك الامتدادات بشكل آخر، حينما يُضخِّم من نقائض شبيه سميرة، ويتخيّل المسكوت عنه في سميرة وفي أهلها من أقل تصرفات للصغير، يستكمل سدود الكراهية وتغذية إحساسه بالغبن لاحتماله ما لا يوصف من كرب. كانت شفقته على شبيه سميرة تحلّ مكان الحب، ويودّ لو أنقذ الولد بتصفية دمه من المشابهات بينه وبين المجنونة وأهلها، إلا أن تلك الرغبة كانت تقود إلى عنف، والعنف يدفس بالولد في أحضان سميرة أكثر.

كان علوان يطلُّ في حِجره على شبيهه، ويدرك بعد انقضاء الزمن سبب فشله في خداع محمد القط ولو مرة واحدة؛ ويعرف أن انبهاره بقراءة أبيه لأسراره وكشفه لدواخله ليست عن فراسة، بل هو استنباط لناتج تماثل الأجزاء في ماكينتين متطابقتين حتى في الخدوش وآثار الاستخدام. كان يذكر اليوم الذي حاول أن يتملّص فيه من رعاية الأرض الغربية، واقفاً أمام القط يعدّد الأسباب كحاجة الأرض الشرقية إلى رعاية أكبر، وكقلة قيمة محصول الغربية مقارنة بباقي الأراضي، والقط قاعد أمامه على الكرسي، وخلفه رفوف مليئة بالكتب والجرائد في الغرفة العلوية التي كان

يستخدمها للقراءة، وهي الشيء الذي لم يأخذه علوان من القط، بالرغم من محاولات أبيه لدفعه نحوها ولو بالضرب في أوقات. كان محمد القط يميل بجسده إلى الأمام ويسند كفّيه وذقنه إلى رأس عصاه المرتكزة على الأرض، يتفرّس في وجه علوان الثابت ثم يغمض عينيه ويهزّ رأسه على العصا في خفّة كأنما يسمع مزّيكا، وما إن انتهى علوان من الحجج حتى همس القط في تنغيم وكأنه يغني والابتسامة على شفتيه: «كاذب وكسلان يا حبيبي. تلعب على القط! يا ولد أنت شخّتي. تنهض في الصبح وترمح إلى هناك، ولا أشوفك في الدار إلا بعد العشاء».

وخلال عمر علوان، كانت تلك المطابقات والتشابهات بين الولد والأب قد مرت بمراحل مختلفة؛ في الطفولة، صاحبها انبساط من علوان حينما يشير إليها واحد، فيأخذها علوان كدليل على رجولة ونضج، واقتراب من مثالٍ عزيز، ثم صاحبها تمرّدات المراهق للخروج من إطار الأب وتكوين أرض جديدة لشخصية تحاول الاستقلال وبناء نموذج مختلف، ولم يكن لذلك علاقة بسقوط الأب في نظر علوان، لكنما هو محاولة لصناعة اختلاف مع إحساس زاهٍ بمواهب قادرة على الفعل. والآن، وبعد المرور على شفرة الزمن، كان علوان يستسلم لتلك المطابقات بالرغم من إحساسه بجبرية تتحكّم في الحركات والأفعال، جبرية مصنوعة من دماء القط، وكأنه عروسة قش بخيوط ما زالت تتحكم فيها أيدي محمد القط من العالم الآخر. وصحيح أنه وصل إلى التعامل معها باعتيادية لكنما هي غير بريئة، لأنه كان يغذّي روحه في المقابل بقناعات عن سموّ منبته وطيبة أصله، خانقاً في داخل عقله سوءات بذوره، بغرض الحفاظ على ذلك الخيط من الرضا، الذي لا ينقطع إلا في لحظات الإمساك بتشابه ردود أفعاله وملامح وجهه مع مثيلتها لدى القط الكبير، في وقت ملامسة نقيصة في تصرفاته أو

الإقدام على فعلٍ مشين. كان علوان يغور في ذاكرته، يستشفّ حضور تلك الخصلة المعيبة في الماضي من خلال تصرفاته الحاضرة، ولا يتحرج من أوراقها الهفهافة والضاربة في وجهه خلال الوقت الراهن، قدر ما يندهش من انطواء تلك الخصال في البذرة المدفونة، ويستكبر الفعلة على ذلك الجبل البعيد، المشهود له بتمام الهيبة والكمال، مع لا تصديقه لأي إشارة إلى الميلان. ومع أن اللحظات المنغّصة كانت مباغتة ونادرة الزيارة؛ إلا أنها كانت تخلِّيه في حالة إنكار؛ يبدأ من الشكّ في اختلال الذكرى، مع محاولات انخلاع سريع من التفكير، ويمكن أن تروح به إلى النفي التام لتشابه الحركات بينه وبين أبيه؛ في سبيل إقصاء السقطة عن القط.

كانت سميرة تدسّ قدم علوان في فردة الحذاء. أطلّ على الحذاء وهو يمدّ ساقيه، اعتدل، رفع قدميه وخبط بهما على الأرض عدة مرات متأهّباً للقيام. بدا في ملامحه أنه تذكّر شيئاً؛ التفت إلى أحمد، مدّ يده إلى دوبارة كتّان مربوطة حول عنق الولد ومعلّق خلالها قمع شجرة بلّوط بلون بنّي فاتح ورأس مُخضرّ. شدّه بقوة جاذباً معه عنق الولد حتى انقطع الحبل. كوّره في كفّه ورماه في وجه سميرة. قال: «بلح الغيرة للعيال، وأحمد علوان القط هو رجل المناجاة في غيابي. أحمد علوان يلبس فتلة مثل الغجر! ومن يلبس المعدن! سأحضر لك خاتم فضّة من المركز».

كانت محبّة البكري ودوماً هي الغالبة في قلبه، تدفعه إلى محاولات العثور على تشابهات في الشكل أو الحركات للقطط، ملقية به أحياناً في تخيّلات بعيدة لإيجاد رابط صفات غير موجود. وربما كان جمال الطلة ومديح الناس لسيرة الولد، المستقيم والدؤوب على حفظ كتاب الله، سبباً في تمنّي الإمساك بذلك الخيط الواصل بينهما. كانت تأويلاته ومحاولات رد الأفعال إلى نسيج القطط تقوم أمام محاسن الولد كخيط ملضوم في

إبرة تنغرس في قماش سميك ومعيب، تُطرِّز بصعوبة وعلى مهل، وتنقر في أحيان أصابعَ الخياط بغشم، مُدمية روحه بلحظات من إفاقة على البعد، وعلى فارق التصرفات، لكنه يستكمل تطريز الحواف بهمّة مُجمِّل لقماش مُلقى على عاتقه من أجداد غابرين، بينما وفي أول بادرة لاصطدامه بتصرفات من شبيهه الصغير؛ كان يدرك أن الإبرة التي استخدمها غشيمة (بلا خرم وبلا خيط موصول)، وأن نقراته في القماش كانت زيادة من التشوّه واستحضار العيوب. وعلى الرغم من أنه وفي لحظات، كان يسحبه تيار خفيف من التفكير في تضليل حاصل؛ ويُرجع إمكانية جمال الولد في عينيه إلى عدم وجود مشابهة، عاينها علوان في السابق، ليكتشف من خلالها خفايا ونقائض البكري أحمد.

كان علوان ينهض من الكرسي، يتناول عصاه من الدولاب ويترك الغرفة، ينزل فوق الدرجات. وسمعتْ سميرة صياحه وهو ينادي أم عبده ويسألها عن فاطمة: «ما أخبار المبروكة؟».

أجابت أم عبده: «خرجت من الصبح يا سيدنا».

«قولي لها لمّا ترجع أن تترك الجمل بلا علاج بدل اللف وراءه، الدنيا لن تخسر إذا بقي سيد الحجر جمل، أبوه نفسه كان حمار. وانصحيها أن تنسى مسألة الزواج. وقولي لها عيب أن تدور وحدها في البلد طول النهار مع الحجر. وعيب أن تغرق في التباهي بالبركة، وبحلِّ عقدة البلد، وبصفوف المقاطيع المرصوصة على الباب. تكوّمهم حوالي البيت لا عن حب فيها، لكنه كيد في علوان. قولي لها أن الولي يتستر على ولايته كما تتستر المرأة على الحيض ليحتفظ بالبركة. علّميها. لو كان محمد القط حيّ لقطع خبرها ولو كانت نبيّة مُنزلة من السماء. المشكلة إني صاحب قلب. أنا رائح على المركز ليومين وراجع في الثلاثاء».

كانت أم عبده تجاوبه بإيماءات متتابعة تشير إلى الفهم وإلى صواب رأيه، تردّد «حاضر» في إذعان بين الفواصل، تصاحب طلوعه بدعوات للرزق وللسلامة بينما يغادر البيت باتجاه المحطة.

بينما بقيت سميرة متربّعة بلا حراك، تسمع نثاراً من كلامه مع أمّ عبده، مصحوباً بنقرات عصاه فوق العتبة خلال ذروات انفعاله، وبعدها ومن خلال الشباك، تلاحقت تنبيهاته على البرج باستكمال التفتيش عن حيوانات مخفيّة في بيوت المناجاة وزرائبها، ومن ثم ذبحها وإحراقها بحرص في الخلاء. سمعتْ أنّات لخشب عتبة الكارتّة من تحت جسمه الطالع، ورنّة الجرس النحاس المربوط في رقبة الفرس مع لسعة السوط، ودقّ الحوافر المبتعدة فوق الأرض الحجرية. وعند ذلك، انتزعت الولد الكبير من فوق الكرسي وأخذته في حجرها، تناولت الدوبارة، وبأصابع مرتعشة عقدتها ثانية حول الرقبة.

قامتْ، بدت كحبّة كمّثرى مقلوبة؛ بصدرٍ عظيم وعجيزةٍ باهتة، مع أطرافٍ رفيعة تبدو مثل خيوط مُنَسَّلة من تناسقٍ مُضحك. لملمت العيال في يديها، راحت إلى غرفتهم، وهناك، فتحت الشباك وتربّعت قباله، خلعت الجلابيب عن الأولاد. كانت تُوقف العيّل تحت النور المنسدل من الشباك، تقلّب وتدير فيه، تتفحّص الجلد بدقة، تتحسّس وتضغط العظام واللحم، مُبديةً ملامح انزعاج ضخم مع أيّ بادرة لتغيير في لون أو خشونة في الجلد تحت كفّيها، ومع أن تحسّساتِها، كانت تتخذ -وفي لحظات لا واعية- منحىً فضوليّاً فيه استكشاف وأبعد من اطمئنان. ألبستهم الهدوم. حطّت كلّ ولد في سريره. أشعلت فتيل مصباح معلّق على ارتفاع رأسها في الحائط المجاور للمدخل. أغلقت درفتي الشباك، ثم أمسكت بجانب دولاب خشبي منصوب بمحاذاة الشبّاك، وبعدّة دفعات من الأيدي

والكتف كانت تزحزح الدولاب إلى ما أمام الشباك. كانت قواعد الدولاب تُصرّ في بلاطات الغرفة، ومع حلوله، كانت الغرفة تضجّ بانفقاع ناتج من تخلّي المسامير عن الجانب الآخر من الدولاب، الذي سقط في ضجّة ومال قبل أن يستند على الظهر المعدني لسرير الولد أحمد. دارت مفزوعة تعاين سلامة العيال، اطمأنت، وبعدئذٍ رفعت اللوح، ودكّت فوقه براحة يدها لتثبيته في محلّه، قبل أن تنزعه ثانية وتحمله خارج الغرفة. جلستْ على طرف الفراش في لهاث استمرّ لدقائق. غادرت الغرفة، عادت بإبريق زجاجي، وصبّت منه حليباً مخلوطاً باليانسون في أكواب. سقتْ منه العيال. لفّتهم بالأغطية. أطفأت المصباح. كان العيال مستيقظين للتوّ من نوم الليل وبعيدين عنه الآن، إلا أن سميرة قضتْ على المعاندات بالتحايل وبالشِدَّة في لحظات، حتى انتظمت الأنفاس في نوم جديد.

خرجتْ. أغلقت باب الغرفة بمفتاح معلّق في خيط حول رقبتها. نزلت الدرجات، واتجهت يساراً إلى المضيفة، قعدتْ على الأرض قبال أم عبده المتربّعة فوق كرسي وتنقّي الأرز في صحن واسع محطوط في حجرها.

سألتْها أم عبده: «راحوا في النوم؟».

أومأت سميرة وهي تدسّ يدها في جيب الجلباب وتخرج منديلها المهترئ، والذي بهت وأضحى بلا أيّ ورود ظاهرة.

أكملت أم عبده: «لكنهم صحوا من وقت قليل يا ست سميرة! كنت خلّيهم يلعبوا. العيال تأكل وتنام طوّالي ولا تشوف الشمس».

كانت سميرة تفتح المنديل، تأخذ منه كومة من بذور خروع مقشورة، تسفّها دون مضغ. قالت: «أحسن لهم».

انحنت أمّ عبده، اقتربت من وجه سميرة، همستْ: «البذور لا تؤخذ بعد كل مرة، هي واحدة كل ستة شهور وكفاية لمنع الحمل».

كانت سميرة تغيِّر مجرى الكلام؛ سألت: «ما أخبار ابنك عبده؟».

هزّت أم عبده رأسها كعلامة رضا بالحال «دوخت به يا أم أحمد، لكن الحمد لله كنَّ في البيت. الولد كان يغيب بالأيام وساعات بالأسابيع ولا أعرف له مكان. ورحت به إلى شيخ اسمه وحيد له عشّة بين المدافن في النخاس عندكم، قرب مكان الحاج والحاجّة. رجل مبروك ودلَّنا على مكان العمل، لقيناه معلّق في نخلة، كلما هزّ الهواء سعفاتها تأرجح العمل، فيشتّ معه عقل الولد. أخذت شوال قمح وأعطيته للشيخ مع العمل وبوست يده. حرق العمل أمامي وقرأ عليه، ولفّ رماده في حجاب وأوصى بحطّه تحت مكان نوم الولد. رجل صالح، وربّنا أوقعنا فيه لأني لوحدي. ولا واحدة من أخواته تسأل فينا بعد الزواج، وكأن النخاس في القمر. لكن لمّا تقع الواحدة في مشكلة؛ تسمعي الخبط على الباب، كأن النخاس على العتبة».

نترت كفّيها كيائس من معاتبة. أكملتْ: «الحمد لله. هو أحسن الآن. طول الوقت في البيت. كنا قبلها في كرب. كان يخلع هدومه ويجري عريان على البحر، يصرخ: «صوتي راح البحر». الناس تمسك فيه قبل أن ينطّ في الماء ويسألوه «أي صوت!». يناولهم عيدان بوص ويصرخ «معي إلى الحرب». فصّلت له جلباب جديد من دَبَلان أزرق حلو والله، وقلت أروح به ونزور الأولياء في الجمعة. لكن الجلباب تمزع بين يدي وأنا أقيسه عليه. كأن جسم الولد سنّ مقص».

كانت سميرة ساهمة طوال الكلام، تمسح بالكفّ على البلاطات، تكوّم أوساخاً وحبّات رمل وتبططها. لكن ما إن أتت سيرة تَمزُّع الجلباب وأمام اعتقاد مجرّب لديها في إحساس الجماد باقتراب الأحياء من التحوّل لجمادات مماثلة بالموت، ومن ثم، إعطاء إشارات صارخة وملتاعة؛

كانت تبعثر الكومة، تنتبه وتقول في تحذير: «الهدوم تحسّ قبل الناس. أحسن بقعدته في البيت».

قالت أم عبده: «الغريب أنه الوحيد الذي لم يتحوّل مع الرجال في البدل. وكلما سألت لا أطول منه إجابة. وسألت الست فاطمة، وقالت يمكن لأنه كان خارج المناجاة وقت الفرّة».

ودَّتْ سميرة لو تستكمل التوصيات على الولد، لكن الكلام انحبس إثر رؤىً بازغة في دماغها، وانسحبت إلى تيار حالها. همستْ في عتاب: «فاطمة تغيّرت ولا تأخذ بالها مني مثل زمان. أنا أقول للفضفضة. لكن من غير زعل وعهد الله».

«معلهش. هي تعبت في الدوران على البيوت وربّنا يجازيها خير. لمّا حكيت لها عن عبده جاءت وزارتنا في العشة، وطلبت مني الخروج أمام الباب، وتكلّمتْ معه لوحدها. ساعتها كنت أفتح الباب على صوتها والباب خبط في سيد ابن زينب وهو واقف على كفوفه ورجليه جار الست. بقي يرغو ويبص عليّ بغضب وهي تحوش رأسه. كنا ما شفناه من زمن. وقلت لها عالجيه يا ست لأنه وحيد مثل عبده وأمّه طيبة وتعبت عليهم. وهي ضحكت وقالت بأمر ربنا».

ابتسمت في كسوف. هزّت رأسها في عجب. أكملتْ: «لا أفهم كيف تتزوجه وهو جمل!».

كانت سميرة في انعزال، استأذنت، راحت شاردة إلى المطبخ، في بداية لحالة متزايدة بزغت في أثناء البدل، ولن تنكسر إلا بعد سنوات وتحت عَجَل القطار. وبينما تَجترّ المشاهدَ لانقطاع الخيط من رقبة الولد الكبير ولانخلاع لوح الدولاب، عجنت دقيقاً مع السكر، كوّرته في قِطعٍ، وأنزلته

في زيت بداخل طاسة على النار، أخذتْ الكرات في طبق مغطّى بقماشة وخرجت إلى حافة السلّان. وفي ناحية خالية؛ كانت تتناول الكرات من الطبق، وتقذف بها واحدةً واحدةً في الماء، تحلف على البحر، وتطلب منه سلامة العيال، في روتين يوميّ صاحبها منذ أسابيع قليلة، في أعقاب رمي علوان للولد الصغير في السلّانة، ولكنه مستمر معها لسنوات عديدة تالية.

كانت ترجع مسرعة من البحر إلى غرفة النائمين، بحلٍّ جديدٍ تضيفه إلى سلسلة الاحتياطات؛ وتلفّ قِطعاً من حبال حول المعاصم وتعقد أطرافها في عمدان الأسِرَّة.

في تلك الآونة؛ كانت روحها تنسحب منها مع سماع أيّ صوت ارتطام أو صرخة بعيدة أو رجرجة فخاريات البيت؛ متوقعة مقابلة الموت في اللحظات التالية. وتأخذ الفُرَص من غياب علوان في سفر أو مشاغلَ لتفرض مزيداً من الاحتياطات على البيت. وما تلبث تلك الاحتياطات أن تنكسر مع أول ارتداد من علوان إلى عالم البيت وهو يصطدم بآثار غيابه وبجبله المتزايد من سوء الحظ؛ ماحية لاطمئنانها اللحظي، ومعيدة إياها إلى نقطة الصفر في دائرة مكررة من تحايلات للنجاة قبال وساوس الدماغ. دارت في ليالٍ وهي تجمع في القلل والفخاريات وكل آلة ذات نصل داخل صرّة قماش وتُسرّبهم على مراحل إلى ترعة السلّان مع طلوع الصبح. عامدت فوق شبابيك الدور العلوي بألواح خشبية مسمّرة إلى الحوائط، تمنع تسرّب النور والخطر إلى البيت. حشت جوالات بالرمل، ورصّتْها مثل حاجز مرتفع على طول الدرابزين الخشبي، ونثرت منها فوق الدرجات وتحت السلم. حرصت على تشمّم وتذوّق كلّ لقمة قبل أن تدسّها إلى جوف أيّ ولد، وهي تراقب تمام عملية المضغ والبلع دون شرقات. أفرغت غرفة العيال من الأثاث، واكتفت بنشر المراتب على طول

مساحة الغرفة. خالطت العيال من خلال كمامة قماشية على فمها، منتبهة لكل عطسة وصوت كُحَّة صادرة في الدار. قضت الأوقات في مطاردة البعوض داخل المنزل، وأصرّت على تحميمهم في غرفتهم، مع المداومة على لبس الجوارب وثياب بأكمام طويلة ومواراة الأعناق حتى أثناء النوم وفي عزّ الصيف.

ظلت تتربّص لانكسار شيء من العفش أو اهتراء قطعة ثياب أو تقشّر لون من حائط أو فساد في أطعمة ومشروبات، تضعه في قائمة طويلة من إنذارات سابقة، تعدّدها، وتهرول وراء استنباط معانيها، وللحذر من دلالاتها بالسعي في إضافة احتياط آخر، تبقى أمامها بلا نوم حقيقي لشهور، نافضة يدها من أيّ حاجة، ومتربّعة على الأرض قبال الأسِرَّة، ساندة نفسها إلى الجدار، وتحت مصباح سهراية في النهار والليل داخل غرفة بلا منافذ، تتسلّى بالخياطة مع غفوات بسيطة، تهرّف خلالها بحوادث تقع في البال، وتقوم وتكبس الأغطية على رؤوس النائمين مع سلسلة صراخ تشير إلى دمٍ منثور. وأمّ عبده تدخل على الصوت، تحوش في اليدين وتهدِّئ، وتطمئن بأن العيال نائمين ومثل الفلّ، تفكّ الحبال عن المعاصم، وتعدّل الأغطية، تطوّق وسط سميرة وتسحبها إلى الأرض، تأخذ رأسها في الحِجْر، تستغفر وتملّس عليها بآيات وأدعية، وتهدهد بأغنيات في صوت عذب يسمح بغفوة راحة.

ومع ازدياد متطلبات الحرص لطاقة أكبر من قدراتها؛ كانت خيالات سميرة (في لحظات وبينما هي غارقة في التماس المحاذير) تجنح إلى رؤية نفسها وهي تتناول رأس الولد الماثل منهم أمامها وتخبطه بقوة في طرف حادّ لخشب الأثاث أو في الأرض حتى تُصفِّيه من دمه. كانت تلك الخيالات تتقابل بانزعاج عنيف، تنزل بها إلى عمق مظلم من بئر ألمٍ صافٍ،

تنتزع نفسها منه ببكاء يطفو بها إلى السطح من جديد. وعلى الرغم من ذلك، كانت الخيالات تستمر تحت ادعاء التجريب لاحتمالات الفقدان واختبار التحمّل لمقدار الألم، وهي تقطع فيها درجة تلو درجة؛ فيتبدّى قعر البئر أقرب بشحيح نور ناتج من المعاودة، والانزعاج كحبل مطّاط يتراخى إثر كل استعمال، تكتسب جوانب وحشية خلال الغوص في الفعلة التي تبدو من السطح كتحدٍّ للذات في أوقات الإرهاق أمام أسوأ احتمالات قائمة، بينما تضربها بروقٌ خاطفة بتجلّي الفعلة كبوابة خلاص أخير، وهي تمتلك -إثر التجريب- القدرة على التملّي في تفاصيل الجمجمة المهشمة والغارقة في الأحمر، مع منظر الفزع الأخير والمرتسم على وجوه أطفالها بسبب الإتيان من اليد غير المتوقعة.

وإلى نهار دخول الأخرس إلى المناجاة ومن خلفه الناس، كانت سميرة تلقمه الحلمة في عنف، وتحشر قبضتها في فمه وهي مهووسة بحاجة متأجّجة لإسكاته؛ مدفوعة بمزيج من أمومة تعافر في تكذيب مصير مرئيّ وحاضر لتحقيق ما تقدم من صراخ الجمادات حول منها، وكأنها تمنعه عن التحقق في حالة -وصحيح أنها عزيزة لكنها- تتيقن أنها سوف تكرّ حالاتٍ أعزّ فيما بعد ذلك أمام معاينتها لتحقّقه في الأخرس، ومع رغبة تالية في الأولوية لكنها أكيدة، في ردّ الجميل وصون عشرة الستّ الطيبة.

وفي الشهور القليلة وفي أعقاب خلو الدار من الستّ المخلصة، كان الخدم يهرعون من كل زاوية، يتكالبون على سميرة وهي تمزّق الهدوم من فوق جسمها، تأخذ أقرب العيال وتهيل فوق رأسه من ماء الزير، تضعه على الأرض تحتها وتقعد فوقه، بينما تدفع رأسه إلى أعلى، وكأنها تريد أن تحشره وتتناوله في بطنها ثانية بعيداً عن مخاوف الدنيا، في محاولات ستدوم من خلال تجربة كميات كبيرة من الماء وبسُبُلٍ مختلفة. ولمّا تيأس

أمام الحجم؛ كانت تترك الرأس وتدور وتخبّط على بروزات الجدران وهي تصرخ: «يا ليتهم كانوا في حيطان». تعود وترفع الولد من الأرض، تضغط جسمه على الحائط كأنما تحاول إدخاله. كان الخدم يخلّصون العيل، ويثبتون أذرعتها إلى الأرض، يتناوبون الإمساك بهيجان مُتفلِّت. وسميرة تمدّ ظهرها فوق الأرض، تكفُّ عن تصميم متخشّب بعد عمل لكمّاشات مؤذية تتظاهر بنجدة، تتسمّر عيناها في السقف، مكتفية بنظرات مرعوبة.

*****

على أطراف الجهة البحرية للخلاء وفيما خلف مقابر المجاهيل، كان سيد الحجر مستنداً بخدّه الأيمن فوق ركبة عارية لطفلة صغيرة من أولاد لبدة. كانت البنت جالسة قباله على صخرة مستورة بالشفة الداخلية لحافة المصرف، في يديها قطعة حلاوة طحينية تقضم فيها بين حين وآخر وتمضغ، وأمامها قضبان السكة الحديد التي تشهد بعزٍّ قديم، بينما الحجر متكئ على ركبتيه فوق مخلفات المصرف، ومن حوله ترفّ يعاسيبُ طنّانة، وتسرح جرذان سوداء ورمادية متمهّلة بنظرات استكشاف، وتتقافز ضفادع مرئية في قاع المصرف المنحسر ماؤه نتيجة لتكدّس النخلات على مسافة من يسار الحجر. وبدت طبقة من الريم الأخضر طافية على السطح الراكد، مع رواسب مخلفات من عيدان بوص وكتل قش وأخشاب أقفاص ونعال مهترئة وقطع من أقمشة وخيش بلا معالم وريش لطيور وبقايا صفيح صدئة؛ كان قاع المصرف ينهض بتأريخ ليوميات الغزالة.

وبينما الحجر يحكُّ صفحة وجهه في جلد متقشف وعظام ناقرة، كانت البنت تؤرجح ساقيها المعلقتين في الهواء بالتبادل وفي إيقاع؛ فتشوط منتصف بطنه بأطراف أقدام حافية، في حين تمتلئ أذنيه بأزيز صادر عن حركات الركبة. سحب كفّه المستند على حافة الصخرة، وحجز بساعده أمام أرجل البنت. كانت التلهية بعيدة على الحجر، وسيطرت على خاطره الرغبة في قتل عزيزة؛ كان يرى نفسه ضاغطاً فوق العنق اللدن حتى نهاية علامات الحياة في العيون، منتقماً من

خذلان غير متوقع، ومعاقباً على سنوات عمر أهدرتها بالهروب. كان مفجوعاً بغيابها المرّ عندما رجع إلى بيته من بين مقابر المناجاة، وهو يشهد خواء البيت بلا حسّ وبلا قطعة واحدة من حاجات امرأته. وظلّت نداءاته تتردّد بلا مجيب وبانفعالات مختلفة بين غضب ورجاء ومذلّة، ترافقها خطوات ساعية ومجنونة إلى محطة السكة الحديد وإلى أنحاء المناجاة وزواياها. ومن بين تخيّلات انتقامه، كان يشعر بجوع إلى تعزية في الغياب، وبحاجة إلى تناول ركبتيها لمرّة أخيرة، فيُرتّب حمل عزيزة الميتة إلى البيت، يضعها على السرير ويكشف الجلباب، ينزل إلى الركبتين بملامات واعتذارات، وبحكايات عن ألمه كانت تخرج منه في صورة همهمات غير مفهومة أثناء لياليه مع عزيزة من قبل، لكنما يستشعر الحاجة الملحّة الآن للإيضاح والإعلان. كانت خباياه تخرج على ركبتي عزيزة في ليالي الألم غير المحتمل لذكريات متأججة بلمسات بسيطة من حاضره، مصادفةً في نفسه شوقاً ومحبةً غالبة لامرأته في التوقيت ذاته، لكنما بوعي منتبه ولا يزال قادراً على تحويلها إلى حروف مبهمة، هاربة من الإبلاغ، ودائرة في بئر التنفيس عن هموم وأوجاع. كانت تحضر في ذهنه –بينما خدّه على ركبة البنت– أكثرُ الحكايات ألماً ومواقف لغبن داهس تلاعب بحياته، ويمسك به الندم على عدم إحاطة عزيزة وعدم إشراكها في دواخله، والظفر بلمساتها الحانية، وردودٍ وكلماتٍ تطبطب أكثر، متخيّلاً الحنان وتجاوب المرأة وتهدئتها لسرّه، شارباً غَرفاتٍ من ذلك التعاطف المُتخيَّل، ومدهوساً من خلاله بالأمل. ومن بين توقعات الحنان تلك؛ كانت صورة المرأة تنهض مثل ينبوع ماء إلى أرض صلدة؛ فيتحوّل قلبه إلى عجينة من طمي قابلة للزراعة مرة أخرى، يدرك أنها ما زالت حيّة، ويهمهم بأصوات عن المسامحة والغفران، وعن الموافقة

على الخروج معاً من المناجاة إلى أرض الله الواسعة، بل وأيضاً يقدّم مذلّته بالرضا عن فكرة إنجاب عيال.

كان الحجر ينهض من فوق الركبتين الصغيرتين، وخلفه سوارٌ برتقاليّ لشفق يحيط بالأفق في الحد الفاصل بين السماء والأرض، وفوقه غيوم متراكمة، وهو يغرس أقدامه في حواف المصرف، مواجهاً الانزلاق في أكثر من مرة، يميل ويمدّ يده جاذباً البنت إلى أعلى، ويخلّفها واقفة وراءه، يمضي إلى الجهة القبلية في خطوات منهكة منغرسة في الرمل، بينما يستكمل الإفراج في هذا اليوم الطويل عن أعوام من خزين البكاء.

كانت مشاعره تجاه عزيزة تتنقل في دائرة مغلقة ومعادة؛ تبدأ من غضبٍ وتعنيف وتتجه إلى ملام ثم إلى مذلة محمولة على الأمل ومعصورة به من روحه، وتعود أمام اللاجدوى إلى نقطة البداية الغاضبة من جديد. وفي الحد الفاصل بين أفكار ملامته لعزيزة وانتقاله إلى منطقة المذلة، كان يسدد الملامة إلى روحه، ويودّ لو يضرب رأسه في الصخر لغياب إدراكه عمّا في نفس عزيزة، وعدم أخذ مخاوفها على محمل الجدّ. كانت تهطل في رأسه ذكرى لمشهد بعيد لا ينساه، حضره في سوق المناجاة، كانت فيه سعدية تتربّع كالعادة خلف طشت معدني في داخله كومة من الجبن القديم وقرون فلفل أحمر منثورة وفوق رأسها ساتر من خيش. كانت سعدية سمينة جدّاً؛ بمؤخرة يبرز جانباها من وراء الطشت أثناء القعدة. ولا ينسى سيد الشقَّ الطولي لندبة سوداء متعرجة تملأ وجه سعدية، تبدأ من أعلى الجبهة وبين الحاجبين وإلى ما فوق الأنف الملتوي الشائه، حتى تهبط إلى قطع واسع في الشفتين بحواف سوداء، واصلة إلى مقدمة الذقن. ندبة تفرشُ القبحَ ويأخذها الناس كمرتع للهزار والضحك، ويستخدمون شكل المرأة لتحذير الأولاد من أي مغبّة لأيّ شيء. وحين تثقل المناكفات

مع جيران السوق؛ كان يخرج الاستغراب من بقاء المرأة حيّة بعد جرح مميت مثل هذا، ويلومون شطارة المداوي الذي أدرك. حتى دخل إلى السوق في ذلك النهار وخلال وقت العصر قرداتي، كان يمرّ على المناجاة لأول مرة، في يده سلسلة معدنية تنتهي بحزام جلدي حول رقبة نسناس راقص. كان القرداتي ضئيل الحجم وداكن اللون، وفي جبينه ندبة عرضية وكبيرة تنزل بميل من أعلى إلى أسفل، حافرة، ومزيلة لبعض الشعر من مقدمة رأسه، لكنما ليست مؤذية كندبة سعدية نتيجة للون جلده، ولتواريها في تغضّنات الجبين بفعل الزمن. وقف الرجل في مكان خالٍ بجوار جلسة سعدية، يغني للقرد وينقر بعصا فوق طبلة صغيرة. وبينما الحجر والأخرس والعيال يحيطون بالكائن الراقص ويمدّون الأيدي لمعاكسته، راح القرد ونتش قطعة من الجبن في لحظة؛ كانت الست مستاءة وطلبت من الرجل الابتعاد والذهاب عند مكان الحمير والبهائم، ولكنه عاند وزاد الكلام بينهما. وقرب المغرب، هدأت الحركة، وجلس الباعة يأكلون لقمة ثم يحزمون الحاجات ويستعدّون للخروج من البلد. كان الحجر يغافل القرداتي ويلاعب القرد من وراء ظهره، يلقي له بنُتف من عيش في اتجاهات مختلفة فوق الأرض ويراقب تخبّط القرد وقفزاته بين الجهات. وعلا صوت واحد من الجزّارين في وصلة تسلية باستخدام خلقة سعدية، مكتشفاً طريقة جديدة وقاسية بإشراك القرداتي في الكلام وسؤاله عن رأيه في خلقة سعدية. أشار الجزار ناحية سعدية وهو يوجّه كلامه إلى القرداتي: «شفت سعدية. خذ بالك، أثقل من أي عجل عندي. والشقّ في وجهها كان من جزار معنا في السوق، حاول قسمتها إلى نصفين وتوزيع اللحم على الغلابة، لكن الساطور غرز منه في اللحم وما طلع من ساعتها». والغريب أن القرداتي تجاوب؛ ربّما كان حانقاً على المرأة بعد التلاسن الذي قام

بينهما لمّا طلبت منه الابتعاد، وربّما كان سعيداً بالاهتمام الذي صبّه عليه هذا الجبار صاحب الأسلحة دون استبصار للشرك الواضح والمنصوب. كان الباعة من حولهم يدخلون رويداً إلى اللعبة، وحماس القرداتي يزداد أمام تحوّله إلى بؤرة، ويتفنّن في إلقاء النكات والسخرية على شكل بائعة الجبن. كان برميلاً ممتلئاً بإهانات مشابهة ومتراكمة طيلة عمره، ثقبه الجزار ووضعه ليخرّ في وجه سعدية التي بقيت ساكتة قبالهم، تستقبل وتنظر ولا تردّ. وبعد لحظات، كانت اللعبة قد أُحكمت، وانتقل الجزار في مباغتة لاستخدام القرداتي كمجال للضحك، مستخدماً أقوال القرداتي، معيداً إياها في وجهه وسط أصوات خلق مشاركين للحيلولة دون قطع خيط الاستهزاء. كان وجه القرداتي يحمرّ، ترتعش شفتاه وعيناه تصحوان، تبصران وتلتصقان بالأرض، لكنه بقي جامداً أمام الضربات، يأخذها بلا حركة وبلا رمشة جفن. بينما علا حزن المتعاطف على قسمات سعدية، ونظرتها فيها لوم لا يخلو من مسّ حنان على السذاجة والعبط. ولا ينسى الحجر قيام الرجل المتثاقل من فوق القفص الخشبي، وخطواته البطيئة تجاه سعدية بعدما فرغت الجعبة من السخرية وتحوّلت للإعادة. كان الرجل يقف أمام المرأة ويتناول كفّها، يشدّها من قعدتها ويتحسّس الندبة على وجهها ثم يقترب بشفتيه ويبوس الخدّ. فرد ذراعيه واحتضن سعدية أمام الناس المشدوهين. حملق كلٌّ منهما في ندبات الآخر للحظات. همس القرداتي وهو يشير إلى وجهه: «من عمود حديد ساب من مرجيحة وأنا في مولد». نظر القرداتي باستفهام؛ وهمست هي: «من منجل عمي». هربت عيناها في الأرض وابتسمت في كسوف مكملة: «كان يراني حلوة وخاف بعد موت أبي». سطعت على الشفتين ابتسامتان تحملان الأمنيات في المستقبل. أخذها وغادر السوق في هدوء. كانا يخرجان بكفوف

متشابكة ومخلّفين وراءهما طشت الجبن والقرد الراقص والطبلة. ولم يلقَهم أحد في المناجاة أو القرى المحيطة من بعد ذلك.

كان الحجر يرى ندبات الزمن في روحه وفي روح عزيزة، ندبات كافية للتلاصق والاستناد، ولم يخطر في باله أن عزيزة ترى ندباته وحدها، وتحتاج إلى إشارات من الخلق حتى ترى ندبات مماثلة في روحها، تحتاج إلى مرآة من سخرية الناس، وإلى ظلمٍ صافٍ يصقل سطح المرآة، حتى تستند ندباتها على ندباته.

كان الحجر يدخل إلى البيت ويفتش من جديد في الغرف، يطلع إلى السطح، يعود إلى غرفة النوم ويجلس على الفراش، يتكوّم مثل جنين ووجهه في الحائط، يقترب بشفتيه ويبوس في الحائط، في الموضع الذي طالما ارتكنت إليه عزيزة. كان يلحس الجدار ويحكّ خدّه في خشونته. وفي وسط بحر من يأس، كانت تبزغ بداخله أفكار للسلوى والعثور على امرأة جديدة، ويعدّد لروحه من التقى بهم وفرش من روحه على ركباتهم فوق هذا السرير وفي دروب المناجاة ونواحيها؛ محاولاً التقليل من رعبه الضارب بزوال المرأة. كان يتمسك بأمل في بداية أخرى في وسط الإظلام المطبق. لكن ما يلبث أن يتذكر فهم المرأة لمداخله، واللحظات التي كانت تمدّ فيها الكفّ وتفرك عنقه وأسفل ذقنه وكأنه حيوان هائج بحاجة إلى تهدئة. كانت عزيزة قد كوّنت في جسده مداخلَ جديدة لا يلمسها سواها، وتمكّنت من مداخل قديمة في روحه. ويروح باله في أن العمر لا يسمح بتمهّل وبترك امرأة أخرى لتتعلّم تلك المداخل، وأن الأخذ بيد الجديدة ووضعها مباشرة على تلك المداخل أمرٌ ماسخ ومهين، يُفقد الدنيا طعمها، مع عدم ضمانته للفهم. كانت لذّة الاكتشاف في أقصاها مع عزيزة، بلا خوف وبأمان، كأن الغرفة قطعة قطن كبيرة وصافية البياض

وفي أبعد نقطة عن الخلق. وكانت لذّة معاودة تأكيد الاكتشاف مع نظرة عين تعلن عن الفهم والاستيعاب، تعلن عن الاحتواء والإمساك بكامل الروح كأمومة تامّة ومنزلة. كما أن توجيه يد الجديدة إلى صناعة القديمة يؤجّج الذكرى مع كلّ لمسة، يربط الواحد إلى ساقية القديمة ويزيد من البعاد بينه وبين الحاضر. كان يتذكر أن حتى هي نفسها، كانت تضحك في بدايات اقترابه من ركبتيها، وتحس بدغدغة مع استغراب يلقيان بها في أمواج قهقهة ومحاولات تغنّج مصطنعة للتملّص من فمه، لكنها بعد وقت ومع الزمن، كانت تستثار مع لمساته للركبتين، تروح مع روحته، وتخلّقت فيها المداخل المرتبطة برؤية ضياعه التام فوق الركبتين مع كلّ لمسة. كان الحجر يحسّ بتهيّجها بعد تمام وقته على الركبتين، يمدّ كفّه إلى منطقتها ويتحسّس البلل، يتشمّم كفه ويحتفظ لنفسه باللحظة كدليل على وصولها إلى تعويض ما عن امتناعه، دليل يواسيه ويرصّه بجانب الأشياء التي منحها إياها بعد خروجها الذليل من الغزالة؛ فيسند الروح في داخله من خلال رؤية مِنَحِه المعطاة للمرأة.

كانت الأفكار والهواجس تملأ الرأس، ومن بينها تستيقظ الرغبة في القتل، تتسلط عليه وتخلع كل ظلال المحبة، وتتملّك ذراعيه نار حامية.

كان ينهض من السرير ويطلع إلى السطح بقفزات واسعة؛ تقطع ثلاث أو أربع درجات في كلّ مرّة، يقف فوق البيت ويتلفت في الليل إلى النواحي، بخيط رجاء يائس في العثور على امرأته مكوّمة تحت شجرة أو عائدة من بين الغيطان. والخيط يتقطّع بمشاعر مذلة وبخزين اختباره لقدرٍ مؤلم وبعيد عن حسن الظن. كان الحجر يضرب أسوار السطح بقدميه، دافعاً بكتلات متهالكة من الطين والصفيح إلى جوانب البيت، يمسك بالصوامع الفخارية وأقراص الجلّة ويقذفها بعيداً من فوق السطح، كومة وراء كومة،

يتخلّص من كل حاجة في البيت بهمّة غيظ؛ ينزل ويستكمل التكسير بالفأس في فرن الطين، يأخذ أشولة الغلّة وينثرها في الخارج أمام الباب على مساحات واسعة، يطوّح بالفخاريات والأطباق، يلمّ الملابس في كومة خارج البيت، يعود ويحمل إليها المرتبة القطن وينزع ستائر الكنيف والغرفة، يصبّ فوقها من كيروسين المصباح ويشعل النار، يحاوط حولها بالطاولات الخشبية والكراسي الجريد. وفي وسط ذلك؛ كان يتخيّل امرأته بين ذراعي رجل آخر في تلك اللحظات، تقارن بين الحالين، وعيونها لا ترى إلا الحلاوة المسقاة في التو، ولا ترى في القديم إلا العيوب والتعب، سكرانة بحلو اللحظة، وتبعبع في أحضان الجديد بنقائض القديم، بعبعة ليست ناجمة عن السكر فقط، بل وبهدف لا واعٍ في اجتذاب أكبر كمية من تعاطف وتعويض، بأداء فيه مذلة للقديم ولها، وكأنها تسلّم رأسها تحت أقدام الجديد في سبيل شعرة من رضا تمنحها الأمان المفقود، الأمان الذي كان في خدمتها بالفعل لكنها تغيّبت عن رؤيته.

كانت تصحو فيه روح تنافسية مطمورة، ويتمنى عودة الزمن لإخراج الأحسن لعزيزة. الأحسن الذي يحطّه في المقام الأعلى في بالها عند المقارنة، ويمنع الكلام المذلّ عن الخروج من الشفتين على الأقل إن لم تتوفر عندها شجاعة وأمانة لسرد المحاسن. وراح باله في قلق ملح في دماغ عزيزة، كان يخرج بشكل متكرر خلال لحظات الصفاء، وعند تصالحه مع الدنيا بعد قضائه لدقائق فوق الركبتين، بينما يندسّ برأسه في صدرها وهي تأخذه برائحة أمومة طيبة وتسأل من الأحسن، هي أم فاطمة القط. كان الحجر يعترف بينه وبين روحه بأن لا شيء في العالم عنده مثل عزيزة، لكنه كان يصمت، يبتسم ويغلق فمه ولا يجاوب، يصون ذكرى واحدة طيّبة لا يريد التعرض لها بسوء خلال التمادي في سدّ غيرة عزيزة وغرورها.

كان يتذكر زينب بعد موت عزام، ويتذكر أن الأخرس قال له في مرة أن الست تنضج وتستوي في بيت الرجل الأول، وتقف بساقين قويتين في بيت الرجل الثاني، متلافية الأخطاء والزلل التي اختبرتها، يأخذ الثاني الشهد على الجاهز، وكأن الأول كان باباً للتجربة. كانت كلمات الأخرس كفيلة بتنغيص العيشة، وقطع الحبال بينه وبين زينب، يشكّ في كل لفتة منها ولا يقدر أن يبوح، ويضيِّق عليها في كل خروج وكلمة. تزوره صورة عزام الغلبان بجراحه في اللحظات الأخيرة، وهو يقعد على المصطبة، ويراقب نشوة زينب في أحضان غريبة وفي موضع محاولاته الخائبة نفسه.

وبينما الحجر يخرج بين حين وآخر من الدار، حاملاً ما يلاقيه من أغراض وعفش البيت إلى داخل اللهب، ويغذي الألسنة بأقراص الجلة المتناثرة جنب الجدران، كان يتسلل إليه هدير بعيد لآلاف نخلات قادمة من الصحراء تجاه المناجاة.

كان يتسمّر، وينصت لوقْعٍ مُنجِز وواعد بخلاص، يشبكُ ذراعيه ويضغط بهما فوق صدره، يتكوّر على نفسه، يغلق عينيه، ويميل برأسه على الكتف. وكاستعداد لولوج غفوة أخيرة على نغم تهويدة من الغرب؛ كان يفرك خدّه في الكتف، ويحاول الابتعاد عن أزيز وزمزمة نار مؤرِّقة. كان الحجر أخيراً، يُفلت من هفهفة الرياح للشجر، ومن نقيق وصرير لكائنات منسية، ويحطُّ بتركيزه على نغم مَرغوب ومُتصاعِد، بينما في السماء، كانت تعلو أصوات قاطعة وضخمة من رفرفة لمنقذ حاضر؛ فتح عينيه ورفع رأسه، ورأى الحجر الجناحين الأبيضين يشقّان السماء المظلمة، في قوسٍ سابح، طالعٍ من الخلاء، وماضٍ في سرعة إلى الغرب، رأى جناحيه الموعودين على جسد فاطمة القط؛ آخر المجازات، وعروة المأذونين بعد إخفاق الحجر. كان الحجر يعرف من أول النهار للطريق الذي سلكته

أجنحتُه، حينما نَفَت فاطمة ظنونَه عن صاحبه، ونفت المجازية عن عبده الأخرس، واعترفت بأنها تناولت الجناحين من المجازات. كانت فاطمة تهمس في الصباح بينما تسند مرفقيها على كتفيه وتلمس رأسه: «كنت أريد أن تكون القطيفة والأجنحة في بيت واحد يا حجر». والحجر يدمع تحت مرفقيها وينحبس على لسانه السؤال: «هل استحقت فاطمة الجناحين فعلاً؟ أم هو إمعان في الذل والعقاب للحجر يا مجازات!». كان سؤاله يضاف إلى خاطر قديم، طالما تقلّب في رأس سيد؛ بخصوص حبّ الناس لفاطمة، وهل محبَّة المناجاة لفاطمة مستحقة، أم أن مجاورة بنت القط لأخيها زخرفت العاديَّ زيادة عن حقّه؛ لتندفع عليه تيارات اللهفة العطشانة لمسار ومنفذ!

كان الحجر يتذكر مجيئه لفاطمة في ليلة الدخلة بعدما نزلت من فوق الجمل، ويستدعي وقوفه الهائب ولدقائق أمام شكل الركبتين الهادئتين فوق الفراش، والألم البادئ على وجه فاطمة لمّا حاول إتيانها. كانت الأجنحة تبرز وترفّ في غرفة النوم إثر بغتة الألم، والحجر ينظر إلى ركبتي فاطمة، وتحضر صورة رجب القاضي في الغرفة من بين خبطات من رفرفة مستمرة في وجه سيد. كانت صورة رجب تطارد الحجر، تختلط في عينيه الدنيا فيزيد وبلا وعي من ألم فاطمة، ينسحب ويهرول في أنحاء البيت هارباً من صورة القاضي المرفرف، وأذنه ممتلئة -فقط- بصريخه المُستنجِد.

كان الحجر يعرف منذ الصباح، لكن رؤية الجناحين على جسد فاطمة كانت شيئاً آخر. كان الحجر ينحني ويمسك بالطوب، يقذف به في السماء، بعزم ما فيه، بعمر ضائع، يحاول إصابة فاطمة، يشدُّ الثيابَ وأقمشةً وأقراصاً مشتعلة من كومة اللهب، ويلتفّ مطوّحاً بها إلى داخل داره من

خلال الباب المفتوح، يعود لمراقبة النقطة البيضاء في السماء، ويهرول وراء فاطمة بينما تطير إلى عمق الصحراء باتجاه النخل الزاحف إلى المناجاة. كان الحجر يعبر المصرف الجاف، ويتخبّط بين الرمال، يمضي فوق قضبان الحديد، ينحني ويسرع في محاولة لإيجاد ما يمكن أن يصيب به الساكتة، يقذف حجراً تجاهها، وتظل ذراعاه ممدودتين في الهواء، وهو ينادي على جناحيه من جسد بنت القط.

كان الهدير يقترب، والنخلات تبين، والضئيل في المقدمة، لكنّما الحجر عينه غائبة في السماء. كانت فاطمة تثبت أمامه في الهواء، تدفع بيديها في الفراغ وتؤجّج دوّامات من رياح عاتية تهيج بها رمال الصحراء وتخلخل النخلات. والنخلات تقاوم، تتأخر للحظات وتعاند، تستكمل وتمضي إلى الغرب، والضئيل يحجز بساعده فوق عينيه من رمال تضرب ويستدير مولياً ظهره إلى المناجاة في أحيان، تلتفّ نخلاته من حوله، تسبق وتتقدم أمامه، تنتصب وتقف على الجذوع متلاحمة في صفٍّ واحد؛ مكونة حاجزاً يخفّف من آثار الرياح والرمل، وتقفز في رباط لمسافة وراء مسافة، مفسحة المجال لحركة النخلات من خلفها، وكدرع فدائي لجيش خبير.

كان الحجر أمام غياب الرؤية؛ يتعثّر، يسقط، يتقلّب على الرمل، وعينه ثابتة على فاطمة والغبار يطبق عليه، وفاطمة تتشوّش وتغيب، والعالم ينكمش من حوله. وفوقه، كانت تمضي ألوفٌ من نخلات ذاهبة إلى أمر محتوم.

*****

كانت المناجاة خاوية، وانطفأت الأنوار في البيوت القليلة الممسكة بناسها خوفاً من استغلال النخلات للنار كما حدث في الغزالة. ضربت العتمةُ الطرقاتِ في ليلة بلا قمر؛ حتى أن علوان كان متخبّطاً أثناء العودة إلى بيته وبعد اجتماعه مع الناس في عراشية المحطة؛ فدخل حتى منتصف قنطرة السوق بحساب أنها قنطرة الخفر، قبل أن يدرك محلّه لمّا عاين ماء التفريعة الغربية في نهاية القنطرة أمامه. لكنه توقف شارداً للحظات في منتصف القنطرة بينما يقبض على السور الخشبي ويتطلع إلى ماء السلان في موضع محمّل بذكريات عاملة ولا تحتاج في الأصل إلى محفّز. كان يرى صور العيال تنهض من على صفحة الماء، رجالاً بعد امتدادات للخيال في عقله، كان الثلاثة يمشون نحوه؛ أحمد في الأمام، والتوأم من خلفه، بينما أفلتت منه ابتسامة أسيانة، وهو يتفرج على ما كان سوف يكون، لولا غياب الوجوه في الماء للحظات في صباح خاطف. كان يرى شبيهه متكئاً على عصا، بشارب رفيع ووجه مدوّر، وشبيه سميرة يتمايل في الخطوات، يفرد ذراعيه ويتحسّس الهواء أمامه، بينما أحمد نحيف وطويل كعود قصب، بظهر مؤتّب، ووجه مستطيل فيه لحية خفيفة وعين غائرة. وفي حياة منعزلة، مجبولة على السير بلا عزوة، سواء بما هو خارج عن إرادة علوان أو بتخلّيه هو نفسه عن احتمالات ونس وأواصر ظنّ أنها غير متوافقة مع تركيبته أو مقامه، اعتاد خلالها الوحدة، وأصبح وجود الناس في محيطه حملًا عليه؛ كان أقسى ما خلّفتهُ سميرة لعلوان هو الفضول الجائع،

النقصان المستعر لإدراك أشكال صلبه وهي تكبر وتتحرك أمام عينيه. كان دوماً يغور في سرحان؛ يبدأ من إمساكه بتفاصيل أبنائه، ومن ثم التدرج بها خلال الزمان، مع التعديل في زخارف حول نواة بارزة ومستقرة في رأسه لكل ولد، مُنوِّعاً في تعابير أولاده وحركاتهم وأحجامهم، ومن المواقف، ومن أساليبه في التحايل على لحظة الغدر للاطلاع على نتاج صنعة يديه في الدنيا، وكأنه العرقان في حرثٍ وبَذْر غيط طوال موسم، لكنه المحروم بالعمى قبل معاينة تمايل السيقان وتدلي الثمرات من الغصن، كانت ناره الكبيرة في غياب المعاينة.

ظلَّ علوان يتفرج على العيال، وهم يقتربون فوق الماء، ويتلاشون أمام الاصطدام بخشب الجسر، قبل أن يشدّ نفسه، ويعود أدراجه إلى طريق المناجاة، يعبر فيه على جذوع خشبية ممتدة فوق تفريعة القط، حتى يتسلَّم قنطرة الخفر هذه المرة، ويهبط منها في طريق التفريعة. كان عقله لا يزال باقياً مع كلام الناس في العراشية، وتضخمت مخاوفه بالفزع البادي في الحركات والحروف أثناء القعدة. وخلال الطريق ولعدة مرات، كان يتسمّر في مكانه، ويتلفت في الجهات مع سَمْعٍ مسنون ومتوتر أمام خشخشة أوراق بسيطة، ويتهيأ له أجسام وظلال تمرّ خلال الزرع، ولكنها ما تلبث أن تزول أمام التدقيق.

وعند باب البيت وبينما يُدخِل المفتاح في القفل، كان يتأهب أمام هلاوس لهدير نخلات وصياح مستنجد من البعيد؛ فيلتفت كبرق، جائلاً بالنظر خلال مساحات مزروعة وقابعة في ظلام مطبق، وحينئذ، لا يلاقي غير سكون مخدوش بهمهمة ريح. كان يتردد في الدخول، يترك الباب بعد برهة، يمشي بضعة خطوات ملتفّاً حول البيت ومتبيّناً مكان البحر الكبير من خلفه، يتجه إلى البحر بخطوات سريعة عازمة، نحو موضع يعلمه،

ويعاين فلّوكة مربوطة إلى وتد خشبي مغروس في تربة الشَطّ، ينزل بسرعة فيها، يجلس ويفحص المجدافين، يدليهما في الماء ويجرّب التقليب، يشدُّ المجدافين إلى القارب من جديد، يفحص قاع القارب، يمشي بالكف على جوانبه الداخلية وقاعه وزواياه، يتأكد من عدم تسريب مياه. وكمحاولة لشغل البال وتشجيع الروح في وسط سواد حالك؛ كان يومئ برأسه، وهو يُثنِي في سرّه على صنعة ناس زمان، وعلى ضمير ومهارة الألفطي الذي أتقنَ وحشرَ قطع الكتان بعناية في الفراغات بين عظم المركب، منعاً لتسرُّب الماء إلى صنعته بالرغم من مرور عمر. كان يرفع رأسه، يطيل النظر نحو الجهة الأخرى من البحر الكبير، محاولاً اختراق الظلام وقياس المسافة، والتخمين والاجتهاد في معرفة الوقت اللازم للوصول إلى هناك، قبل أن يقوم بحذر وهو يتأرجح، ينزل إلى الشطّ، ويعود ببطء إلى باب البيت، يلج متحسّساً طريقَه بلمسات الكفوف على الجدران والأثاث.

كان الصمت في البيت، وعلوان يمسك الدرابزين ويخطو تجاه محاولات للنوم، يفكر في سحب الأغطية وأكل وماء مع حاجات ضرورية ومصباح، ومن ثم الصعود إلى سطح البيت لقضاء الليلة هناك. إلا أنه وخلال تدابير رأسه لمراقبة المناجاة من فوق وللوقوف أمام شدة البرد، كان الصمت يتكسر فجأة في البيت بجلبة وأصوات آدمية نابعة من غرفة الطعام على يساره؛ كان علوان يتعرّق، ويداه تخمّنان مكان مصباح الجاز، وتتعثر بدلاً منه بشمعة ملقاة على طاولة في باحة البيت. وبينما يحاول إشعال الفتيل؛ كانت تضطرب ظلالٌ مرتعشة على الجدران من حوله، مقلِّصة من بقية إمساك بنفسه.

مضى متهيّباً نحو الأصوات في الغرفة، بخفّة، متجنّباً نقرات عصاه

فوق البلاطات. ورأى الضوء ضارباً في المكان، وتبيّن الكلمات مختلطة بوقع خطوات وقرع ملاعق ورشفات وأصوات مضغ.

كان يقفُ ساكناً على العتبة، شارداً في خمسة أنفار يجلسون إلى المائدة، وحولهم الخدم بأيدٍ مشغولة، بأوانٍ رائحة وغادية، فارغة وممتلئة، ينقّبون عن مساحات للسير، كأسراب نحل مُتخبِّط. كان علوان يرى محمد القط على رأس الطاولة، بفمٍ ممتلئ وقسماتٍ مستنكرة، يوجّه الكلام إلى بكريّه عادل القاعد على يمينه. بينما شاهد علوان نفسَه جالساً في كرسي على يسار محمد القط، وإلى جواره قعدت فاطمة تلعب بقطع خبز، تعجنها وتكوّن أشكالاً مشوّهة لبهائم.

كانت أم الأولاد على الكرسي المجاور لعادل، تمسك كُمّ الولد وتقول في انفعال: «يا حاج محمد ندفع البدلية. حتى لو نبيع له الأرض ونتصرف في الخمسين جنيه. لكن بهدلة الولد في الجهادية حرام».

كان القط ينظر إليها في حدّة، يسند كوعيه على الطاولة، يهرش جبهته ويقول: «المسألة ليست مسألة فلوس يا أم عقل مالح. الجهادية تصنع الرجال. وأنت مناكِ أن يقعدوا مثل الحريم جنبك. اتق الله».

تابع القطُ الأكل، وبدت الستّ متبرّمة، تتصلّب أصابعها حول رسغ الولد، تهزّ ساقيها تحت المائدة، ومنهما تنتقل الهزّة إلى باقي الجسم وإلى الكرسي وهي تجلس على طرفه، بعين تهرب في الجهات وكأنما تبحث على نجدة. كانت فايدة تدخل بطبق ملوخية، وقفت للحظات وراء الكرسي، أسندت كوعها إلى حافته، انحنت ووشوشت بشيء في أذن الست، راحت وحطّت بعدها الطبق أمام محمد القط.

نترت أمّ عادل كفَّيها، رفعت صوتها محتجّة: «يا حاج! أبوك دفعها لك ولإخوتك، وأنت ما رحت هناك أصلاً وشفت ما يعملونه في عيال الناس.

أنت تتكلم عن سمع. حرام عليك رمية ابنك». كانت تنسى روحها؛ تنقلب إلى الحدة: «قل لي أنت يا شيخ، لو كانت الجهادية للرجال لم أقعدك أبوك في حضنه وخاف عليكم!».

عامد القط سبابته على الشفتين. ضاقت عيناه وهما تتنقلان على الخدم. كان يكتم أمواجاً هادرة. قال في هدوء: «ولا كلمة. الولد سيروح ويتعلّم ضرب النار وتحمّل الصعب في الدنيا ويرجع لنا رجل شديد».

كانت الستّ في يأس. خبطت على الطاولة وهي تشير لفاطمة بالتوقف عن اللعب. قالت في انكسار: «طيب أنا سأبيع نصيبي في ورث أبي وندفع للولد». دفعت يدها في حافة المائدة وهي تزحزح الكرسي إلى الخلف بجسمها. قامت، دارت حول المائدة، انتزعت فاطمة من الكرسي وجلست مكانها، ثم أقعدت البنت في حجرها. كانت مضطربة؛ وبدأت تنفث المخاوف من خلال دسّ الأكل بالغصب في فم البنت الحرونة.

أنهى محمد القط أكله، مسح يديه وعلى فمه بفوطة قطنية، طواها ثم وضعها على المائدة أسفل كوعه الأيسر. ردّ: «لا لزوم لبيع أرض. أنا قلت كلمة وانتهى. أنا أعمل الصالح والكل يسمع ويقول حاضر». التفت إلى عادل. كان الولد بوجه أصفر وساكن. تأمّل القط فيه. «ولا واحد في القطط خرع. أنت السابقة الأولى يا ابن أمك». كان في همسه إنكار، كدافع لتهمة عن نفسه.

كان علوان الصغير يلعب بملعقة في طبق الملوخية، يرفع السائل ويسقطه من جديد في الطبق والرذاذ الأخضر يتناثر فوق المائدة وعلى جلبابه. قام أبوه إليه وأخذه في حجره وهو يبتسم. قال: «تعال يا قط يا صغير لتأكل أنت الآخر. هو الوسطاني مظلوم على طول الخط، لا يأخذ دلع الصغير ولا احترام الكبير». بدأ القط في دسّ نسائر لحم في فم الولد وهو

سارح في فراغ الكرسي على الطرف المقابل. همس دون أن يوجّه كلامه إلى أحد، بينما يهزّ رأسه في إعلان عن توصّله إلى حكمة، لكنما في خفّة تخصُّ الإعلان لنفسه فقط دونما البقية الأدنى والبعيدة عن الاستيعاب من حوله: «صحيح، أوسط الأمور أولها في النسيان. الناس لا تفتكر إلا شدة أو رخاء وما بينهما عادة». مال وداعب الولد واضعاً أصابعه في الفم مع قطع اللحم قبل أن يشدّ إصبعه بسرعة ويترك قطعة اللحم بين فكّي الولد. قال في انبساط: «لكن أنت قط ولا أحد يقدر على نسيان قط. القط لعّيب. ولو نسوه ينط على قدور اللحم ويأكل منابهم». دسّ قطعة لحم أخرى. فرد ظهره على الكرسي، رفع رأسه ينظر نحو فايدة التي رجعت لتلمّ الحلل والأطباق. قال: «في مرة الحمار استنصح. عمل باب بيته بالعكس ليفتحه على الخارج. قال أوسّع على نفسي وعلى أهلي، بدل ما يزحمني الباب في كل مرة أفتحه فيها».

كانت على شفتيه ابتسامة عريضة وهو يشير بسبابته إلى جانب رأسه، وفايدة ترتبك وفي حضنها عمود من حلل وأطباق. قالت: «والله يا سيدي المكان ضيق. وكلما فتحنا الباب يخبط في ظهر واحدة من البنات. وقلنا نخلّي فتحته على الشارع أحسن».

لاعَب القط حاجبيه لفايدة، التفت إلى أولاده «كان أيامها الخروف يمرّ في شارع الحمار كل يوم وهو راجع بالبرسيم لعياله، وفتح الحمار بابه وخبط في الخروف، جرح رأسه. حمار وغير دريان وبابه بالعكس والحالة كرب». قهقه القط. «المهم أنه بقي يتأسف للخروف والخروف يريد الرواح لحاله. والحمار ماسك فيه ليدخل البيت ويضيّفه كاعتذار. والخروف يقول كأن الخبطة لم تحصل يا أخي، وحصل خير، أنا ورائي عيال جوعانة، أبوس حوافر أهلك اتركني في حالي. بقوا على هذا الوضع

قيمة نصف ساعة. ولمّا روّح الخروف لعياله، وجد الحيّة استغلت غيابه وأكلتهم». يصمت القط لبرهة، يبدو عليه تفكير، يدور بعينيه على الجالسين. «بعدها كان الخروف كل يوم يراقب الحمار، يطلع الحمار على الغيط، ويدخل الخروف إلى البيت، يأخذ واحد من عيال الحمار ويرميه في الترعة». صفّق القط براحتيه. «خلصت عيال الحمار وراح يبكي ويلوم الخروف». يشير بسبابته إلى كل واحد حول المائدة بالدور، ويسأله: «هل تعرف كيف رد الخروف؟». يقابله تبليم الكل، يضحك القط ويقول: «لأنك حمار لا تعرف رد الخروف». يخبط سطح المائدة، يضيف في لهجة جدّ: «الخروف قال بالحرف للحمار: الحية عدو لا أقدر عليه، أعرف حجمي وأحذر منه، لكن الحمار كسر حذري وسابني عريان قدامها، سلّمني للحية عندما استغبى وعمل الباب للخارج، ولمّا أعجز قدّام عدوّ جاحد، أفشّ غيظي في حمار». كان القط يلتفت فجأة ناحية فايدة المنتبهة مع الحكاية، يشخط: «هاتي براد الشاي بسرعة يا أم حمار». هربت المرأة إلى المطبخ والقط يقهقه، يفرك عينيه الدامعتين ويقول: «اللهم اجعله خير».

هدأ، بدا رائقاً، نظر إلى أم العيال وهو يهرش جبهته. قال: «حاضر. سأفكر في موضوع بيع أرضك ودفع البدلية».

رفعت الست كفوفها، انهالت دعواتها إليه، كانت تلتفت إلى عادل، تنظر وكأنها تأكل وجهه، بشبح ابتسامة محتارة، وتستكمل إطعام البنت بهمّة فرحان.

أضاف: «لكن حتى أفكر لا أريد أن أسمع كلمة ثانية».

كانت تردّد: «حاضر»، عدّة مرات، في طاعة واستعطاف.

كانت نسائل الشمعة تنزل على كفوف علوان الواقف عند العتبة.

همس في وجل: «لا تصدّقيه، سيضحك عليك، يأخذ منك الأرض والولد سيروح إلى الجهادية». التفت الجميع إليه.

قال محمد القط في عناد: «لأن الجهادية تعمل منه رجلاً ويرجع لنا بعدها بالسلامة».

كان علوان ينفجر: «لن يرجع. ابنك سيموت مع الأورطة المصرية في بلاد بعيدة. بلاد يفصلنا عنها بحر كبير وحقيقي. ولن يرجع لنا حتى جثمانه».

كان القط يضم علوان الصغير بقوة إلى صدره؛ حتى أن الولد بدأ يختنق ويكح.

رفع محمد القط وجهه إلى السقف، هزّ رأسه في شدة بالنفي، كان يضغط جفنيه وعضلاته تتشنّج. «يموت بشرف وشهيد له الجنة». بدا في ملامحه حزن.

كان الجميع يراقب، والأم تنظر باستفهام مذعور، تنقل عينيها بين القط وبين علوان. وعلوان يجد نفسه في تلك اللحظة، أكبر من سنّ أبيه في أي صورة اختزنتها الذاكرة؛ فيواصل الصراخ لكنما بلوم محترق: «ولا أيّ شرف يا قط! الولد سيموت بلا حاجة. صاحبه سيقتله في المخبأ. ابنك سيصرخ في الليل من الخوف، ويفزع من صوت الطلقات والنار من حوله لمّا ينطبق عليه الحصار ككماشة. ينادي عليك وعلى أمه طالباً الغوث، بصرخات لوعة مثل طفل واقع في ساقية، ويقتله صاحبه خوفاً من وصول الصوت إلى العدوّ، يكتم أنفاسه بيديه، يكوّم اللحاف على وجهه ويقعد فوق رأسه لينجو بنفسه، يتركه يتعفّن في الطل. آخر لحظات ابنك البكري في الدنيا ذعر في ذعر يا محمد يا قط!».

كان محمد القط يفزّ عن مقعده، يَسقط كرسيُّه بعد قيامه ويرتطم

بالأرض، يخبط سطح المائدة بقبضته وهو يصرخ: «تسيب الحيّة وتفش غلّك في الحمار». كان جسمه يهتزّ، يجهش ببكاء، يسند طوله بيديه على سطح المائدة، يتشنّج ورأسه محنيّ. «أبوك حمار يا ابني. أنا حمار كبير».

كان علوان يترك القط الضائع، يلتفت ناحية فايدة.

«وأنتِ، تركتِ البيت، رحتِ للموت فوق قبر ابنك، وبهدلت مسامعي بالدعوات، عليّ وعلى عيالي، مع أن العيال تربيتك، ومع أن علوان لم يلمس ابنك رغم الفضيحة».

كانت فايدة تُطرق رأسها، تتفتت، تهمس في أسى: «قلبي توزّع طول العمر، كان على كل صاحب ضيقة، قاسمت فيه الكل، وسِبت القليل لعيالي، لكن ولا واحد كان قلبه عليّ في ضيقتي».

صرخ علوان: «قتله صاحبه يا فايدة، قتله سيد الحجر، علوان بريء من الدم. علوان قال اخرسوه، لم يقل اقتلوه، وابنك كان أخرس في كل الأحوال. أنا كنت وحدي فوق جبل من الذل».

كان علوان ينظر بعتاب غضبان إلى فايدة، تتصلب أصابعه على مقبض عصاه، ينقر بطرفها فوق البلاط في غيظ، يروح إلى المائدة، يقترب ويملّس على رأس أمه، يطبطب على كتفيها.

همس: «وأنت ستلحقين الكبير من الحزن». أشار إلى فاطمة المأخوذة في حضن الأم. «وخوفك عليها بلا منفعة. عمرها ستقضيه بين قبور، ولن تأخذ حاجة من الدنيا وأنت السبب».

كانت الأم صامتة وعلوان يكمل: «أنت السبب فيما حصل، كلما نويتُ التقويم، وقلت أعود بفاطمة إلى الصح، ألاقيكِ في أحلامي، في صورة صافية، غضبانة ولا تفتحي حنكك، كل همّك مسك ذراعي وشدّي إلى حفرة في الأرض، على قبر حالك، أقوم من النوم وصورتك طول النهار

قدّام عيني، والموت وكأنه على كل باب. كل ليلة في لعب معي بعد أي حزم على البنت، والنهار تحوّل إلى تحسيس في تحسيس لتجنّب زعلك. أعمل الحاجة وأنا أفكر في دهسك لنومي».

كان غاضباً، يصرخ ويمدّ ذراعه، يريد أن ينتزع فاطمة.

«وعهد الله ما خفت من كرامة ولا من تهديدها بإرجاعي لبهيمة. كانت تصرخ فيّ أمام الغجر، وتعمل فيها الرزينة، وهي تلحق التخويف بكلمة «يا ابن أمي». ابن أمّك كان يقدر على كسر رقبتك، لكن أمك هي السبب، وكان في نفسي أن أنام بلا تعكير».

كان يستنفد الانفعال، ينهج وصوته يتقطّع، والشمعة بين يديه تصل للنهاية؛ يحيط به الظلام فجأة، وتنمحي أجساد العائلة من أمامه، تعود الدار من حوله بلا صوت.

*****

كان الليل ثقيلاً ويكتّف الموجودات. وعلى غير العادة، خلت المصاطب والراكيات من جلسات السمر ومن لعب الأطفال حول الأهل، وانسحب الناس إلى البيوت التي تغلّفت بطبقة صمت أغلظ من قدرة الحياة على النفاذ. كانت الرهبة كضباب كثيف ومنتشر حول مساكن جبل وعششهم عند حافة المصرف في الغزالة، ضباب يتوغل في الأدمغة ويرمي بها في توهة حسابات أمام غدٍ غير معلوم. كان العويل والصراخ الصادرين من عشة الغريب قد توقفا، وندت أصوات بكاء مكتومة كاستكمالات لليلة حافرة بإزميل كابوسي في ذاكرة الغزالة. وفي داخل العشّة؛ كان فوزي ينكفئ على جسد عديلة المتشبع بالموت، بينما تكوّمت صابحة في ركن من العشة وحولها الولد والبنت. كانت هزّات فوزي للجسد ما زالت مستمرة؛ هزات بدأت بعنف مذعور لاستجداء الحياة، وانتقلت إلى وهن فيه قلة الحيلة، قبل أن تعود إلى عنف اليائس والرائح في غضب.

كان يخلي الجلباب الممزق عن جسم أمه، يسترها بجلباب آخر نظيف. يرصّ طبلية وطشوتاً معدنية مقلوبة في خط مستقيم، ويرفع أمه عن الأرض، يضع رأسها والكتفين على الطبلية، بينما باقي الجسم على ظهر الطشوت. يتناول الكوز المعدني من فوق الزير، يملؤه عدّة مرات ويصبّ فوق الجسم، وبقطعة ليف يفرك الدم المتجمد حول طعنات غائرة في البطن والصدر. أكمل صبّ الماء وغسّل عديلة وهو يقلبها تحت الضوء البسيط لمصباح مجاور ومحطوط على قفص من جريد.

رفع رأسها وضغط على البطن برفق، ومسّد فتحتيها بخرقة بينما ينزل بالماء. أهال الماء على الجانب الأيمن من الأمام ومن الخلف وانتقل إلى الجانب الأيسر. أدخل إصبعين مبلولين في الفم، مسح الأسنان ثم نظف المنخرين. دسّ في الفتحات قِطعاً من القطن. وضفّر شعر الرأس ثلاث ضفائر وأسدلها خلفها. نشّف الجسد ثم أخذ من ثيابها ما ينفع للتكفين. كان يشقّ الثياب بالطول ويحوّلها إلى خمس قطع، يلفّ النصف السفلي بواحدة، يُقعد المرأة ويحيط الكتفين والبطن بأخرى، يواري شعر الرأس بثالثة، ويلفّ كامل الجسم بقطعة كبيرة، ثم يشدّ خرقة حول الصدر.

كانت صابحة في أثناء تجهيزه لعديلة تتفرّج ولا تقدر على مساعدة في توديع صاحبة الفضل. وأحسّت أنها مشلولة، ليس بسبب قسوة المفاجأة أو لإرهاق الجسم الذي استنفد طاقات في المقاومة، لكنما بضربات المعرفة بمسؤوليتها التامة عما حدث. وصحيح أنها كانت تصرخ وتصرِّح بتلك المسؤولية في عزّ المصيبة ومنذ ساعات، وبعدما قفز إبراهيم جبل وأصحابه إلى العشّة خلال غياب فوزي، مخمورين ومستبيحين للثلاث نساء في العشة، قبل أن يقوموا بإنهاء مقاومة عديلة بسكّين ويقفزوا في الظلام إلى الصحراء الواسعة. إلا أن اعترافها تحوّل إلى همهمات مكتومة تحجزها بالكفّ على الفم، وحتى لو علت تلك الاعترافات بالوضوح الكافي، فإن فوزي كان خارج الإدراك بالغرق في ذنب إهماله للأهل والطلوع كلّ ليلة إلى حضن النخلة.

كان يحمل عديلة وجاروفاً ويخرج إلى الخلاء، وصابحة تتخلّص من التكوّم وتقوم لتمشي وراءه، بينما تجرّ الولد والبنت المتوجعة. كانت تشاهد في الظلام تبعات تخاذلها أمام إبراهيم جبل، وتحضر صورته تحت

شجرة البرتقال، ولين كلمات على حافة الاستسلام، والدخول إلى داره بدعوى زيارة المريضة، وملامساته أثناء واجبات الضيافة، وضغط الجسد بالجسد عند مدخل باب غرفة درّية، وهمساته الصريحة وطلبه الجريء. ومن فوهة بركان لذنب متفجّر، اعترفت لروحها بأنها كانت قريبة من طلبه، لكنها كانت في حاجة إلى وقت بسيط، يزيد فيه إبراهيم من الحطب في شعلة النار أسفلها، بينما يظلّ فوزي يكتّفها بحبالٍ من ليف، ويمنع عنها الحركة ولو بخطوة من فوق تلك الشعلة.

وفي الرمل وعلى الحافة القبلية لمساكن جبل بدأ فوزي في الحفر، بينما كانت صابحة تتجاوز ملامات روحها على الضعف أمام إبراهيم، وتمضي إلى ملامات أخرى على الحاجز الهشّ والأخير الذي حال بينها وبين الاستسلام. كانت تفكر في اللحظة على باب الغرفة، وشفاه إبراهيم تتحسّس على العنق، بأنفاس حارّة وكلمات مضطربة من هياج وتوق، وكفوفه تقرص الجذع وما بين الفخذين، وصابحة تنتزع روحها من دوّامات فيما قبل الانسحاب النهائي إلى الثقب، تتملّص بضعف وبنظرات مشتّتة تطلّ على المريضة النائمة وعلى باب البيت. كانت تتجاوز الملامة على الضعف، وتنتقل إلى لوم روحها على عدم الانصياع لطلبه بالذهاب إلى الغرفة المظلمة والمجاورة لغرفة درّية النائمة، حيث تخلع هدومها قطعة وراء قطعة وتتمدّد على الأرض في انتظار الطالب المحموم، تسمع حفيف خطوته المقتربة، وتتنقل بين ارتباك وقلق ولهفة، تحتضن بالأذرع وتطوق بالسيقان، تحسّ بالأرض الباردة تحت ظهرها وبالجسم الساخن على البطن، بالريق على الرقبة والوجه، بالأصابع توقظ الجلد، تسقي وتزيل عنه العطش؛ ولا يأتي بعدها في باله الهجوم على العشّة وقتل الستّ الكبيرة. كانت الملامات

تنزلق نحو صبر إبراهيم، وهي تكز الأسنان على الأصابع وتستنكر يأسه القريب، ترى يأسه مثل سنبلة قمح قريبة من الكفّ، وليس مثل البلح عالياً ويحتاج إلى وقت لينزل.

كان فوزي يحيط موضع الدفن بحجارة كبيرة، يرصّها في شكل بيضاوي كعلامات، ويغرس حجراً كبيراً في المنتصف كشاهد. كانت صابحة بنصف إفاقة، تطلب منه بصوت خافت الانتظار إلى الصبح لصلاة الناس والدفن في مقابر المناجاة أو الغزالة بدلاً من المكان القفر. كان فوزي بلا سمع، يعود إلى العشّة وخلفه الثلاثة. قعد وحده لبعض الوقت في ركن يغالب أعاصير لذنوب وأوجاع. نهض وفتّش عن البلطة في الزوايا. كان يهرول من جديد خارجاً من العشّة والبلطة في يده، وصابحة وراءه تمسك ظهره وتصرخ بأن الفاعلين هربوا إلى الصحراء ولن يعثر عليهم في الظلام، تطلب منه الذهاب إلى الحاج عليّ، واللجوء إليه لأخذ الحقّ، تناديه بالرجوع لأنهم أغراب في وسط ناس تفرّجوا على هروب القتلة ولم يمدّوا يداً بمساعدة.

لكن فوزي كان بعيداً عن الذهاب إلى الغرب، كان يخرج من جديد إلى الخلاء، ويمضي على الرمل إلى نخلة البيت. يقف أمامها ويلوم بالعين السائبة، ينزل على الجذع بالبلطة في ضربات قوية وهو يتذكر الستّ التي دوماً قالت له: «أنت فوزي من الدنيا»، الست التي اشترت كل بوصة في طوله بعرق شهور. كانت يده قد أحدثت شقّاً ملحوظاً في الجذع. ومن بين توقّفات تعبه، كان يتراءى له اليتم وافتقاد القشّة الأخيرة، يشعر بالجوع للمسة، لمكان للحكاية بلا توقف ولا خجل، ويحنّ لأيامٍ كان الحديث فيها مع النخلة هو أصفى الأوقات، فيما قبل الزواج وضربات الذنب. كانت النخلة باب لجوء حينما يخالطه مرض أو وجع في الجسم؛ ويهرع

معه إلى الجذع طالباً النجدة، ويحسّ برواح التعب بعد برهة من الاحتكاك بالوقل. كان يتذكّر ليلة بعيدة أصابته فيها الحُمّى والهلاوس ولم تسعفه يدا عديلة؛ فخرج متخبّطاً خلال العتمة إلى الخلاء ونام عند النخلة. ومن بين صكّ العظام وخيالات الحرارة؛ كان يشاهد ملاكاً بأجنحة بيضاء ينزل ويقعد قباله، ويحسّ بالجذع مثل كمادات باردة تضغط على جبهته حتى أصبح رائقاً بلا أثر للحمّى.

كان فوزي يتذكّر ويضرب في الجذع بقبضتيه، يخبط فيه رأسه، يخلع الجلباب واللباس، ينزع الفانلة ويطوّح بها في الهواء. طوّق النخلة بالذراعين وهو يشكو البَثّ والحزن بينما يتكلم ويعضّ.

كانت النخلة تتخلخل بين ذراعيه، تتخلص من التراب، تنتفض، تأخذ فوزي فوقها وتهبط بهدوء لتنام على الرمل أمام باب البيت. رأسها يتقوّس وتميل بالسعف على ظهره العاري، تتحسّس في رفق، كأنما أصابع تُخرج وجع الأيام من الجلد. كان فوزي يتكلم ويكلبِش، يسيل، يحسُّ بليونة الجذع في تلك المرة، بلا خشونة تدعو لتوقّف ولا صلادة معهودة؛ وكأنه يغوص في لحمٍ ناعمٍ، وخدّه على صفحة لبن.

وبينما السعفُ يتكاتفُ، يمتدُّ، ويلتفُّ الحاضن على الحاضن؛ كان فوزي يروح في النوم، ويصحو منه على خيوط ضوء. كان ينزل من فوق الجذع، يقف على الرمل، يتلمّس النخلة، يغمس وجهه ويتمرّغ بخدَّيه للتأكد من أحداث الليل. كانت النخلة تقترب، تدور وتحتكُّ في خفّة بساقيه، تميل من جديد بالسعف، تداعب وجهه، تُلاطف، تزيل عنه عينيه آثار النوم، تتراجع في هدوء، وتَثْبُت في رقّة، وكأنها عروس في صباحيّة وتهمس لحبيب بصباح الخير. كان يتملّى فيها، وهي تتملّى منه، قبل أن تبتعد رويداً، تتدحرج ببطء إلى الغرب، تقوم، تنزل واقفة في المصرف،

تنقلب رأساً على عقب حتى البرّ الآخر، تنام من جديد وتتدحرج فوق قضبان الحديد، تمضي إلى صحراء واسعة، وخلفها الضئيل، عارياً وبخطوات قافزة.

*****

ما دلّهم على موته

في الصبح، كانت المناجاة هادئة، صحيح بلا ناس ولا بهائم، لكن بطيور تزقزق وهواء يمرّ خلال المزروعات. كانت المناجاة سليمة، بلا دهس ولا دم، بينما تكوّمت نخلات فوزي أسفل الرمال في حفرة هائلة قبل الحد الغربي للبلد، ومباشرة فيما قبل قضبان السكة الحديد.

ولم يشهد ما حصل في تلك الليلة سوى فاطمة القط. كانت فاطمة في الهواء، تجاهد وتؤجج الرياح لإيقاف تقدم النخلات إلى البلد لكنها لم تفلح، رأت فاطمة النخلات وهي تعاند وتمرّ، تدهس الحجر المتعثر وتكمل، شاهدته يتلوى تحت الواطئات من بين غبار كثيف. لكنما قبل وصول النخلات إلى حد المناجاة، كانت ترى من موقعها في السماء طفلة صغيرة تقف على رصيف محطة المناجاة في الليل، مضروبة بنور لحريق مرتفع في الشرق، كانت البنت في جلباب أخضر قصير يصل إلى الركبتين، وبشريطة تلفّ ضفيرة في الرأس. كانت فاطمة تشاهد البنت وهي تفتح فمها وتشفط، ورمال الصحراء تتحرك بقوة مهولة، تنساب الرمال بسرعة من أسفل الجيش، تغيب الأرض من تحت فوزي والنخلات، وتنزاح الرمال إلى الجوانب بسرعة كجبال عالية مع دوامات عنيفة؛ حتى أن

الدوامات أسقطت فاطمة القط بعيداً فيما خلف المصرف. لكنها -قبل السقوط- شاهدت وقوع فوزي في الحفرة العميقة بلا قرار والتي صنعتها البنت، ومن خلفه، كانت نخلاته تسقط كموجة إثر موجة، منسحبة من أمام عينيها، ومتكوّمة فوقه وحواليه حتى امتلأت تلك الحفرة تماماً، بينما عادت جبال الرمل لتنهال من الجوانب مرة أخرى، تدفن النخلات بسرعة جاروف عظيم. كان جيش فوزي يغيب في لحظات، بلا أثر، بنسيان كامل.

كانت فاطمة تنهض رغم الألم والجروح المنتشرة من أثر السقوط، تمشي موجوعة، تتحامل وتعرج، ترى البنت راوية تسير في الظلام، بينما تبرز تدريجيّاً من رأسها سعفات خضراء تطول وتتداخل، ويتدلى من بينها سباط بلح أحمر ينساب على الظهر ويتهادى مع الخطوة. كانت البنت تمرُّ إلى جوار النار الماسكة في بيت الحجر، تخرج من الحدّ البحري للغزالة، وفاطمة وراءها مذهولة.

كانت البنت تصل إلى بيت فوزي في الخلاء، تدخل وتغلق الباب من خلفها، بينما ينبعث نور ضئيل من الشباك. وأمام الباب، وقفت فاطمة القط، وراءها عمود دخان ولسان لهب مرتفع، وأمامها وعلى رمل الخلاء، ظلال مهيبة، لأجنحة مكسورة...

انتهت

تشرين الثاني (نوفمبر) 2017

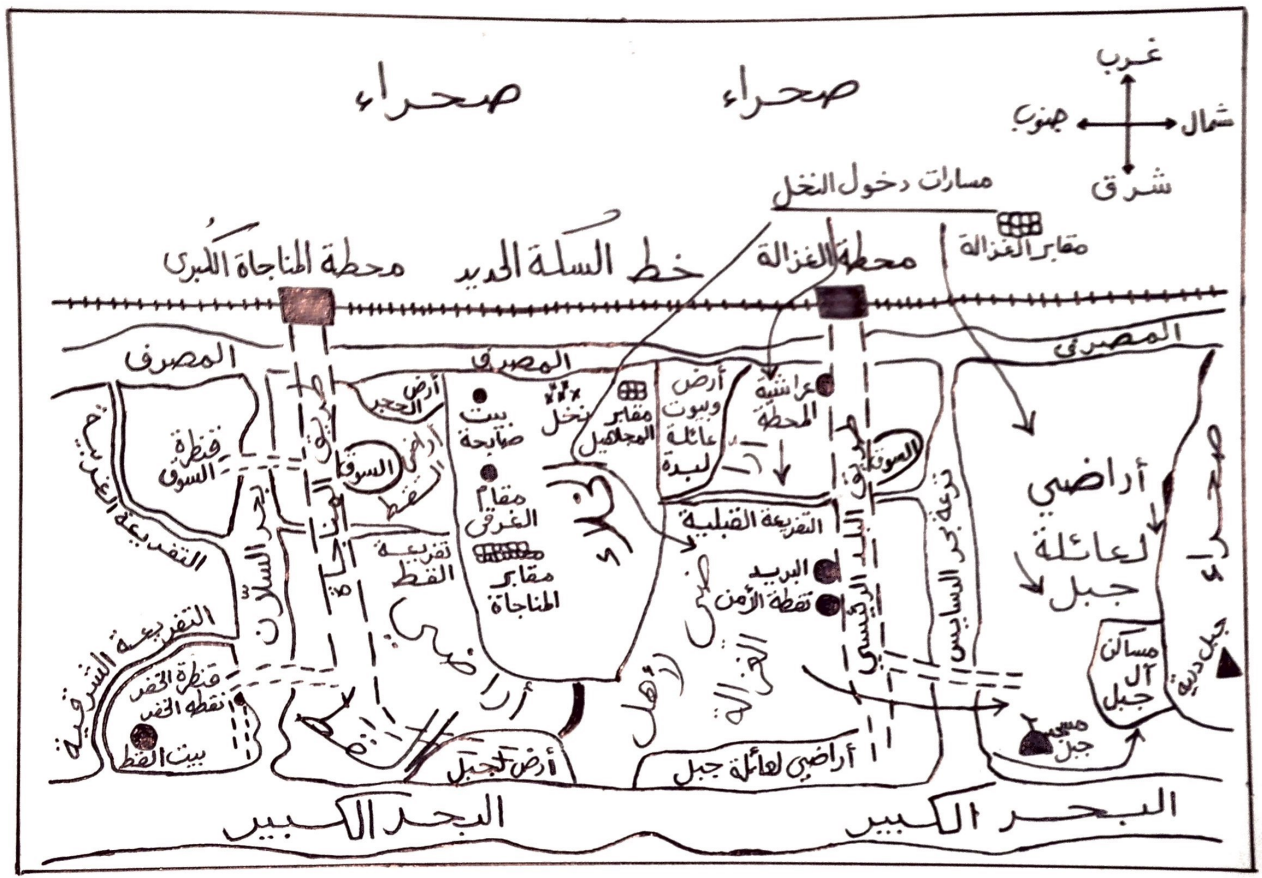

صحراء
صحراء
غرب
شمال
جنوب
شرق
مسارات دخول النخل
مقابر الغزالة
محطة المناجاة الكبرى
خط السكة الحديد
محطة الغزالة
المصرف
المصرف
المصرف
قنطرة السوق
بحر السلان
طريق المناجاة
السوق
أرض الحجر
أراضي القط
تفريعة القط
بيت صابحة
مقام الغرقى
مقابر المناجاة
نخل
مقابر المجاهيل
الخلاء
أرض وبيوت عائلة لبدة
عراشية المحطة
التفريعة القبلية
البريد
نقطة الأمن
طريق البلد الرئيسي
السوق
ترعة بحر السايس
أراضي لعائلة جبل
أراضي أهل الغزالة
أراضي لعائلة جبل
أرض جبل
مساكن آل جبل
جبل دبية
التفريعة الغربية
التفريعة الشرقية
قنطرة الخضر
نقطة الخضر
بيت القط
البحر الكبير
البحر الكبير

شكر

جزيل الشكر لمن ساهم بآراء وملاحظات في مخطوطة العمل

كاميليا حسين

محمد عزت

ياسمين إمام

فايز علام

شيماء عزت

نائل الطوخي

أحمد الفخراني

محمد ربيع

أحمد محجوب

محمد عبد النبي

إبراهيم عادل

أحمد كامل:

كاتب مصري، من مواليد عام 1981.

صدر له الكتب التالية:

- سكر فائت لنرجس لا يغني، ديوان شعر، دار اكتب، 2008.
- ملك على الذكرى، ديوان شعر، دار صفصافة، 2011.
- العهد القديم – آخر 48 ساعة في حياة المدهش، رواية، دار روافد، 2016.